منارةُ النبوَّة وعالميَّةُ الرِّسالة

رواية

عبد الباقي يوسف

منارة النبوة وعالمية الرسالة

تأليف: عبد الباقي يوسف

رقم إذن الطباعة: 7948500 - 01 - 10 - mc
التصنيف الموضوعي: السيرة
الترقيم الدولي ISBN
9789948723585
الفئة العمرية: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن مجلس الإمارات للإعلام

نُشرت في الفجيرة - الإمارات العربية المتحدة - الطبعة: الأولى 2025
منحة البدر، الفجيرة

فهرس المحتويات

الفصل الأوَّل:

الرَّسول الإنسان
إشراقةُ المَولد
التَّرعرع في شِعاب مَكَّة
فتى مُبارَك
الإسهام المبكّر في تأسيس جمعيَّةٍ لحقوق الإنسان
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها
نزول الوحي
دار الأرقَم وسرّيَّة الدعوة

الفصل الثاني:

أوان الجهر بالدَعوة
سنواتُ الحِصار
فراق خديجة رضي الله عنها
سودة بنت زمعة رضي الله عنها
ردّ الأذى بالتسامح
دفء الإسلام

الفصل الثالث:

استعدادات الخروج مِن مَكَّة
بينَ ظهراني المدينة المنوَّرة
التآخي الإنساني

تأسيس منهج التعايش السلمي بين المُكوِّنات
منهج السلم
بين الدِّين والدُّنيا

الفصل الرابع

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها
حفصة بنت عمر رضي الله عنها
زينب بنت خزيمة رضي الله عنها
أم سَلَمة بنت أبي أميَّة رضي الله عنها
جُويريَة بنت الحارث رضي الله عنها
زينب بنت جحش رضي الله عنها
أم حَبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها
صفية بنت حيي رضي الله عنها
ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

الفصل الخامس

النزعة الإنسانية
العودة إلى مَكَّة المُكرَّمة
إعادة الاعتبار للمرأة
العناية النبوية بتماسك العائلة
رسول الرحمة
ما قبل الرسول صلى الله عليه وسلم وما بعده
سَكينة العِبادة
التأسيس لعالميَّة الإنسان
حكمة أمّي

الفصل الأوَّل

الرَّسول الإنسان

ولدتُ في هذه البِلاد الغريبة، وكبرتُ في ربوعِها سنةً بعد سنة، ورغم أنَّني بلغتُ العشرين من عمري، وأحمل جنسيَّتها، إلّا أنَّني أشعر في أعماقي بالاغتراب، وأنَّني مثل شجرة اقتُلِعَت مِن تُربتِها وغُرِسَت في تُربة غريبة.
تبقى عيني دائماً على بَلَدي، يبقى قلبي على بَلَدي، بَلَد آبائي وأجدادي، وأتخيَّل طبيعة العلاقات الاجتماعية هُناك، أتخيَّل أعمامي وأبناءهم، عمّاتي وأبناءهن، وينتابني شعورٌ دائِمٌ بأنَّني هُنا، ولكن جذوري هُناك، وكم حاولتُ مراراً أن أتغلَّبَ على هذا الشعور، لكنَّني لم أفلح.

عندما هاجَرَ أبي من موطِنه ومسقط رأسِه إلى هذه البِلاد، كان في الرابعة والعشرين مِن عمره، وبعد خمس سنواتٍ مِن وجودِه هُنا، تعرَّفَ على أمّي التي هي مواطِنة مِن أصول هذه البِلاد، ورأى كل واحدٍ مِنهما أن الآخرَ هو نصفه.
كانَت أمّي حينذاك في العشرين مِن عُمرِها، وهي ابنة صاحِب متجرٍ لبيع المواد الغِذائيَّة يبعد عَن بَيت أبي، ولم يكن أبي يذهب إليه إلّا نادِراً أو مُصادَفةً، لأنَّه اعتادَ أن يشتري المواد الغِذائيّة مِن المَتجر القريب مِن مَسكَنه.

وذاتَ يومٍ بينما كان أبي ذاهِباً إلى ذاك المَتجر لشراء البُنّ الذي كان قد نَفدَ في المَتجر المُجاور له، التقى بِها لأوَّل مرّةٍ، ومع تلك

النظرات الأولى أحسَّ بأنَّ شيئاً فيه يكمن في هذه المرأة وأنَّه يعرفها مُنذُ زمنٍ بَعيد.

كانَت المرَّة الأولى التي ينتابه فيها مثل هذا الشعور بالألفة نحو امرأةٍ، كما أخبَرَني عندما سألته أن يتحدَّث لي عن كيفيَّة زواجه مِن أمّي.
قال: هكذا يا بُنَي، أناسٌ تلتقيهم لأوَّل مَرَّة، تشعر بألفة معهم، وأن لا حواجِز بينك وبينهم، كما لو أنَّكَ على معرفة وطيدةٍ بِهم، يعرفونك وتعرفهم جَيّداً.
وأناسٌ تعرفهم منذ سنوات، تشعر بأنَّهم غُرباء عَنك، وبينكَ وبينهم ألف حاجِز، وأنَّكَ غريبٌ عَنهم.

بعد لقائه الأوَّل بِها صارَ يتذرَّع بأيَّة حجَّةٍ لِيَتردَّد على ذلك المتجر، حتى إنَّه صار يَشتري حاجاتٍ غير ضرورية يمكنه تأجيلها.
وكانت أمّي تأتي بين حينٍ وآخر إلى أبيها في المَتجر وتمضي بعض الوقت عنده، ولأنَّ أبي رجلٌ جادٌّ كما أعرف، لم يتأخَّر كثيراً، فبعدَ مرورِ شهرَين على ذلك اللِّقاء، عبَّر لها عَن رغبته بالزواج مِنها وهما في المَتجَر، ولم ترفض أمّي، ولكنَّها طَلَبَت مِنه أن يُمهِلها بعض الوقت.

وذاتَ مرّة سمعتُ أمّي تقول لِخالَتي (ماري) في بيتِنا بأنَّها عندما رأت أبي في المتجر للمرَّة الأولى، أحسَّت بجاذبيَّة عجيبة نحوه ولم تكن تتمالك نفسها عندما كان يأتي وينتقي المواد الغِذائيَّة ويضعها في العَرَبة، فكانَت تمضي نحو القسم الذي ينتقي منه السِلَع، وتلقي عليه السلام.

وصارَت تُكثر مِن زياراتها إلى المتجر، وفي اليوم الذي تلقاه فيه، ينشرح صدرُها وتشعر بسعادة العالَم، واليَوم الذي لا تلقاه فيه، يضيقُ صدرُها وتشعر بتعاسة العالَم، وترجع إلى البيت مكتئبة.

عندما فاتَحَها أبي بالزواج، راودها شعورٌ بأنَّ الدِّين قد يكونُ عائِقاً في التفاهم بينهما، وهي الفتاة البروستانتيَّة التي لم تكن تعرف إلّا القليل عَن الإسلام، وأنَّ بعض ما قَرَأته بِلغَتِها الإنجليزيَّة عنه، لم يكن كافياً بدرجةٍ كافيةٍ لاتِّخاذِ قرارٍ مصيريٍّ كبيرٍ كهذا، فهو زواجٌ، ومستقبلٌ، وبناءُ بيتٍ، وصفحةٌ جديدةٌ مِن الحَياة.
ولكن بذاتِ الوقت كان الرجل الوحيد الذي سَكَنَتْ إليه عاطِفتُها، واطمأنَّ إليه قلبُها، لذلك لم تتسرَّع سواء بالقبول، أو الرفض، وطَلَبتْ مِنه أن يمنحها مهلةً حتى تستقرّ على القرار الذي تراه مُناسِباً، وتَكون مُهلة له أيضاً حتى يُفكِّر هو الآخر في هذا الأمر بشكلٍ أعمق، ويُراجِع نفسه أكثر.

عند ذاك رأى أبي بأنَّها صائِبة في مطلبِها، فاستجابَ لها، واستمرَّ في ذهابه إلى المتجر بينَ حينٍ وآخر لشراء احتياجاته مِن المواد الغذائيَّة، وعندما تراه داخِلاً إلى المَتجَر، تتقدّم إليه على الفَور وتُرحِّب به باحتِفاء، وبعد أن ينتقي احتياجاته، تدعوه للجلوس في ركنٍ مِن المَتجر، تتحدَّث معه وتحاول أن تتعرَّفَ على شخصيَّته أكثر، وكذلك تنفتح على معرِفة الإسلام.
وذاتَ يوم صارَحَته بقولِها: للأسف، معلوماتي عَن الإسلام متواضِعة يا عمران.
قال: هذا أمرٌ طبيعيٌّ يا سارة، بسبَب قِلَّة قراءتكِ عنه.
قالت مُستَغرِبة: وهل الاسلام يدعو إلى القراءة؟
قال: الكلمة الأولى التي أُنزِلت مِن القرآن، كانَت دعوة إلى محو الأميَّة في مُجتَمَعٍ كانَت الأميَّة فيه سائِدة، واستطاعَ محمد عليه

الصلاة والسلام أن يمحو أميَّة المُجتمَع بالقرآن ليُصبِح التعليمُ فيه سائِداً، وأنا سليلُ أمَّة اقرأ، وشَغوفٌ بالقِراءة.

قالَت: أنا أيضاً كثيرة القراءة ولكن تجذبني قراءة الروايات، وأخذتُ هذه الهواية عَن أبي الذي يملك مكتبةً كبيرةً في البَيت؛ تحتوي على الكثير مِن الأعمال الروائيَّة، وقرأتُ مِنها مجموعة جيدّة مِن روايات الحقبة الرومانسية في أوروبا، إلى جانب رواياتٍ لأُدباء مِن مختلف أنحاء العالَم.
ولا يُمكِن لي أن أنسى: مُرتفعات وذرينغ، وكُوخ العم توم، ومَدام بوفاري، وذهبَ مع الرِّيح، وكبرياء وتحامل، وأحدب نوتردام، وقصَّة مدينتَين، وعوليس، وآنا كارنينا، وجين أير.

وعندما عَرَفَتْ بأنَّه صاحب مكتبةٍ مُختصَّةٍ بالسِّيرة النبويَّةِ، سرَّها ذلكَ كثيراً، وقال أبي بأنَّه بَعد عدَّة أيَّامٍ وبينما كان جالِساً في المكتبة مع بعض أصدقائِه، تفاجأ بِها تدخل مع أُختِها ماري إلى المكتبة، ورآهما تتأمَّلان الرفوف العامِرة بالكُتب، فنهض مُستأذِنا من أصدقائِه، واتَّجه إليهما وصار يُرحِب بِهما بحفاوة.

وحينها طَلَبتْ أمّي أن يُرشدهما إلى القسم الإنجليزي مِن المكتبة، فَمَضَتا معه وهو يقول: هذا القسم في غالبيَّته يحتوي على مؤلَّفاتٍ مُترجمةٍ مِن العَرَبيَّة، ولغاتٍ أُخرى إلى اللغة الانجليزيَّة، لمؤلِّفين مُسلمين وغير مُسلمين ألَّفوا في السِّيرة النبويَّة الشريفة.
بعد الاطِّلاع على العناوين، وأبي يشرح لهما نَبذةً عَن كل كِتاب، اقتنَتا بعض الكُتب، وخرجَ أبي يودِّعهما إلى الباب الخارجي للمكتبة.
قال أبي بأنَّه كان في البيت وعلى وشك أن ينام، عندما اتَّصَلَت بِه أمّي في الساعة العاشِرة والنصف ليلاً وقالَت بعد أن تبادَلا السَلام:

أُخبِركَ يا عِمران بأنَّ موقفي مِن اليوم الذي طلبتني فيه للزواج، لم يطرأ عليه أيُّ جديدٍ رغم الأشهر الثمانية التي مَضَت.
قال أبي: وهو..؟
قالَت: وهو أنَّني لا أتخيَّل حياتي مع أيِّ شخصٍ آخر غيرك.
قال: هذه هي مشاعري أيضاً نحوكِ يا سارة، لذلك بقيتُ أنتَظرُ على أملِ أن تتكلَّلَ مشاعِرُنا بالزواج.
قالَت: وكانَت فرصة ثمينة لي خِلال هذه الأشهر أن ختمتُ القرآن مرَّتَين، وقرأتُ مجموعة مِن الكُتب عن حياة الرسول.
ولا أخفيكَ يا عِمران بأنَّ أهلي لم يكونوا مُرتاحين لفكرة الزواج عندما أخبَرتُهم، ولكن مع الوقت استطعتُ أن أُقنع أبي وأمّي حتى وافَقا، وصرتُ أتحدَّث لهما عن القرآن الذي قرأته، وعن حياة الرسول، حتى أنَّ أبي قرأ القرآن، وقرأ بعض الكُتب عن حياة الرسول بعد أن حدَّثته عَن قراءاتي الجَديدة.
قال: قبول الأهل بالزواج أمر بالغ الأهمّيَّة، وأنا أيضاً قبل أن أتحدَّث معكِ عن الزواج، حصلتُ على موافقة أبوَي، موافقةُ الأهل يا سارة هي مُبارَكةٌ لهذا الميثاق الغليظ بين الزوجَين.
عندها تركَ أبي البيت الذي كان يستأجره ويقيم فيه وحيداً، واستأجرَ بيتاً يتناسَب مع وضعه الاجتماعي الجَديد، أثَّثَه بأثاثٍ جَديدٍ وأتى بعروسته إليه.

مع سنوات الزواج وولادتي، أورَقَت هذه المحبَّة بينهما وتفرَّعَت إلى التقدير، والاحترام، والتضحية، والتآلف.
وصرتُ أرى سنةً بعد سنة كم أنَّ أبي مُتعلِّقٌ بأمّي، وكم هي مُتعلِّقةٌ به، فعندما يخرج من البَيت، أحياناً أراه يُقبِّل جبهتها، فتشعر بِحَرَجٍ عندما يفعل ذلك أمامي، وعندما يعود مِن العَمَل، يأتي لها بشيءٍ، مثل وردة، أو قطعة شوكولاتة، أو ما يراه مناسِباً، يمدّ لها ما يحمل

وهو يقول: تذكَّرتكِ يا سارة عندما رأيتها، فتأخذ القطعة وتقول: شكراً يا عِمران. فأرى مدى السعادة التي تظهر على وجنَتَيها.
وبدأتُ أشعرُ بأنّني أستمدُّ سعادتي مِن سعادتهما، واستقراري النَفسي مِن استقرارهما.
في الصباح تستيقظ أُمّي قبله، تُحضّر القهوة ثم توقظه قائلةً: قم يا عِمران، فيأتي صوتُه، وهو يقول لها: صباح الخير.
تجيبه: صباح النور والبركة.
ينهض مِن الفراش، يغسل وجهه، ويذهبان إلى شرفة بيتنا المُطلَّة على الشارع، يحتسيان قهوة الصباح، ويُمضِيَان في الجلوس معاً نحو نصف ساعة يتبادلان فيها الأحاديث، وأحياناً يضحكان حتّى إن ضحكاتهما تصلني وأنا في غرفتي.

ثم يخرج أبي إلى عَمَلِه في المكتبة الضخمة التي يملكها، والتي تتألَّف مِن طابِقَين، وتحتوي في جزئِها الأكبَر على مؤَلَّفاتٍ عَن السِّيرة النبويَّة، إضافةً إلى مُصنَّفاتٍ تتضمَّن الأحاديث النبويَّة، ومصاحف بأحجامٍ مُختلِفةٍ، وبطبعاتٍ وتقنياتٍ حديثةٍ، مثل: مصحف القلم الناطق للكبار، أو للأطفال، أو لغير الناطقين باللغة العربية، أو مصحف القلم للتجويد.
وهي بذات الوقت دار نشر تطبع بين حينٍ وآخر بعض الكتب ضمن هذا الاختصاص الذي عُرِفَت به في هذه المنطقة التي نسكنُها في لندن.
ومِن باب التنوّع، تطبع كذلك بعض المؤلَّفات الأدبيَّة والعلميَّة التي يراها أبي مُناسِبة، وأفردَ قسماً مِن المكتبة لهذه المؤلَّفات المُتنوّعة في أجناس الفكر، والآداب، والفنون.
ومع عنايته الفائِقة بالعمَل، صارت مكتبتُه تحتوي على مجموعةٍ هائلةٍ من المؤلّفات التي تخص السِّيرة النبويَّة من مختلف العصور،

وكذلك المؤلَّفات التي ألَّفها المُفكّرون والكُتّاب الأجانب عن الرسول عليه الصلاة والسلام.
وغدت بعض الأكشاك التي تبيع الكُتب في الأركان المختلفة من المدينة، تعتمدُ على شِراء الكُتب التي تُريد من هذه المكتبة، إضافةً إلى مكتبات المساجِد، وبعض المراكز الثقافية العربيَّة هُنا، وبعض الذين يُقدِّمون رسائل جامعيَّة، وبعض الباحثين والأدباء.
فيأتون بين حينٍ وآخر وهم يحملون قوائِم بالكُتب التي يُريدونها، وبالتعاون مع دور نشرٍ عربيّة، يؤمِّن أبي الكتب غير المتوفِّرة في المكتبة حتى يُكمل القوائِم المطلوبة.
وهذا إلى جانِب مجموعةٍ مِن الجامِعات البريطانيَّة التي لها توصية مُقدَّماً لشراء عشر نُسَخٍ مِن كل كِتابٍ يصدر حديثاً في البِلاد العربية، كي تتيحها للإعارة في القسم العربي مِن مكتباتها، ويقوم أبي بتأمين هذه الإصدارات لها.

عندما هاجَرَ أبي إلى هذه البِلاد، استأجَرَ محلّاً صَغيراً، وحوَّله إلى مكتبةٍ صغيرةٍ، وصار يبيع فيها بعض كُتب السيرة التي كان يطلبها من دور نشر عربيَّة، وكانوا يرسلونها له، ويُحوِّلُ لهم قيمتَها بواسطة شركات التَّحويل. ولاهتِمام أبي بهذا الاختصاص، وحبِّه له، أسمى المكتبةَ: (مكتبة السِّيرة).
وكان ذلك بمثابة حَجَر الأساس لمشروعه هذا الذي يقول بأنَّه مشروع عمره.

أحياناً يُحدِّثنا عن تلك البِدايات، ومدى صعوبتها، ويقول: وجود مكتبة كهذه كان يبدو غريباً في هذه البِلاد، ونادِراً ما كان يدخل شخصٌ ويشتري كِتاباً، ومعظم الذين يدخلون المكتبة، كانوا يمرّون بجانب رفوف الكُتب، ينظرون إليها بشكلٍ سريعٍ، ثم يَخرجون وهم

يرمقونَني بنظراتٍ توحي إليّ بأنَّني أنفق جهدي ووقتي ومالي في أمرٍ لا طائِل منه، وكانوا على الأغلب مِن الأجانب.
كانَت الكُتب تبقى مُعروضة على الرفوف، وكنتُ أجلس في المكتبة من الصباح حتَّى المساء وأنا مُنكَبٌّ على قراءة الكتب المتنوّعة.

ولكن بعدَ مرور سَنَتَين على ذاكَ الجمود، بدأت الحَرَكة تدبُّ في المَكتبة، وصار بعضُ المُهتمّين مِن العرب يَتردَّدون إليها ويجلسون مع أبي وهم يتحاورن في الشؤون الدِّينيَّة والثقافيَّة بشكلٍ عامٍّ، وعن الأحداث التي تستجدّ.
ويوماً إثرَ يوم كان عدد روّاد المكتبة يزداد، وانعكسَ هذا على حركة الكُتب التي غدت تلقى إقبالاً عليها، وبدأ بعضهم يوصون على عناوينَ مُحدَّدة كي يطلبها أبي لهم مِن ضمن ما يطلب مِن دور النشر.
مع هذا الحراك، انتعش وضع أبي الاقتصادي، ورأى أنَّ المَحَل باتَ يضيقُ بالكُتب، وكذلك بِمَن أصبحوا أصدقاءَ المَكتَبة، وأصدِقاءَ أبي معاً، وباتوا لا يجدون الأماكن للجلوس والمشاركة في الحوارات التي تدور بَينَهم.
وهنا قرَّرَ أبي أن يستأجر مَحَلّاً كبيراً، ويوسّع نشاطه، فاستأجرَ هذا المَحَل الكبير المؤلَّف مِن طابِقَين وقَبو، ونقلَ كل الكُتب إليه، وعيَّنَ موظَّفَين وموظَّفتَين في المكتبة، ليتعاونوا على فَرزِ الكُتب في أجنحةٍ وأقسامٍ خاصَّةٍ بِمضامينها، ويُدخِلوا عناوين الكُتب إلى الحاسوب كي يسهل الوصول إلى الكِتاب المَطلوب، وكذلك لبيان ما إذا كان الكِتاب المطلوب موجوداً أو غير موجود.
استغرقَ العملُ شهراً حتى تَجهَّزَت المكتبة، وأُدخِلَت جميع الكُتب إلى الحاسوب، وحَمَلت واجهةُ المكتبة لائحة مُزَخرَفة باسم: (مكتبة السِّيرة). ثم افتَتَحَها أبي بحضور العاملين فيها، وبعض أصدقائه ومسؤولي المقرَّات الثقافية في المنطقة.

وخَصَّصَ أبي رُكناً مِنها لجلسات أصدقاء المَكتَبة من أدباء، وفنانين، ومثقفين، وأساتذة جامِعات.
بعد ذلك خصَّصَ يوم الخميس مِن كلِّ أسبوعٍ لإقامة نشاطٍ ثقافي، فيدعو أحد المُختَصِّين سواء مِن أصدقاء المَكتبة، أو مِن غيرِهم لإلقاء مُحاضرةٍ، ثم تدور الحِوارات حول مضمون مُحاضَرته، وبدأت الكراسي تكتظّ بالمدعوّين، ومع الاستمرار صار بعض الأجانب الذين يهتمّون بالثقافة العربيَّة يتردَّدون إلى المكتبة ويحضرون أيضاً هذه الأنشِطة الثقافيَّة، وعندها يكون الحوارُ بين العربيَّة والانجليزيَّة مُراعاةً لهم كي يُشارِكوا في الحوار، وغَدوا يُشارِكون أحياناً في إلقاء المُحاضَرات التي تُنسِّقها المكتبة في برنامجها.

بعد نحو عشر سنواتٍ مِن زواج أبي، وعمله الدؤوب، استطاع أن يشتري هذه المَكتَبة مِن مالِكها، وعند ذاك شعرَ بمسؤوليَّة أكبر للمُضيّ في استكمال المشروع الذي سخَّرَ له عمره.
أحياناً عندما أذهب إليه في المَكتبة، أجد معنوياته عالية والسعادة بادية عليه كما لو أنَّه مَلَك يقف بحيويَّةٍ ونَشاط على رأس عَمِلِه، ويتلقّى الاتِّصالات، يستقبل بعض الزبائن، يُرشد بعض طلبة الدراسات إلى كُتبٍ لرسائِلهم الجامعيَّة، يتحدَّث مع أحد المؤلِّفين الذين يريدون طباعة كِتابٍ عَن المكتبة، ينزل إلى القَبو المُكتَظ بالكُتب ويرتدي صدريَّةً، ويتفقّد بعض العناوين والكتب القديمة الصدور، والمخطوطات النادِرة التي يحتفظ بِها، ثم يعطي إرشاداته للعاملين.

يقول أبي بأنَّه في بداية حياتِه كان يجول على المكتبات في بِلاده، ويحلم أن يُصبح ذات يوم صاحِب مكتبة، يجلس على كرسيِّه وسط الكُتب، ولكن ذلك الحُلم كان بعيد المَنال بسبب وضعه الاقتصادي

المُتردّي، حتى إنّه عندما تخرَّج مِن الجامعة أستاذاً للّغة العربية، بقي هاجس المكتبة يُراوده.

كان عِندَما يدخل مكتبةً، وينظر إلى قوائم الكُتب، وينتقي مِنها بحسب إمكاناتِه المادّية، يتأمَّل بينَ حينٍ وآخر صاحِب المكتبة الذي يجلس خلف مكتبه وهو يقرأ كِتاباً وقد استغرقَ فيه، فتأخذه التداعيات ويتجدَّد به الحلم.
وذاتَ يومٍ خَطَر له أن يُهاجِر إلى بريطانيا، وصار يُفكّر في الأمر مليّاً ويُقلِّبه على مُختَلفِ أوجهه حتى اقتنَعَ بالفِكرة وعرَضها على أبيه الذي اعترَضَ، لكنَّه عندما وجَدَه مُصِرّاً، أبدى موافقته.
فبدأ أبي يعمل في إجراءات الهِجرة حتى نفَّذَ الفكرة بمشقَّةٍ ووجد نفسه على تُربة هذه البِلاد. وعند ذاك أحسَّ بأنَّه قد وضع خطوته الأولى نحو تحقيق حلمه في إنشاءٍ مكتبةٍ تكتظُّ بالكُتب.

بدأت مداركي تتفتَّح في بيتِنا الغارق في السَكينة والهدوء، وكانَت أمّي بعد أن تفرغ مِن واجِباتها المنزليَّة، تجلس وتقرأ كِتاباً مِن مكتبة البيت، ورأيتني أميل أيضاً إلى القراءة في أوقات فراغي وعندما أنتهي مِن واجباتي المدرسيَّة، أو أكونَ في عطلةٍ، في حين كان أبي يمضي معظم وقته في المكتبة، ولا يعود إلى البيت إلّا وقَد نالَ مِنه الإرهاق، وعندما رأيته مواظِباً على ذلك، قلت له: يا أبي أنت تُرهق نفسك في العمل كثيراً.
قال: لا يا بُنَي، إرهاق العَمَل راحة مادام الإنسان ينتج، ويقطف نتاج عَمَلِه، والمهنة مِن نِعَم الله على الإنسان.
أن تكون صاحِبَ مِهنة، يعني بأنَّكَ سيّدٌ في عَمَلِك، والمهنة مسؤوليَّة وأمانة، وعلى الإنسان أن يُقدّر المِهنة التي أنعم الله بها عليه، ويُحافِظ عليها حتى تدوم له.

يقول رسولنا الكريم: "لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ"[1].

وهو يتحدَّث أحسستُ كم أنَّ السؤال يمكن له أن يذل الإنسان، ولذلكَ لا بدَّ أن تكون لي مهنة في الحياة، أكسب منها لقمة عيشي وتَقيْني مذلَّة السؤال، وكسر النفس، وتحطيم المعنويات.

قال: عندما أجيء بطعامٍ إلى البَيت مِن عَمَلي، أحسُّ بسعادةٍ وأنسى كل ما بذلت مِن جهد، العائِلة مسؤوليَّة يا بُني، وقد تنهار إذا لم يُحافِظ المُعيل عليها كما يُحافِظ على عينَيه.

يقول عليه الصلاة والسلام: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[2].

ولم يسبق للرسول الذي نتأسَّى به أن بقي دون عمل حتى في السنوات المُبكِّرة من عمره الشريف، فكان عليه الصَّلاة والسَّلام يرعى الغنم، ويقول: "كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ"[3].

فلم يكن مُستهلِكاً فقط وهو في بيت عمِّه، بل كان مُنتِجاً، ومُساهِماً في النفقات، يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ تُعْطِ الْفَضْلَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَلَا يَلُومُ اللَّهُ عَلَى الْكَفَافِ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"[4].

لا حلَّ يا بُني، فإمّا أن تعمل، أو أن تعيش متطفِلاً على جهود الناس.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (1413) عن الزبير بن العوام، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة

[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (1988) عن المقدام رضي الله عنه، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده

[3] رواه البخاري في صحيحه رقم(2170) عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط

[4] رواه أحمد في مسنده رقم (8578)عن أبي هريرة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه

يقول عليه الصلاة والسلام: "مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ"[1]. هؤلاء كما أنَّهم في الدُنيا يُعرَفون بالسؤال، يُعرَفون به في الآخرة أيضاً من خِلال عدم وجود مُزعَة لحمٍ في وجوهِهم، لذلك فإن إرهاق العَمَل هو عِبادةٌ لله، وراحةُ نفسٍ للعامِل.

ثم صمتَ قليلاً وأردف يقول: كان عليه الصلاة والسلام قبل النبوَّةِ يعمل شريكاً في التِّجارة مع السائب بن أبي السائب، وعند فتح مَكَّة جاءه السائب يُسلِّم عليه،

يقول السائب: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيَّ وَيَذْكُرُونَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِهِ"، قُلْتُ: صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ كُنْتَ، لَا تُدَارِي وَلَا تُمَارِي)[2].

وحتى في البيت، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل، فعندما سُئلت أمُّ المؤمنين عَائِشَة رضي الله عنها: (مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟

قَالَتْ: كَانَ بَشَراً مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ)[3]

.

العَمَل يا بُنَي نعمة، وعلى الإنسان ألَّا يقبلَ على نفسه بأن يكون متطفّلاً على العاملين، وعليهِ أنْ يكونَ مُساهِماً في حركةِ الإنتاجِ في مجتمعِه.

ودِينُنا يا بُنَي ينهى عن التكاسل والتقاعس. كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ"[4].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (1416) عن عبد الله بن عمر، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً

[2] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (10703) عن السائب، كتاب الشركة، باب الاشتراك في الأموال والهدايا

[3] رواه أحمد في مسنده رقم (25640) عن عائشة، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها

لا يكفي أن تزدحمَ الطُرُقاتُ بالذاهبينَ إلى المساجدِ، أو إلى الحَجّ، أو العُمرة، بل أيضاً بالذاهبين إلى المعاملِ، والمصانعِ، والحقولِ، والمدارسِ.
ولا يكفي أن يُقدِّمَ المسلمون رجالَ تشريعٍ وفقهٍ فقط، بل رجالَ صناعةٍ، وطبٍ، وزراعةٍ، وسياسةٍ، وهندسةٍ، ورياضيّاتٍ، وفيزياءٍ، وكيمياءٍ، واقتصادٍ، وأدبٍ، وفنٍّ.
وأن يكونوا مُساهِمين في بناء الحضارةِ البشريَّة، أن يشيدوا لَبِنات المُنجزات البشريّة على الأرضِ لخدمة ورفاهية العالَم، فيُقدِّموا نتاجاتٍ مادَّيةٍ ملموسةٍ للناس على الأرض.
فعندما تستخدم نتاجَ غيرك، عليك أيضاً أن تقدِّم له نتاجاً في عمليَّةٍ تبادليَّةٍ وتكامليَّةٍ بين الاستهلاك والانتاج.
وهوَ يتحدَّث أحسستُ بأنَّه يبنيني، ويُهيّئني للانطلاق بثقةٍ نحو آفاق الحَياة، وصرتُ أتخيَّل تخرُّجي مِن الجامِعة، وعملي في إحدى الجامعات في اختصاصِ عِلم الاجتماع الذي أحببته.

قال: ما يهمُّ ألّا تكونَ عالةً على الآخرين يا محمد، تستهلكُ وتدّعِي بأنَّك تخدمُ الدِّين، فإنْ أردتَ أن تخدمَ الدِّينَ حَقّاً، عليكَ أن تُقدِّم نِتاجاً يوازي استهلاكَك على الأقل حتى لا تكونَ مُتطفّلاً على ما ينتجُه غيرُك، بل تُقدّم للناس ما ينفعهم أيضاً. وبذلك فإنَّك تستمتعُ باستهلاكِ نتاجِ غيرِك، لأنَّك تُدركُ في تلك اللحظةِ أنَّ غيرَك أيضاً يستمتعُ بنتاجِك.
ولا يجوز يا بُني أن يأتي ذلك على حسابِ الدِّين، فكما تُحافِظ على كسب لقمة عيشك بكدّك وجهدك، عليكَ أن تبقى مُحافِظاً على دِينك.
قلت: يا أبي هناكَ مَن لا دِين لهم ولكنَّهم أيضاً ينتجون.

---

[4] رواه البخاري في صحيحه رقم (6034) عن أنس بن مالك، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن

قال وهو ينظر إليَّ: صحيح يا محمد، إنَّهم ينتجون، بل وإنتاجاً رائِعاً أيضاً، ولكن بكل الأحوال أن تُنتج وأنتَ صاحِب دِين، أفضلُ من أن تُنتجَ وأنت بلا دِين.

كنتُ إذ ذاك في نحو الثانية عشرة مِن عمري، وأعيش حالةً مِن تشتّت بين ذهابي مع أمّي إلى الكنيسة، وذهابي مع أبي إلى الجامع، وكنتُ أَحضُر الصلاتَين، فأصلّي مع أمّي في الكنيسة، وأصلّي مع أبي في الجامع، وأحياناً كنتُ أمضي أيام العُطَل الدراسية في بيت جَدّي.
وإضافةً إلى ذلك، تعرَّفتُ على بعض زملائي في المدرسة مِن عقائد مُختلفة، وكانَت تحصل حوارات بيننا حول هذه المسائل.
قال أبي: الدِّين يا بُنَي يُنظِّم لك حياتك، وهذا لا علاقة له بالمهارة أو النبوغ، والنابغة هو نابغة سواء كان مؤمِناً، أو مُلحداً، أو ما شاء.
عندما تكون مع شخصٍ غير مؤمن في سفينة ويكون قَد تعلَّمَ السِباحة، وأنتَ لم تتعلَّمها وفجأةً تغرق السفينة ماذا يحصل؟
قلت: سينجو بالسِباحة التي تَعلَّمها، وأغرق لأنَّني لا أجيدها.
قال: تماماً يا محمد، افصل الأمور عَن بعضِها البعض فتتجنَّب الشَتات.

تعلَّمتُ من أبي أهمّيَّة أن يكون الإنسانُ مُنتِجاً ويُقدِّم شيئاً مُجدياً للناس، لا أن يكون مُستهلِكاً فقط، أن يتعلَّم بينَ حينٍ وآخر شيئاً جديداً لم يكن يعلمه مِن قَبل، تعلَّمتُ مِنه كيفَ أمقت الخمول.
صرتُ أذهب إليه في المكتبة بعض الأوقات كي أساعِده، وكذلك أقوم ببعض الأعمال في ترتيبات البيت، أو شراء بعض المستلزمات، وأجد وقتاً حتى أستمرّ في القراءة، وكل هذا إلى جانب تكملة دراستي.

وما يلفت نظري دوماً هو مدى الاحترام المُتبادَل بين أبي وأمي، ورغم صغر سنّي وقلّة احتكاكي بالحياة، فقد عرفتُ بَيني وبَين نفسي شيئاً أعتبره مُهمّاً، وهو أن الأبناء يحترمون آباءهم على قدر ما تحترمهم الأمهات، ويمكن للأم أن ترفع من نسبة احترام الابن لأبيه، أو تخفضها.
ولأنَّ أبي أصرَّ أن أجيد العربيَّة، وفي البيت يتحدَّث معي بِها منذ الصِغَر، فقد تعلَّمَتها أمّي، فتتحدَّث معي أحياناً بالعربيَّة، وأحياناً بالإنجليزيَّة، فصرتُ أجيد اللغتَين بشكلٍ مُمتاز.
وكان هناك دوماً سؤالٌ يُراودني وهو: لماذا أنا وحيد لا أخ ولا أخت لي؟ وعندما أسأل أبي كان يجيب: كل شيءٍ يأتي في وقته يا بُنَي، هذه مشيئةُ الله.

ولكن ذاتَ يومٍ استطعتُ أن أعرف السبب عندما خرجتُ مِن غُرفتي صباحاً وذهبتُ إلى المغسلة، فسمعتهما يتحدّثان عن هذا الأمر، وعرفتُ بأنَّ علاقة أبي الزوجيَّة انقطعت مع أمّي بعد ولادتي بسبب مرض ألمَّ بِها، وللتو أدركتُ سبب ذهابهما معاً بين فترة وأخرى إلى الطبيب، وكذلك عندما ذهبنا في السنة الماضية إلى فرنسا، وهُناك أخَذَها أبي إلى الطبيب.
فالمَرَض كان مُعدياً بحيث قَطَعَ العلاقة الزوجيَّة بينهما، وبعد ذلك صرتُ أنظر إلى أبي وأشفق عليه، فهو مُتزوّج وغير مُتزوّج.
وكانَت هناك اتِّصالات مِن أهل أبي تَرِده بهذا الشأن، مِن جَدِّي، وجَدَّتي، وأعمامي، وعمَّاتي. وذات يومٍ سمعتُ جَدِّي يقول له في مكالمة هاتفيَّة: تعالوا يا عمران، ربما تجد لامرأتك العِلاج عند الأطباء الشعبيين هُنا.

- : الطب مُتقدّم في هذه البِلاد يا أبي.
- : لن تخسر شيئاً يا بُنَي، جرِّب هذه الطريقة أيضاً.
- : حاضر يا أبي.

- : وهي مُناسِبة حتى نراكم، ونحتضِن- أنا وأمك- حفيدَنا.

ورتَّب أبي لإجازة له مِن المَكتبة لمُدَّة شهر، وفوَّض أحد العاملين ليديرَ المكتبة خلال هذه المُدَّة، على أن تبقى الجلسات مستمرَّة، إلى جانب المُحاضرات الأسبوعيَّة.
وبالنسبة لي كنتُ في غاية السعادة، لأنَّها كانَت فرصة سانِحة لي كي أرى تلك البلاد التي ولد فيها أبي وترعرع على تُربَتِها، أشمَّ تلك التُربة، وأرى لأوَّل مرَّةٍ جَدِّي، وجَدَّتي، ومَن لهم صلة قرابة بي.
وهكذا هو أبي كما اعتدته، فعندما يقتنع بشي، لا يهدأ حتى يُنفِّذه، ولم يدم ذلك طويلاً، فخلال أسبوعٍ حَصَلَ على الموافقات اللّازِمة، وحَجَزَ في الطائِرة، وانطلقنا إلى رحابة تلك البِلاد الجميلة.

عندما وصلنا وصرتُ أمشي في الطرقات، وألتقي الناس، وأنظر إلى الأجواء، انتابني شعورٌ عارِمٌ بالألفة مع المَكان، مع الناس، ولأوَّل مرَّة استطعتُ أن أتخلَّصَ مِن مشاعِر الاغتراب، وكما لو أنَّني ولدتُ هُنا، وليس هُناك، كما لو أنَّني أمضيتُ كل تلك السنوات هُنا وليس هُناك، انتابني شعورٌ بأنَّني كنتُ مسافراً وعدتُ إلى موطني.

لمستُ حياةً اجتماعيَّة جديدة ما كان لي عهد بها مِن قبل، وكل يوم كان يدعونا أحد الأقرباء لتناول الطعام عنده، وكانوا يصنعون أصنافاً مختلفة مِن الطعام والشراب لم يسبق لي أن ذقتها.
وكان أعمامي وعمَّاتي مع عوائِلهم يجتمعون في البيت الذي يكون دوره في العزيمة التي نُدعى لها.

وكُنّا نتنقَّل أيضاً بين المُعالجين الشعبيين، ثم عدنا بعد أن أمضينا شهراً حافِلاً، وغدت أمّي تستخدم العلاجات العشبية الموصوفة لها، ومع الوقت تبيَّن بأن ذلك أيضاً كان دون نتيجة.
ويظهر أنَّ أبي صار يميل إلى فكرة الزواج بشكلٍ جادٍّ، ولم يعد يطيق الصبر على حياةِ العزوبيَّة الخفيَّة التي يعيشها، حتى إنّني كنتُ ذاتَ يومٍ في المكتبة وسمعته يتحدَّث مع صديقه المُقرَّب له صفوان، وهو صديقٌ قديمٌ لأبي ويُدرِّسُ مادَّة الأدب العربي في إحدى الجامِعات هُنا، وأحياناً يزورنا مع عائلته في البيت، وأيضاً نزوره في البيت بينَ وقتٍ وآخر وفي بعض المُناسبات.
كنتُ واقِفاً أمام أحد رفوف الكُتب أتصفَّح كِتاباً، فتناهى إلى مسمعي صوت أبي وهو يقول له: رغم أنَّني صرتُ في هذا العُمر، ولله الحمد أنَّه وقاني مِن الانحراف لأي علاقةٍ غير شرعيَّةٍ في مراحل حياتي، وهذا فضلٌ عظيمٌ منه عليَّ. ولكن الآن صرتُ أخاف على نفسي، وأنا رجلٌ لدي احتياجات، ولا أخفيكَ يا صفوان بأنَّني لم أعد قادِراً على مُقاوَمَتها، هذا كله إلى جانب أنَّني أتمزَّق كلما أنظر إلى محمد وأراه وحيداً لا أخ له ولا أخت.
ويبدو أن علاج أختك أم محمد صار عسيراً، لكن بذات الوقت، سأسبَّب لها جرحاً إذا تزوَّجتُ، وأنت تعرف مدى حبّي لهذه المرأة ومدى معزّتها في قلبي.

يومها عرفتُ كم أنَّ أبي يعيش حالة صراعٍ حادَّة، ويُحاول أن يُخفيها عنَّا، وكان أحياناً يُلمِّح لي بأهميَّة أن يكون لي أخوة وأخوات، حتى إنَّني صرتُ أتخيَّلهم، وأتخيَّل بعض أصدقائي الذين لهم أخوة وأخواتٍ وأستطيب ذلك، وبذات الوقت كنتُ أدرك بأن مثل هذا الأمر قد يُسبّب الألم لأمّي، وربما سيقع شرخٌ في علاقتِها بأبي، وهذا ما كنتُ أخافه كل الخوف، فلا أتخيَّل نفسي مستغنياً سواء عن أمّي، أو عن أبي.

بعدَ ذلك بدأتُ ألاحظ بأنَّ أبي صارَ يتأخَّر عَن البَيت على غَيرِ عادَته، بل وأحياناً ينام خارجَ البَيت، ويقول لأمّي بأنَّه مُنشغل.
كان البيت يبدو بارِداً وباهِتاً وأبي لا يبيت فيه، وقد اعتدتُ أن أنام وأستفيق على حضوره في البيت، هذا الحضور الأبوي الذي يُحقّق لي الأمان والطمأنينة.
ولا أدري لماذا خَطَرَ لي بأنَّ أبي قَد نفَّذَ فكرة الزواج التي كانَت تُراوِده، بعد كل تلك السنوات مِن الانتظار، ويمضي عند زوجته الثانية الليالي التي يغيب فيها عَنَّا.

وصرت أحسُّ بأن هناك قنبلةً موقوتةً في بيتنا، ويمكن لها أن تنفجر في أيَّة لحظة، وكان القلق يفتك بي وأنا أنظر إلى أبي، أو إلى أمّي، أو ونحن نتناوَل الطَعام، أو حتى وأنا مستلقٍ على سرير النَوم في غُرفَتي.
وبَعد نحو ستة أشهر مِن هذا القَلق المُدمّر، كانَت ستقع كارِثة في بيتِنا لولا حِكمة أمّي، ويومها فقط أدركتُ نعمة المرأة الحكيمة، وكيف أنَّها تستطيع أن تُحافِظ على عائلتها حتى في أحلك الظروف، بينما المرأة الهشَّة يمكن لها في ردِّ فعلٍ مُتَسَرّعٍ أن تُدمِّر عائلتها، وتُلحق أفدح الأضرار بزوجِها حتى لو كان قوياً ومُتمكِّناً.
أدركتُ كم أنَّ التربية الأصيلة مُجدية وقد تربَّت أمّي تربية أصيلة على يَد جَدّي، وعرفتُ قيمة القراءة أكثر مِن أي وقتٍ مضى، وهي التي تُهذِّب الإنسان وتجعله يتصرَّف بحكمةٍ في شتَّى المواقف الحياتيَّة التي يتعرَّض لَها. وكان ذلك
عندما تلقَّت أمّي اتّصالاً من إحدى النساء المجهولات، وأخبَرَتها بأن أبي مُتزوّجٌ مِن امرأةٍ أُخرى تُدعى (أماندا) وأعطتها عنوان بيته الثاني الذي استأجره لها، وأنَّه يمضي الليل هُناك عندما لا يكون في البيت.

سمعتُ هذا الكلام لأنَّني كنتُ جالِساً في ذات الغُرفة التي كانَت أمّي جالِسة فيها، وعندما أغلقَتِ الخط، بدا لي أنّها للتو انتبهَتْ لوجودي، وقد احتقنَ وجهُها بشكلٍ غريبٍ وغدت أنفاسُها تتسارَع، وهي ترتعد وتُحاول أن تتمالك نفسها، وبغتةً رأيتها تحدجني بنظرات غريبةٍ مِن قمَّة رأسي إلى أخمص قدَمَي، ولا أدري لماذا جَفَلتُ لحظتها وهيمَنَ الفَزعُ على أوصالي أمام تلك النظرات المُريبة التي رأيتها منها لأوَّل مَرَّةٍ في حياتي.
ولم يدم ذلك طويلاً حتى حادت بنظراتِها تلك عنّي واستدارَت مولية ظهرها إلي، وصارت تنشج بأنينٍ خافتٍ وأنا أنظر إليها مِن الخَلف.

بعد قليلٍ اندَفعَ صوتُها المُنكَسر وهي ما تزال مستديرة: علينا ألّا نُصدِّق كل ما يُقال لنا يا محمَّد، أليس كذلك؟
قلت والدموع تنهمر مِن عينَي وأنا أرتَعد: أجل يا أمّي.
أردفَتْ بنبراتِها البُكائيَّة المُنكَسِرة وهي تبلع ريقها الجاف: الكلام الذي سمعته الآن من الهاتف، لا تُصدّقه يا ولدي، كأنَّكَ لم تسمعه.
قلتُ بحنجرتي المُثقَلة بالبُكاء: نعم يا أُمّي.
وفجأةً رأيتها تمضي نحو غرفة نومهما وهي مُستَنفِرة كَمَن فَقدَ صوابه، ولم يعد مُسَيطراً على زمام نفسه، وهذا ما زادني جَزَعاً، ولم أكن مُطمئِناً لتركها في ذاك الوضع، وبعد قليلٍ تتبَّعتها بخطواتٍ وئيدةٍ، ورأيتها تتقدَّم إلى خزانة ثيابهما، وتنقضّ على بعض ثيابه وتُمزّقها كما لو أنَّها تُفرّغ شُحنات غضبها في التمزيق الذي يتوالى صوتُه على سمعي.
وعندما انتهت من ذلك واستدارَت، تَفاجأتْ بي عندَ مَدخل الباب، كان وجهها مُختَنِقاً يتفصَّد مِنه العَرَق، وهي مُستَنفِرة وتتنفَّس بِسرعة كما لو أنَّ دمها يغلي في عروقِها.

وفي تلك اللحظات، رأيتها تنظر إليَّ بعينَيها الحمراوَين نظرات غريبة أفزَعَتني وقد تسمَّرَت قدماي في المَكان.
وبغتةً رأيتها تهزُّ رأسها يمنةً ويسرةً، وتتقدَّم إليَّ وتحتضنني وهي تنتحب، كانَت رائحة العَرَق تفوحُ مِنها بقوَّةٍ مِمَّا أفرَزه بَدَنُها مِن عَرَقٍ نتيجة الاستنفار الذي احتلَّها.
ولم يدم ذلك حتى رأيتها ترتَمي من طولِها على الأرض وتنتفض كما لو أن صاعِقةً هَبَطَت عليها في غفلةٍ.
كان أقسى مشهد رأيته في حياتي وأنا أرى أُمّي مرميَّة على الأرض، وعلى الفَور وتحت سَطوة الهَلَع التي انتابَتني، اتَّصلتُ بأبي بأصابعي المرتجِفة، وصوتي المذعور، وأخبرته عمّا حصلَ لأمّي.

انفجرَ منه صوتٌ صاخِبٌ أجش: ماذا تقول يا محمد.. كيف؟
قلت وأنا أغالب غصَّات البكاء في حنجرَتي: فجأةً يا أبي، كانت واقفة، ووقعت.
ولم أعد أعرف ما الذي سأفعل بين أن أنظر لأمّي، وأنتظر مجيء أبي، وخطواتي تتهرول بي بين الباب الخارجي، والعَودة إليها، وقلبي يهبط حتى أحسستُ بأنَّه يكاد يخرج من صَدري.
انتبَهتُ فجأةً إلى الثياب المرميَّة التي مزَّقتها أمّي، فحملتها وأعدتها إلى الخزانة.
كان الوقتُ يمضي بطيئاً وأنا أنتظر مجيء أبي وألقي نظراتٍ إلى أمّي، وعندما فَتَحَ أبي البابَ، أحسستُ بأنَّه تأخَّرَ دَهراً، دَخَلَ على عَجَل وقد احتقنَ وجهُه، فرأى أمّي مرمية على الأرض وقد أغمي عليها.
زجرني بنظرةٍ وقال: أما استطعتَ أن تضع مخدَّة تحت رأسها يا ولد؟ كيف تتركها هكذا على الأرض؟ ألا تعرف مَن هذه؟ هذه حياتك كلّها، وحياتي كلّها، هذه أنا، وهذه أنت.

وانفَجَرت الدموع مِن عَينَيه وهو يحملها بأقصى سرعةٍ على كتفه، ويتَّجه بِها إلى سيارته الواقِفة بِمُحاذاة الرَّصيف، ولحقتُ بِه وأنا أبكي جَزَعاً على أمّي التي رأيتها لأوَّل مرة في ذاك الوضع، أمّي التي كانت تملأ البيت بحركاتِها وأحاديثها، هكذا في غمضةِ عينٍ خرجت عَن وعيها، ولم تعد قادرة على إبداء حركةٍ واحدةٍ.
وسارعتُ في الرَّكض حتى سبقته وفتحتُ له الباب الخلفي للسيارة، عند ذاك أدخَلَها بتؤدَةٍ إلى السيَّارة وأجلَسها، ثم أمسك بكتفي ودَفَع بي إلى ذات المقعد حتى استويتُ جالِساً بجانِبها، وعندما تحقَّق بأنَّني صرتُ أسندها جيّداً ترك يده عَنها، ثم هرع إلى المقود وانطلقَ كسهمٍ طائشٍ إلى المشفى دون أن ينطق بكلمةٍ واحِدةٍ، وهو يلهث والدموع تسيل مِن عَينَيه، وبينَ لحظةٍ وأخرى يلتفت إليها، وقد احتقنَ وجهُه بشكلٍ لم يسبق لي أن رأيته فيه مِن قبل.
لدى وصولنا إلى مدخل المشفى، هرولَ إلينا بعض العاملين، وأنزلوا أمّي ووضعوها على عربة الإسعاف وعلى الفَور دفعوا بِها إلى الداخل.

أجرى الطبيب بعض الفحوصات السريعة لها، قال لِمُعاونيه: أدخلوها فوراً إلى العناية المُشدَّدة.
هتف أبي بحنجرته المُثقلة بالبُكاء، والدموع تنهمر مِن عينَيه: خير يا دكتور؟
قال: وضعها حَرِج وغير مستقر.
عند ذاك رأيته يُقبّل يدها ويرفعها إلى جبهته، وفي عُجالةٍ سارَعَت مُمَرِّضَتان إلى دفع العَرَبة في ردهة المشفى، وخرجَ أبي ينظر إليها حتى توارت عن أنظاره.
لبثنا ننتظر حتى المساء، فجاء أحد الأطباء إلى أبي وقال له: يمكنكَ أن تذهب إلى البَيت يا أستاذ، وترجع غداً، لأنَّ زوجتكَ ستبقى الليلة في العناية المُشدّدَة.

فقال أبي بأنَّه لا يستطيع أن يتركها بأيِّ حالٍ مِن الأحوال، وأنَّه يُريد أن يحجز غُرفة.
هزَّ الطبيب رأسه وأشار للمُمَرِّضة أن تصطحب أبي إلى الإدارة مِن أجل حجز الغُرفة. فذهبنا برفقتها إلى الإدارة، وحجز أبي الغرفة وأتت بنا امرأةٌ مِن الإدارة إلى إحدى الغُرَف، فَتَحَتها ودَعَتنا للدخول.
استلقيتُ على سريرٍ، وجلس أبي على سريرٍ مُتكِئاً على زاويةٍ مِنه، وبعد قليلٍ غَلَبني النُّعاس وغَفَوت وكانت قد تجاوزَت الواحِدة ليلاً.
و بين حينٍ وآخر كنتُ أستفيق فأراه ما يزال مُتكِئاً على السرير يستمع من جوَّالِه إلى القرآن بصَوت عبد الباسط عبد الصمد، والدموع تسيل مِن عَينَيه، ثم استفقت مرة أُخرى عندما ربَتَ على كتفي بحنوٍ وقال: انهض يا محمد حان وقت صلاة الفَجر.
فنهضتُ وتوضَّأت وصليتُ ركعتَي السنَّة، ثم صلينا الفجرَ معاً.
وعدتُ إلى النَّوم بينما بقي جالِساً في مكانِه على الأرض وهو يَرفَع يدَيه ويدعو لأمّي بالشِفاء.
في الصباح، أخرجوا أمّي من غرفة العِناية المُشدَّدة، وجَلبوها إلى ذات الغرفة التي أمضينا الليلة فيها، ونَصَحنا الطبيب ألّا نتحدَّث معها بكلمةٍ واحدةٍ حتى تبقى مُرتاحة ولا تبذل جهداً على الأقل حتى المساء.
بَقينا جالِسَين في الغرفة وأمّي مُمدَّدة على السرير، وحقنة التغذية في وريدِها، وبين ساعةٍ وأُخرى تفتح عينَيها قليلاً ثم تغلقهما ثانيةً.
مكثنا لليوم الثاني في المشفى دون أن ينام أبي، ودون أن يتناول لقمة طعامٍ واحِدة.

لبث أبي مستنفراً وجهم الوجه، ولم يتحدَّث بكلمةٍ واحِدةٍ في الهاتف لأنَّه عند وصولِنا إلى المشفى أغلق هاتفه.

كان يبدو وكأن كآبة العالم كله قد استوطَنته، ولا يفعل شيئاً سوى أن يضع وجهه في راحتَي كفَّيه، أو يبقى ينظر إليها بِعمق وهي مغمضة العينَين، وأحياناً يجلس بجانب رأسها على السرير، يضع ظاهر كفَّه على جبهتِها للحظات، وعندما تستفيق، ينظر إليها والدموع تنهمر من عينَيه، ويشدّ بكفّه على كفِّها كما لو أنَّه يقول لها: لن أتركَكِ لحظةً واحدة.

في ظهيرة اليوم الثالث، طَلَب أبي أن يُعيدها إلى البيت، ولكن الطبيب قال: يُستَحسَن أن تبقى يومَين آخرَين تحت المُراقَبة يا سيِّد عمران.
قال أبي: بيتُنا مُريح ولا ضجيج فيه.
قال: إذا كنتَ مُصرَّاً سأكتب أمرَ إخراجِها، وتوقّع عليه على مسؤوليَّتك.
قال أبي: موافق.
قال: هي الآن تحتاج إلى غرفة صحّية هادِئة، تكون لها شُرفة مُطلَّة على الخارج، كهذه الغُرفة، وتُفتَح ربعَ ساعة كل ساعتين، حتى يدخل إليها هواءٌ نقيّ، ويَجب ألّا تسمع أصواتاً مُرتفعة، وألّا ترفع هي صوتَها، ولا تَنفَعل، وأن تُبدَّل ثيابُها الداخلية كلَّ ست ساعات، وأن تتبع نظاماً غذائياً سوف أكتبه لك في قائِمة.
ثم أضاف وهو ينظر إلى أبي: إذا أخللتَ بهذه التعليمات الصحّيَّة سوف تُسجَن وفقاً للقانون يا سيِّد عمران، ومِن واجبي أن أُخبِرَكَ بذلك، ثم فكّر وقرّر لأنَّ القانون يمنحكَ الحق أن تُخرِجها على مسؤوليَّتك، بعد أن توقّع على تحمّل المسؤوليَّة، ولا أستطيع أن أمنعك.
قال أبي: شكراً لك دكتور، بيتي تتوفَّر فيه كل هذه الشروط، وسأوفِر لها راحةً نفسيّةً أكثر مِن هُنا.

حينها هزَّ الطبيب رأسه، وأعطى لأبي بطاقةً فيها رقمُ هاتفه وقال: في أي وقتٍ يمكنك الاتِّصال بي إذا حدث أي طارئ.

وأعدْنا أمّي إلى البيت، وفي طريق العودة، انتابني شعورٌ كما لو أنَّنا أعدناها مِن دولة أخرى، بل مِن قارَّةٍ أخرى، وأنَّ البيت اشتاق إلينا كما أنَّني اشتقتُ لكلِّ ركنٍ فيه.
عندما أوقفَ أبي السيارةَ، ونزلنا، ألقيتُ نظرةً مِن الخارِج إلى البَيت الذي تخيَّلته باهِتاً وحَزيناً دوننا ودون حركاتنا فيه.
أمسكَ أبي بيدِها ومضى بِها إلى البيت بِهدوءٍ، وسارعتُ قبلهما وفتحتُ الباب.
عندما دخلنا جميعاً واستقرَّت أمّي على سريرِهما في غُرفة النَوم، شعرتُ بأن البيت عادَ له رَونَقُه، وأنَّنا كُنَّا في سَفَرٍ طَويلٍ وعُدنا.

تَفَرَّغَ أبي للعِناية بأمّي، فصرتُ أراه كيف يعدّ لها الخُضار، والفاكهة، والطعام بوجباتٍ مسلوقة مثل: صَدر الدجاج، والبَيض، والبَطاطا، والكوسا. وفي الظهيرة يُقدّم لها كأساً من عصير التفّاح الطبيعي، وفي المساء كأساً من عصير الجزر.
أمضى أبي أسبوعاً دون أن يخرج مِن البَيت، ودون أن يفتح هاتفه، وعندما رآها تتعافى، وباتت تجلس معنا وتتمدَّد على الأريكة في غرفة الجلوس، استأذنها كي يذهب إلى المكتبة، عند ذاك رأيتها تصوّب إليه نظرة غريبة، وهي تهزّ رأسها بالموافقة.
فقبَّلها على جبهتها كعادته، وعندما فتح الباب ليخرج، اندفع صوتُها بغصَّةٍ وهي تنظر إليه مِن الخَلف: لا تتأخَّر علينا يا نور عيني.
التفتَ ينظر إليها وقال: حاضر. ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

كم راودتني رغبة عند ذاك لأرى تلك المرأة، وأعرف إن كانَت تُحب أبي بقدر ما تُحبّه أمّي، وهل تتعامَل معه كما تتعامَل معه

أمّي، وهل هو أيضاً يُحبّها مثلما يُحب أمّي، وهل يستطيع الرجل أن يُحبّ امرأتَين بذات السويَّة، ويتعلَّق بهما بذات السويَّة؟
في غمرة تلك اللحظات القَلِقة، ولأوّل مرَّةٍ انتابني شعورٌ غريبٌ بأن جزءاً مِن أبي لم يَعد لنا.
أبي الذي كنتُ أرى بأنَّه كلّه لنا، بكل وقته وعمره وما يملك هو لي ولأمّي فقط؛ الآن حدث شرخٌ في ذاك الشعور، فهناكَ امرأة أخرى اختطفَت جزءاً مِن أبي، وصار مِن حقِها أن تأخذ مِنه مثلما نأخذ، وأن يكون لها كما يكون لنا.

لكن أبي لم يتأخَّر، وعاد إلى البيت مُبكِّراً وكنتُ أرى مدى قلقه على أمّي، كان ينظر إليها، وأحياناً يُطيل النظر عندما تكون مُغمَضة العينَين، وكأنَّه يُريد أن يستَفهم شيئاً ما.
وكانت أمّي أيضاً توجّه نظراتها إليه عندما يكون جالِساً يقرأ في كتاب، وأراها تستغرق في النظر، وعندما يرفع رأسه عن الكِتاب، تحيد بنظراتها عنه حتى لا يرى بأنَّها كانَت تنظر إليه.

كنتُ في تلك الفترة أمرُّ بحالةٍ مِن الاضطراب رغم أنَّني كنتُ قد بلغتُ الثامنة عشر مِن عُمري بسبب بعض الأسئلة التي كان بعض أصدقائي في هذه البِلاد يوجِّهونها لي عن الإسلام، وبشكل مُركَّز عن شخصية نبي الإسلام، ولم تكن لدي إجابات كافية.
ورأيتها فرصة سانِحة كي أخبر أبي بهذا الاضطراب الذي أكتوي به لعلَّه يُخفّف عنّي، وهو كثير القراءة، وكثير الإيمان.
ودوماً يُعيد كل شيءٍ إلى الله، ويقول: الإيمان هو الذي يقي الإنسان من الانفلات، ويجعله في حالة انضباط، تكون الحياة جميلة بالإيمان أكثر ممّا تكون جميلة بدون الإيمان.
ويقول: نستطيع أن نعيش حياتنا بشكلٍ أفضل بالإيمان، أكثر ممّا نستطيع بدون الإيمان يا وَلَدي.

أردتُ أن أسأله سؤالاً باتَ يؤرّقني، وهو السؤال الذي كان يطرحه عليَّ زملائي في المدرسة، على الأغلب بسبب اسمي.
ولم يكن السؤال من بعض أبناء هذه البلاد فقط، بل مِن بعض بَني جلدتنا أيضاً الذين هاجروا واستقرّوا مثلنا في هذه البِلاد، وتأثّروا بمثل هذه الأفكار.
ولكن بالنِسبةِ لي، لم أستطع أن أتَّخِذ الموقف الحاسم مِن هذه المسألة، فكنتُ مُتأثّراً بأبي الذي من كثرة حبّه للرسول عليه الصلاة والسلام، أطلق عليَّ اسمه الشريف، وبذات الوقت كان هؤلاء يأتون لي بحجج ويستفيضون في الحديث الذي كان ينتهي بهم إلى إنكار أن يكون الإنسان رسولاً لله.
وهُنا أيضاً كانوا ينقسمون إلى فئتَين، فئة تؤمن بوجود قوَّة عظيمة تُسيّر الإنسانَ والكَون، وفئة تميل إلى عدم الإيمان.
أمّا بالنسبة للذين كانوا يؤيّدونني في الإيمان، فكانَت معلوماتهم متواضِعة، تماماً مثل معلوماتي، فكنتُ أمرُّ بأزمةٍ نفسيَّةٍ حادَّة نتيجة تداعيات هذا التأرجح بين ما أسمع في البيت مِن أبي، وبين ما أسمع في المدرسة مِن زملائي.

ذاتَ مساءٍ بينما كان أبي جالِساً في البيت، وكنتُ جالِساً بجانِبه، وكانَت أمّي مستلقية على الأريكة، تشجَّعتُ وقلت: يا أبي كيف يمكن للإنسان الذي يعيش على الأرض، أن يكون رسولاً لله الذي في السماء؟
التفتَ إليَّ التفاتةً عفويَّة وزجرني بنظراتٍ وهو يمطّ حاجِبَيه، سارعتُ في القَول: أعتذر يا أبي عَن السؤال.
هزَّ رأسه وقال: لا يا بُنَي، لا تعتذر، لم تُخطئ حتى تعتذر.

ثم قال: صحيح، الرسول صلى الله عليه وسلم هو إنسان، لكن لديه مزايا غير موجودة عند الآخرين، وهذه المزايا يُكرِمه الله بِها حتى يستطيع من خلالِها أن يؤدّي رسالته على أكمل وجه.
وهم ليسوا في سويَّةٍ واحدةٍ، فكل رسولٍ أكرَمَه اللهُ بمزاياه الخاصَّة وبدرجته الخاصَّة بحسب القوم الذين كان فيهم، وبحسب الزمن الذي عاش فيه،
لقد خلق الله الإنسانَ، وأرشده مِن خلال الرسل إلى ما ينفعه، وبيَّن له ما يؤذيه.

الإنسان يا وَلَدي يستطيع أن يستوعب الإرشاد من الإنسان أكثر، لأنَّه قريبٌ منه ويعيش معه، وهو أحد أفراد المُجتَمع الإنساني.
ولو جعل اللهُ الأنبياءَ والرسل مِن الملائِكة، أو مِن خَلقٍ آخر يخلقهم خصيصاً لهذا الأمر، ربما ما تآلف الإنسانُ معهم كما تآلَفَ مع الإنسان الذي هو مثله. والأمر الآخر أن ذاك الخَلق كان سيشعر بأنَّه يُخاطِب خَلقاً لا ينتمي إليهم ولا ينتمون إليه.
قلت: صحيح يا أبي، لله حكمة في ذلك.
قال: واختَتَمَ محمَّد عليه صلاة الله وسلامه الرسل والأنبياء، وقال في ذلك: "إنَّ مَثَلي ومثلَ الأنبياء منْ قَبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بَيْتًا، فأحْسَنَهُ وأجْمَلَهُ، إلا مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بِهِ، ويَعْجَبونَ له، ويقُولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة"، قال: "فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النَّبيّينَ"[1].
والرسول عليه الصلاة والسلام يهدي الناس إلى الاستقامة في شؤون حياتِهم، لأنَّ رسالته هي رسالة تآلف، ومحبَّة، وتسامح، وتهذيب.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (3374) عن أبي هريرة، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

هززتُ رأسي وأنا أصغي إليه، فقال: رسول الله يا بُني هو سبيلنا إلى معرفة كتاب الله، وكتابُ الله هو سبيلنا إلى معرفة الله، وهو الذي حَمَل الرسالة إلينا، ولذلك نحتاج أن يكون أسوةً حسنةً لنا.

ثم أردفَ يقول: شخصية الرسول الأكرم موجودة بيننا يا بُنَي، وهو معنا في كل الأوقات، يُرشدنا، ويُعلّمنا الأخوَّة الإنسانيَّة، والتَّسامح، وانفتاح الإنسان على الإنسان، وأن البشريَّة بكل أطيافِها وألوانِها ولغاتها تنتمي إلى عائلة كبيرة واحِدة، تنتمي لأبٍ واحد، وأمٍّ واحدة، ولها ربٌّ واحد.
يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: "يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ، وإنَّ أباكمْ واحِدٌ، ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقْوَى، إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ"[1].

كل آية قرآنية تُذكّرنا بالرسول الممتلئ إنسانيَّةً ومحبَّةً، لأنَّه حَمَلها في قلبه لنا، وبذل كل ما بجهده حتى أوصَلها إلينا.

مثل هذا الكَلام كان يبثُّ بعض التوازن لديَّ، بين ثقافة أبي الإسلاميَّة، وثقافة أمي البرستانتيَّة، وخالاتي، وأخوالي، وجَدَّتي، وجَدِّي لأُمّي، وكذلكَ بعض زملائي في المدرسة في اتِّجاهاتِهم المُختَلِفة.

[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (5137) عن جابر بن عبد الله

إشراقةُ المَولد

صمتَ أبي قليلاً ثم أردف، ورأيتُ أمّي أيضاً تفتَح عَينَيها وتُشاركني الاستماع إليه، فقال: ولِدَ رسولُنا الكريم في واقعٍ بالغ الصعوبة يا بُنَي، وهذه الصعوبة جَعَلَت مِنه شخصاً يتمتَّع بقوَّة الشخصيَّة، وعزّزَت فيه قوَّة المَشاعِر الإنسانيَّة ورهافة الأحاسيس، لأنَّه عاش المُعاناة الإنسانيَّة، وذاقَ الحرمان.
قلت: كيف كانَت يا أبي ولادة رسولنا عليه الصَّلاة والسَّلام؟
قال: عندما بلغ عبد الله الخامِسة والعشرين مِن عمره أخذه أبوه عبد المُطَّلب
إلى بيت وهب بن عبد مناف، وطلب ابنته آمِنة لابنه عبد الله، فوافق. وبعد ذلك تم الزواج، وأمضى عبد الله الأيام الثلاثة الأولى من الزواج في بيت وهب كما كانت العادات تقضي بذلك، ثم عاد إلى بيته. وكان عبد الله يعمل في التجارة، ومع الشهور حملت السيّدة آمِنة بنت وهب برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجَ أبوه عبد الله إلى تجارته، ولكنَّه ماتَ في وهو في الطريق.

لبثت آمنة في حملها حتى ولدت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، عام الفيل، وولَّدَته (الشِّفاء) أم عبد الرحمن بن عوف، في بيت والده عبد الله، الذي يقع في شعب بني هاشم.

يقول عثمان بن أبي العاص: (حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ولدته، قالت: فما شيء أنظر إليه في البيت إلّا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى أني

لأقول ليقعن علي، فلما وضعت خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نوراً)[1].
وعندما وضعته أمُّه آمنة، أرسلت إلى جَدّه عبد المطَّلب: (قد وُلد لك غلام، فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه).

قلت: مَن الذي سمَّى رسولنا الكريم بهذا الاسم يا أبي؟
قال: سمَّاه جَدُّه عبد المطلب، وكان ذلك في اليوم السابع من ولادته، عندما أقام وليمة لقُريش، وأعلن فيها بأنَّه سمّى حفيده محمداً، وبعد ذلك، أرضعَته السيّدة حليمة السعديَّة.
حينها خطر في بالي سؤال، ولم أتمالك نفسي، فقلت: لماذا لم تُرضعه أمُّه يا أبي؟
قال: أرضَعَته بضعة أيام بانتظار العثور على امرأةٍ مناسبةٍ كي تأخذه للرضاعة، لأن العادات في ذلك الوقت كانت تقضي بأن الشريفات من قريش لا يرضعن أولادهن، وكانوا يُفضِّلون أن يتربَّى الأولاد في سنوات الرِّضاعة في البادية لأسبابٍ عديدةٍ مثل: نقاء حليب المرأة في البادية، وتعلّم اللغة الفصيحة، والنمو في هدوء الرِّيف وأنسامه النقيَّة.
وكانت النسوة مِن الرِّيف يخرجن بين فترةٍ وأخرى إلى مَكَّة للبحث عن المواليد الجدد من أجل الرِّضاعة، وكان ذلك يُحقِّق لهن مصدراً للدَخل، وبعض المنافع مِن أهالي الأطفال.
وآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، كانت من شَريفات مَكَّة، وعُرِفَت بـ (زهرة قريش) وأبوها وهب بن عبد مناف، كان سيّد بني زهرة شرفاً وحسباً.
وكانَت طبيعة المنطقة تقتضي زواج الفتاة بشكلٍ مُبكّر، وكان عمر آمنة أمّ النبي صلى الله عليه وسلم عند زواجها من أبيه عبد الله، أربع عشرة سنة، وكان شاباً في الخامسة والعشرين.

[1] الخصائص الكُبرى

تقول أمُّه بالرّضاعة حليمة بنت أبي ذؤيب السعديَّة بأنَّها خرجت ذات سنة مع مجموعة من النساء إلى مكة بحثاً عَن الرضَّع.
وعندما كان يُعرَض عليهن محمد صلى الله عليه وسلم، كُنَّ يرفضن عندما يعلمن بأنَّه يتيم: (وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدُّه، فكنا نكرهه لذلك).
وتقول: (فما بقيتْ امرأةٌ قدمتْ معي إلاّ أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنَّه.
قال: لا عليكِ أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنِّي لم أجد غيره).

وعند عودتها به إلى بادية بني سعد التي تبعد عن مَكَّة نحو 115 كم، بدأت ترى البركة وهي ترضعه وتربّيه سنةً بعد سنة.
تقول: (فلم نزل نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضتْ سنتاه وَفَصَلْتُهُ، وكان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتَيه حتى كان غلاماً جفراً).
وعندها أتت به إلى أمّه وهي حزينة لأنّها ستُفارِقه، ولكنَّها طلبت من أمّه أن يبقى فترة أطول عندها، تقول: (فكلّمنا أمّه وقلتُ لها: لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يغلُظَ، فإني أخشى عليه وباءَ مَكَّة. فلم نزل بها حتى ردّتْه معنا).
وقالت أمّه للمرضعة: (إن لبنيَّ لشأناً، رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام).
صمتَ أبي قليلاً، ثم رفع يده إلى فمه وتثاءب، وبعد قليلٍ جاء صوتُه: سوف أكمل لك فيما بعد يا بُنَي.

ونهض مُتَّجِها صوب أمّي، فنهضَتْ واتَّجها إلى غرفتهما وهما يقولان لي: تصبح على خير.
فقلتُ: تُصبحان على خير. ونهضتُ مُتَّجِهاً إلى غُرفَتي وكلّي شوقٌ لو أن أبي أكمل حديثه، ولكن يبدو أن النُّعاس نال منه.

التَّرعرع في شِعاب مَكَّة

بدت أمّي كشخصٍ تَلقَّى طعنةً على حينِ غفلةٍ، وما يزال يعاني تداعيّات الطعنة التي تؤلِمه، وما تزال بين فينةٍ وأخرى تنزف، وكان هذا أشدّ ما يؤلمني ويُعكّر عليَّ صفاء ذهني.
أجل لقد تغيَّرَتْ حياتي أيضاً كما تغيَّرَت حياة أمّي، وكنتُ أحياناً وأنا أنظر إليها، أنفجرُ بُكاءً، وأهرعُ خارجاً حتى لا ترى دموعي.
كنتُ أنزوي في ركنٍ ما بعيداً عنها، وأبكي بحرقةٍ وألَم، حتى أحسُّ بأنَّني أفرغتُ كل ما في قلبي مِن بُكاء، وكل ما في عينَي مِن دموع، ثم أغسل وجهي وأعود إليها.

لقد فقدت أمّي حيويَّتها في الإقبال على الحياة، وصارَت تعتذر عن استقبال مَن يُريد زيارتها من المعارف والأقرِباء، باستثناء خالتي ماري التي تزورها بينَ حينٍ وآخر، وتطيل البقاء معها، وأحياناً تبيت ليلةً في بيتنا وتعود بعد ظهر اليوم التالي.
وفي تلك الليلة تسهران حتى الصباح في تبادل أحاديث لا أعرفها، ولكن متى ما استفقتُ مِن النَّوم في غرفتي، تناهى إلى سمعي كلامهما الخَفيض الذي لا أفهم منه شيئاً.
وأحياناً أشعر بأن خالتي دخلت المطبخ وأعدَّت لهما الطعام، وأنظر إلى الساعة التي تكون قد تجاوزَت الثالثة ليلاً.
في أمسيةِ اليوم التالي جلستُ بجانب أبي بعد تناول العشاء واستلقَت أمّي على الأريكة، وتهيَّأتُ لاستكمال ما يقوله أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكنتُ أعدُّ الساعات حتى يحين هذا الوقت، ولا يحدث طارئ يحول دون جلوسنا معاً، فقال:
كان النبي عليه الصلاة والسلام في الرابِعة مِن عمره، عندما جاءَت به حليمة السعديَّة إلى أمِّه كي ينعم بحنانِها، وعندها أدرك بأنَّه يتيم وأن أباه توفي قبل أن يولد.

كانت أمّه تَعني له كلَّ شيءٍ في هذ العالَم، وكانَ يَعني لها كل شيء، فهو فلذَة كبدها الوحيد الذي يسري دمُها في عروقِه، والذي سوف يحمل اسمها.
ولكن لم يطل به المَقامُ في كنف أمّه ليُصبح يتيم الأبوَين، فماتت هذه الأم عندما أخذته معها في زيارةٍ لبعض أخواله من بني عدي بن النجار، في يثرب. وكانت معه حاضِنَته أم أيمن، وهي بركة بنت ثعلبة بن حصن، فأعادته إلى مَكَّة.
وجد نفسه وحيداً وهو ما يزال في السادسة وبضعة أشهر من عمره، حيث لا أب، ولا أم، ولا أخ، ولا أخت.
عند ذاك أخذ عبد المُطَّلبِ حفيدَه كي يعيش معه ويوليه عنايَته، فانتقل محمد عليه الصلاة والسلام للعيش في بيت جَدِّه الذي كان يُحبّه أكثر مِن أولاده، وهو ابن الابن الذي له منزلة خاصَّة في قلبه.
وبدأ يلمس في جَدِّه حنان الأب ومحبَّته وعنايته، وهو يرى مدى حرصه عليه، حتى إنَّه إذا حضر الطَعام، لا يأكل قبل أن يناديه ليكون حاضِراً على المائِدة، ويُقدِّم له اللُّقمة اللذيذة.
وبذلك لم يشعر محمد عليه الصلاة والسلام بأنَّه يعيش في بيتٍ غريبٍ، بل يعيش في بيته، وله حقوقٌ في هذا البيت، وفي اهتمام جَدِّه به.
وتعلَّقَ بِجَدِّه وأحبَّه واعتادَ عليه، وهو يشمُّ مِنه رائحة الأب، ويعيش معه مشاعر البنوَّة، كما أن جَدَّه يعيش معه مشاعِر الأبوَّة، أو أعلى مِن مشاعِر الأبوَّة ذلك أن ابن الابن غالِباً ما يكون أعزّ مِن الابن، وهذا كلّه إضافةً إلى بعض الدلائِل التي كانت تُشير له بأنَّه سيكون صاحِب شأنٍ في قومه، مثلما كانت تقول أمُّه آمنة بنت وهب، ومرضعته حليمة السعدية، وما كان يلمسه مِن بركاتٍ وهو في بيته.

أردف أبي يقول: كان عبد المطلب أحياناً يجلس في ظل الكعبة على فراشٍ مرتفعٍ يفرشونه له، ويجلس حولَه أبناؤه، وبعض أشراف مَكَّة.
وكان حفيده محمد عليه الصلاة والسلام، وهو في نحو السابِعة مِن عمره يأتي ويجلس على هذا الفِراش، فيتحسَّس أعمامُه مِن ذلك، ويأتون كي يأخذوه ويُبعدوه عن الفراش المُخصَّص لأبيهم في المقام والمَنزِلة، فيمنعهم قائلاً: (دعوا ابني فو الله إن له لشأناً عظيماً، إني أرى أنه سيأتي عليكم يوم وهو سيدكم، إني أرى غرّته غرّة تسود الناس).
وينظرون إليه وهو يحمله على عنقه ويطوف بِه حول الكعبة، ويُجلِسه معه على الفراش، يحضنه، ويُقبّله، ويمسح على ظهره وهو يقول: (ما رأيت قبلةً أطيب منه ولا أطهر قط، ولا جسداً ألين منه ولا أطيب).
وذات يومٍ ترأّسَ عبد المُطَّلب وفداً مِن وجهاء وأشراف مَكَّة وذهب كي يُقدِّم التهنئة لسيف ذي يزن، عندما تمكَّنَ مِن دخول اليمَن.
وفي لقاءٍ مُنفردٍ بينه وبين سيف بن ذي يزن بعد الانتهاء مِن مراسم تقديم التهنئة، تَحدَّثَ له سيف عن مولودٍ في قريش، وقدَّم له بعض صفات محمد وقال بأنَّه سوف يكون رسولاً مِن الله لأهل الأرض كافّةً.
ولم يكن من عبد المطَّلب إلّا أن سَجَدَ شاكراً الله على هذا الفضل العظيم لقُرَيش، وعندها أدرك سيف بن ذي يزن بأن هذا المولود موجودٌ بالفعل في بيت عبد المُطَّلب، فصار يوصيه به، وأن يوليه عنايته الفائِقة.
ومُجدَّداً تأكَّدَ لعبد المُطَّلب بأن هذا الحفيد إنَّما هو نبيٌ ورسولٌ مِن عند الله، مِمَّا جعله يُضاعِف اهتمامه بِه، ويُفضّله على كل أبنائِه.
ولكن لم يدم ذلك طويلاً يا بُنَي، فبعد سنتَين وقد أصبح الحفيد في الثامِنة مِن عمره، توفّي جَدُّه عبد المُطَّلب عن مئةٍ وعشر سنوات،

وقبل ذلك أتى بأولاده جميعاً، وأوصاهم بحفيده قائِلاً لهم: (إني قد خلَّفتُ لكم الشرف العظيم الذي تطؤون به رقاب الناس)[1].

ثم أوصى أبا طالب بكفالته، لكونِه الأقرب إليه مِن بقيَّة أعمامِه، فهو وعبد الله مِن أمٍّ واحدةٍ هي فاطمة بنت عائذ المخزومية، جدَّة النبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك أورثه الزعامة مِن بعده، رغم أنَّه كان فقيراً من الناحية المادِّية، وكان يُعرَف بين أخوِته بالكَرَم والجود.
أحسَّ محمد صلى الله عليه وسلم بحزنٍ شديدٍ وبكى عند وفاتِه، فها هو ذا جَدُّه الذي عاش معه مشاعِر البنوَّة يوماً بيوم طوال سنتَين، يتركه أيضاً، ها هو ذا الذي كان يُعوّضه عَن حنان الأب قد فارقه ليعود وحيداً، وينتقل مِن بيتٍ إلى بيت، ومِن كفالةٍ إلى كفالة.
بينما أبي يتحدَّث، خَطَرَ لي كيف أنَّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام استطاع أن يتغلَّبَ على الواقع الأليم الذي عاشَ فيه، وأنا أرى شُبَّاناً يفشلون رغم عيشهم حياةٍ رغيدة، ورغم وجودهم مع آبائِهم.
وأدركت كم أن الحياة ثَمينة، وكم علينا أن نُحافِظ عليها ونأخذها بجدِّية، وأن الذي يأخذ الحياة بجدِّية، تأخذه الحياة أيضاً بجدِّية، والذي يأخذها باستهتار، تأخذه باستهتارِه.
واستطعتُ أن أستنتج شيئاً مهمّاً مِن حديث أبي، وهو أن الإنسان المثابِر يُقاوم الظروف حتى يُحقِّق نجاحَه فيها، والإنسان الخامل، يستسلم للظروف ويُظهِر هشاشَته فيها.

[1] تاريخ اليعقوبي

فتى مُبارَك

قال أبي وقد عدَّلَ جلستَه: بيتٌ جديدٌ ينتقل للعيش فيه وهو ما يزال في الرَّبيع الثامِن من عمره، ينتقل ليتلقَّى فيه الرعاية والعناية مِن عمِّه حتى يكبر ويترعرع ويستطيع أن يتحمَّل مسؤوليَّة نفسه، ويتزوَّج، ويكون له بيته المُستقلّ.
هكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام دوماً يرنو إلى القادم الأفضل، يحرص أن يُنمِّي شخصيَّته يوماً تلو يوم نحو الأفضل في مُختلَف الظروف التي كان يواجِهها، كان كتلة مِن الحيويَّة والنَشاط، وهو يضع القواعد السليمة لحياتِه.

وجَّه نظرةً إلى أمّي التي بدت تصغي إليه بإنصاتٍ، ثم استأنَف يقول:
عاش هذا الطفل في بيت عمِّه أبي طالب، مع أولاده، وصارَت زوجة عمّه (فاطمة بنت أسد) تهتمّ به دون أن تُفرّق بينه وبينَ أولادها، فيشعر معها بحنان الأم، كما يشعر مع عمِّه بعطف الأبوَّة، ومع أبناء عمِّه بتآلف الأخوَّة، ولكنَّه وبالحساسيَّة العالية التي يتمتَّع بها ما هانَ عليه أن يعيش عالةً على عمِّه، وهو يستهلك فقط، بل أراد أن يُنتِج ويُسهم في نفقات البَيت، فراح يرعى الأغنام لبعض أهل مَكَّة لقاءَ أجر، وهذا أفضل ما كان يستطيع أن يقوم به في ذلكَ الواقع، وتلكَ البيئة.
كان ينشط ويجدّ في عمله، وسنة بعد سنة يكبر في هذا البيت، وعندما يعود إلى البَيت مُتعَباً مِن عناء العمل، يجلس وهو يشرد، فينظر إليه أبناء عمّه ويُدرِكون بأنَّه يُفكِّر في أمرٍ عظيمٍ، لذلك يتركونه دونَ أن يُعكِّروا عليه صَفو شروده.

وصار عمّه أبو طالب يُلاحِظ بأنّه إذا جلس يشارك العائلة في تناول الطعام، أكلوا منه جميعاً حتى شبعوا وفضلَ منه؛ أمّا إذا غاب عن مشاركتهم الطعام أكلوا حتى ينتهي الطعام ونهضوا دون أن يشبعوا، ومع تكرار رؤيته لذلك، أطلق عليه عمُّه لقب (فتى مُبارَك).

عند ذاك، تناهى صوت أمّي وهي توجّه كلامَها لأبي: وهل استمرَّت فاطمة بنت أسد زوجة عمِّه في رعايتها له؟
قال أبي بعد أن مدَّ يده إلى كأس الماء ورشف رشفةً: نعم يا سارة، استمرَّت حتى نزول الوحي عليه، فآمنت به ودخلت الإسلام.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وفياً ومخلِصاً لكل مَن قدّم له شيئاً، بل لِكل مَن مشى معه ولو خطوةً واحِدةً، ولم ينكر الجَميل لأحدٍ، وكان بالمُقابِل ينسى الإساءات التي وُجّهَت إليه، ويتسامَح مع المُسيئين إذا أتوا واستَسمَحوا منه.

قالَت أمّي: قرأتُ كلاماً للمستشرقة الاسكتلندية إيفلين كوبولد تقول فيه:
(كان العرب قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أمة لا شأن لها، ولا أهمية لقبائلها، ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم، وحكمت فيه آجالاً وآجالاً، لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، لَمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوحدانية الإلهية، لقد وُفِّق إلى نقل العرب من الظلمات إلى النور)[1].

[1] إيفلين كوبولد- البحث عن الله

قال أبي: نعم، ثم أردف يقول: تشكَّلَت شخصيَّتي على هذه الخِصال الحميدة، وترعرعتُ عليها، حتى إنَّني بلغتُ مرحلةً أشعر فيها بالحرَج مِن رسول الله إذا أقدمتُ على تجاوزٍ بحق نفسي، أو بحق غيري.

ثم نظر إليَّ وقال: أوصيكَ يا بُني، كُن دائمَ القراءة لسيرته، لأحاديثه، لمواقِفه، كل هذا بعد أن تكون دائمَ القراءة للكِتاب الذي أُنزِلَ عليه.

وعندها ثق تماماً بأنَّكَ لن تضل أبداً، ولن يكون بوسع أحدٍ أن يضلَّك كائِناً مَن كان.

ورأيته ينظر إلى ساعة الحائط التي كانت تُشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلاً، ويقول: تصبح على خير يا بُنَي. قلتُ: تصبح على خير يا أبي، وما لبث أن تقدَّمَ إلى أمّي المُستلقية على الأريكة، وأمسكَ بيدَيها حتى أنهضها، واتَّجَها على الفَور إلى غرفتهما.

الإسهام المبكّر في تأسيس جمعيَّةٍ لحقوق الإنسان

في اليوم التالي جاءَ أبي متأخِّراً إلى البيت، ولم أتمكَّن من الحديث معه، ونمتُ وأنا في شوقٍ إلى حديثه الذي أستمدّ مِنه ارتياحاً فكريّاً. وفي أمسية اليوم الذي تلاه وبينما كان جالِساً على الأريكة بعد أن تناولنا العشاء، تقدَّمتُ إليه وقلت: أستأذنكَ يا أبي أن تُكمِل حديثَك عن سيرةِ النبي صلى الله عليه وسلم.

هزَّ رأسه وألقى نظرةً إلى أمّي التي راحَت تستلقي على الأريكة وتتهيَّأ للاستِماع، فقال: عندما بلغ النبي عليه الصَّلاة والسَّلام العشرين مِن عمره الشريف، أسهم في تأسيس ما يمكن تسميته الآن بجمعيَّة حقوق الإنسان، وكان اسمه (حلف الفضول). وكان يؤازر الإنسانَ المظلوم الذي يُعتدَى على حقوقه، حتى تُستَردّ تلك الحقوق من أيَّة جهةٍ مُعتديةٍ كانَت.

قالت أمّي: كيف تأسَّسَ هذا الحلف يا عِمران؟

قال: هو في الواقع حلفٌ للدفاع عن حقوق الإنسان، وفيما بعد أشادَت منظمات حقوق الإنسان الحديثة ببنود هذا الحلف، وقد تأسَّس عندما أتى تاجرٌ مِن زبيدة في اليمن إلى مَكَّة ببعض تِجارَتِه، فجاءه العاص بن وائل، وكان مِن النافذين في مَكَّة، وقال للتاجر بأنَّه قد اشترى بضاعته كلّها.

وبعد أن استلم البضاعة من هذا التاجر، أنكرَ عليه حقَّه، ورفض أن يعطيه شيئاً مُستغلّاً نفوذَه في مَكَّة.

عند ذاك لم يسكت التاجر، وقام بمحاولاتٍ عديدة كي يستردَّ حقَّه مِن هذا المُتجاوز، ولكنّ كل محاولاته باءت بالفَشل، ولم يؤازره أحد، فراح يصعد إلى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، ويُنادي بأعلى صوتِه شِعراً وهو يستنجد رِجال مَكَّة:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ مَاتَتْ كَرَامَتُهُ وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ

عندما سمع الزبير بن عبد المطلب القرشي هذا الكلام، تأثَّرَ وقال: (ما لهذا متروك).
ودعا إلى اجتماعٍ طارئٍ على الفور، فاجتمع رِجالٌ مِن أعمِدة قريش في بيت عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، أحد سادات قريش، فصنع لهم طعاماً، وتحدَّثوا حول ما جَرى بشأنِ التاجِر مِن تجاوزٍ على أرض مَكَّة، وتَعَاقَدوا على تأسيسِ حِلفٍ لِمؤازرة المظلومين في مَكَّة.
ثم جَلَبوا ماء زمزم وغمسوا فيه أيديهم في إشارةٍ بأنّهم سيكونون كتلةً واحدةً في الدِّفاعِ عَن المظلومين واسترداد حقوقهم لهم، أيَّاً كان الظالِم، وحضَرَ محمد عليه الصلاة والسلام هذا الحِلف الإنساني وشارَكَ فيه.
بعد الانتهاء من عَقد الحِلف، وكخطوةٍ عمليَّة أولى لِنتائِجه، اتَّجَهوا إلى العاص بن وائِل، وأخَذوا مِنه بضاعة التاجِر اليَمَني، وأعادوها له.
فقال الزبير بن عبد المطَّلب:

إِنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا أَلَّا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمُ

وصار كلَّما يتعرَّض شخصٌ للظلم، يأتي بالشكوى إلى ديوان المظالِم لهذا الحلف، فيُعيدون له حقَّه مِن المُعتَدي كائِناً مَن كان،

حتى شاعت في الناس مقولة: (لا يُظلَم أحدٌ في مَكَّة إلا ردّوا ظلامته).
وتشكَّلَ الحلف بشكل رسمي مِن خمسة أفخاذ مِن قريش: بنو هاشم، بنو المطلب، بنو أسد بن عبد العُزَّى، بنو زهرة بن كلاب، بنو تيم بن مُرَّة، ومعهم فخذ مِن كِنانة، هم بنو الهون عضل والقارة.
وتعاهدوا على: (ألا يُظلم بمكة غريب، ولا قريب، ولا حرّ، ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه، ويكونوا جميعاً مع المظلوم على الظالم حتى يؤدوا له مظلمته ممن ظلمه شريفاً أو وضيعاً.
ألا يتركوا لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه، والعمل على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتآسي في المعاش، والتساهم في المال).
وبقي مُحمَّد عليه الصلاة والسلام مؤازِراً هذا الحِلف، وبعد أن أُنزِلَت عليه رسالةُ النبوَّة، أثنى على هذا الحلف وقال فيه: "لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيت بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت. تَحَالَفُوا أَنْ تُرَدّ الْفُضُولُ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَلّا يَعُزّ ظَالِمٌ مَظْلُومًا".

وهذا الإقرار النبوي الشريف بهذا الحلف الإنسانيّ الذي أسهم فيه النبي قبل الإسلام، يؤكِّد بأنَّه مع الحق أينما كان، وقد أقرَّه قبل الإسلام، كما أقرَّه بعد الإسلام، ونظير ذلك أنَّه ضد الفِتَن والنعرات في بُنية المُجتمَع أينما كانَت، ولذلك هَدَمَ مسجد الضرار في الإسلام، لأنَّه كان يُستَخدَم لإثارة النعرات والفتن لتفتيت المُجتَمع عَن بعضه بعضاً.
ورغم أنَّه كان مسجداً في المدينة، فقد أمر الله رسوله: **{لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدا}**[1]. لأن المُنافقين بنوا هذا المسجد كي يجتمعوا فيه ويتآمروا على الدِّين، وكذلك حتى يستدرِجوا المسلمين إليه ويبثّوا فيهم الفِتَن.

[1] سورة التوبة، الآية7

وبالتالي كان مصير هذا المسجد الهدم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك حِفاظاً على حياة الناس ومصالِحهم مِن الفَلَتان الأمني الذي كان المنافقون يسعون إليه وهم يستخدمون هذا المسجد.
كان عليه الصَلاة والسلام يُنادي بأن الإنسان وحقوقه وأمنه وأخوَّته الإنسانيَّة أوّلاً، ثم أهلاً بكل مَن يُعزِّز هذه القِيَم الإنسانيَّة، وليس أهلاً بِمَن يُخِلّ بهذه القِيَم الإنسانيَّة.

أردف أبي يقول: هذه التحوّلات الجديدة التي بدأت تظهر عليه، وتنتشر في شِعاب مَكَّة، وهو صلى الله عليه وسلم ما يزال في بداية شبابه، كانَت تُسعِد عمَّه، وكان يفتخر بأنَّه يقوم بتربيته ورعايته.

واستمرَّ يعيش في هذا البيت نحو تسع عشرة سنة مع أولاد عَمِّه، وعندما صار في الخامسةِ والعشرين من العمر، كانَت خطواته الأولى نحو الخروج مِن بيتِ عَمِّه بعد كل تلك السنوات، مِن أجل الزواج، والانتقال إلى مرحلة الحياة الاجتماعيَّة المُزدَهِرة، وتكوين عائِلة في بيتٍ خاصٍّ بِه في المُجتَمع المَكّي.
هذه حقائِق حصلت على أرض الواقع يا بُنَي، وكان الناس ينتفعون بهذا التغيير الذي عمِلَ عليه رسول الله في مجتَمعه.

قالَت أمّي: حتى أهل الغرب الذين اقتفوا سيرته عليه الصلاة والسلام، تبيَّنَت لهم هذه الحقائق، فتحدَّثوا عنها بإنصاف. قرأتُ كلاماً للباحث الأرجنتيني جوردون بايرون، يقول فيه: (اتفق المؤرخون على أن محمداً بن عبد الله- صلى الله عليه وسلم- كان ممتازاً بين قومه بأخلاق حميدة، من صدق الحديث والأمانة والكرم وحسن الشمائل والتواضع حتى سمّاه أهلُ بلده الأمين، وكان من شدة ثقتهم به وبأمانته يودعون عنده ودائعَهم وأماناتهم، وكان لا

يشرب الأشربة المُسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً، وكان يعيش مما يدره عليه عمله من خير)[1].
قال أبي: كان جادّاً في حياته، ولا يهمّه شيء سوى أن يُحسِّن للناس حياتهم، ولذلك أقبلوا على الإيمان بِه، وأحبّوه، وغدوا يستنّون بسننه الطاهِرة.

[1] أتح لنفسك فرصة- جوردون بايرون

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

كان أبي يتحدَّث بهدوءٍ وسَكينة عن أحب الناس إلى قلبِه، فهو شديد الحب له، ولذلك أخبرني بأنّه أسماني باسمه.
ويقول بأن ما انتفع به منه، لم ينتفع به من مخلوق قط، ولذلك يتحدَّث عنه بتشويق حتى إنّني لا أريد أن أنهض وأنا أستمع إليه وهو يُدهشني بحديثه المشوّق.
غدوتُ أتخيَّل شخصيَّة الرسول عليه الصَلاة والسَلام، وأشعر بمدى حاجَتي لِمعرفة المَزيد عَنه، وأقتنع أكثر وأكثر بِمدى حاجَتي القصوى إلى هذه النَفَحات الدِينيَّة وأنا أنفتح على الحَياة وسَطَ خَليطٍ مِن شُبَّانٍ بِمُعتَقداتٍ مُختَلِفة.
وصار لدي شوقٌ كي يستمرّ أبي في الحديث لأتعرَّفَ على التحوّل الذي طَرَأَ على حياته صلى الله عليه وسلم وهو ينتقل إلى مرحلة الحياة العائليَّة.
فقال بعدَ صمتٍ لم يطل به:
كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في الأربعين من عمرها، وتملك ثروةً تُنافس بها كِبار أثرياء قُرَيش، تنتمي إلى بيت أصيل، وقد أكرمَها اللهُ بجمالِ الشكل والنفس.
وكانَت هذه السيدة الفاضِلة التي تُعرَف في قومِها بالطاهِرة، وبسيدة قُرَيش، تَسمع بعض الأحاديث عن شابٍّ قُرَشيٍّ في الخامسة والعشرين من عمره، والتي تُظهر مدى عفافه، وأمانَته، وصدقه، وجدّيته في الحياة، فبدأت تميل إلى معرفة سيرة هذا الشاب، وتغتنم مناسبات الحديث لتعرف عنه المزيد، تعرف عن أبوَيه، عن نَسَبه، عن طفولته، عن المراحل التي عاشها في حياتِه، وكان كل ذلك يَزيدها إعجاباً به.

وعند ذاك صار يخطر لها أن تقترب منه أكثر، وأن يكون زوجاً لها، وتكون زوجةً له، ويُكوّنا معاً عائلةً.
أجل إنَّه أفضل شخص يمكن لها أن تقترن بِه، وهي التي تعتذر كثيراً عن رجالٍ من ذوي وجاهة وثراء ونفوذ وحَسَب ونَسَب يتقدَّمون لها للزواج.

محمد بن عبد الله، ذاك الشاب المختلف عن أقرانِه، لا يميل إلى أشكال الترف واللهو كشبَّان قُرَيش.
شابٌّ رزينٌ كوردةٍ انتشرت منها روائح فوَّاحة وهي تتفتَّح، ذاك الفتى القُرَشي يُتِّمَ وهو طفل، يميل للشرود والعزلة وهو يرعى الغنم فيأتي بما يسد جوعه ويعين به عمَّه في نفقات البيت.

ولبثت في صمتها حتى جاء موعد رحلة التجارة التي تنطلق فيها القافلة التجاريَّة مِن مَكَّة إلى بلاد الشام، وعند ذاك خطرَ لها أن تُكلِّفه بالذهاب في هذه التِّجارة، فهو شابٌّ أمينٌ وقد يُحقق لها مكسباً أعلى من هؤلاء الذين يأخذون تجارتها كل سنة سواءً في رحلة الصيف إلى بِلاد الشام، أو رحلة الشِتاء إلى اليمن.
قلت: يا أبي لماذا سُمِّيَت رحلة الصيف ورحلة الشتاء؟
قال: كانَت قُرَيش يا بُني تعتمد بشكلٍ جيّدٍ على مردود هاتَين الرحلتَين التِجاريَّتَين في إنعاش وضعِها الاقتصادي، فكانوا يأخذون البِضاعة المتوفِّرة لديهم لبيعِها، ويأتون ببضاعة غير متوفِّرة لديهم لبيعِها في أسواقِهم المحليَّة في مَكَّة.
واختارَت قُرَيش رحلةً إلى الشام في الصيف، لأنَّ الطقس في الصَيف يكون فيها معتدِلاً بعض الشيء، ويكون الشِتاء قارِساً جدّاً.
واختارَت رحلةً إلى اليَمَن في الشِتاء، لأن الصيف فيه شديد الحرارة، والشِتاء معتدل البرودة.

ورأت خديجة رضي الله عنها أن تستفيد من أمانته وتُفيده، وهو أيضاً قد يبحث عن فرصة عمل جيّدة تُغنيه عن رعاية الأغنام.
عندها أرسلتْ لأبي طالب تخبره رغبتها بأن يحمل محمد بضاعتها هذه السنة إلى الشام، وتشجيعاً له لأنها المرَّة الأولى، وكونه عُرِفَ بالأمين، فإنَّها سوفَ تعطيه ضعف الأجر الذي يعطيه تجار الرحلة لعُمَّالِهم.

أردف أبي بصوته الهادئ وقال بعد صمتٍ قصير: عندما وصل الخبرُ إلى أبي طالب، فكَّرَ بالأمر مليّاً، وصار يُقلبه من جميع النواحي، ورآها فرصةً سانِحةً كي يُحسِّن ابن أخيه من وضعه المالي، وهو الذي أصبح في سن الزواج، وعليه أن يفتح بيتاً ويؤثِّثه، إضافة إلى المهر وتكاليف الزواج، وإعالة عائلة.
ومِن جهةٍ أخرى، رآها فرصة ليَخبر الحياةَ من خلال السفر والغربة ورؤية بلاد أخرى، والاحتكاك بالناس.
ورغم ذلك لم يتسرَّع بالرَّد عليها، حتى يأخذ المزيد من الوقت، وفي النهاية أخبر صاحِبَ الشأن بفرصةِ العملِ هذه، فلم يُمانِع، وأنَّ ما يراه عمُّه مُناسباً، فهو موافقٌ عليه.
وبينما خديجة رضي الله عنها في حالة الترقّب جاءها الجوابُ، فأرسلت إليه للاتِّفاق على تفاصيل رحلة التجارة هذه.
وعندما جاء، قالت له: (إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك). فوافق عليه الصلاة والسلام، وأبدى استعداده لهذا العمل التِّجاري في إيلاف قُرَيش، واتَّفَقا على الأجر الذي يتقاضاه عَن أتعابِه في رحلة التِّجارة. ثم عاد يُخبر عمَّه بذلك، فقال له عمُّه وهو يُبارِكُ له العمل الجديد: (إن هذا لرزق ساقه الله إليك).

ومع اتِّخاذ خديجة رضي الله عنها، القرار النهائي، خَطَرَ لها أن تُرسل معه مَن يُساعِده، ويُخفّف عنه مشقَّة الطريق، وينوب عنه للقيام بالكثير من الأعباء، فوقع اختيارُها على (ميسرة)، خادمها الذي تثق به، فقامَت بتكليفه، وأوصته أن يبقى مُلازِماً له، ويحرص على راحته ما أمكن.
إنَّه الرجل الذي تُفكّر بأسمى رابِطة إنسانيَّة معه، تحمل اسمه، ويحمل أولادُها اسمه، وهي ترى بأنَّه مستقبلها، ولا مستقبل لها غيره.

ومِن جهتِه بدأ محمد صلى الله عليه وسلم يقوم باستعداداته، ويَتَجَهَّز للسفر حتى حانَ موعدُ انطلاق القافِلة، وعندها ودَّع عمَّه وأبناء عمِّه، وزوجة عمِّه التي كانَت تشعر بأمومة نحوه، ويشعر ببنوَّةٍ نحوَها، وانطلّقَ برفقة ميسرة ضمن القافِلة الكبيرة حاملاً البضاعة إلى الشام.
وكانت خديجة رضي الله عنها، تتابع التحضيرات، حتى ابتعدَت القافلة عن شِعابِ مكَّة، وتوارَت عن أنظارِها.
في تلك اللحظات، أحسَّت لأوّلِ مرَّةٍ بأنَّه ابتعد عنها، ومع مرور الوقت غدا التفكيرُ يتحوَّل إلى قلقٍ، وغدا حديثَ الليل والنهار بالنسبة إليها.
فكيف أرسَلَته في هذه الرحلة الشاقة، وهل تجد المرأة في كل وقتٍ رجلاً صادِقاً تستقرّ لفكرة الاقتران بِه؟
وكان يمكن لأيّ رجلٍ أن يقوم بهذه الرحلة كالسنوات الماضية، ولتذهب الأموال إلى حيث تذهب، ولكن الرجل الصادق إذا ذهب، سيأخذ معه كل أمل، وكل بسمة، وكل خفقة قلب.

خَطَرَ لي وأنا أستمع إليه، كيف أن الإنسان العَفيف يألف الإنسان العَفيف، وأن العَفاف هو أساس العَلاقة الزوجية الناجِحة، ولمحتُ

أمّي تصغي أيضاً بإنصاتٍ، فأردف أبي يقول: لو كان الأمرُ بيدِها لأرسَلَت مَنْ يُعيده مع البضاعة من منتصف الطريق، لكن بدا الأمر صعباً وحسّاساً في كل الأحوال، فما الذي ستقوله للناس، ما الذي ستقوله له، وكذلك لعمّه؟ ولم يبق لها سوى أن تنتظر على أجنحة القلق.

تسهر الليالي الطويلة وتتقافَز صفحات الماضي إلى تفكيرها، فتتذكَّر كيف أن أباه قد ذهب في رحلة تجارة مماثلة ولم يَعد منها لتقع الفجيعة الكبرى على بني هاشم في وفاته.
وكانَت مُفارقة غريبة، فقد كان عبد الله في الخامسة والعشرين عندما مات في تلك الرحلة، وها هو ابنه محمد في الخامسة والعشرين وهو ذاهبٌ في الرحلة.

قالت أمّي: مهما كانت المرأة غنيَّة، فإنَّها تبقى بحاجةٍ إلى إعالة الرجل لها، لأنَّها مِن خِلال ذلك تشعر بالطمأنينة معه.
قال أبي: لذلك، أرسَلَته في هذه التجارة لتختبر جَلده على العمل، والتضحية في سبيل إطعامها؛ إذ احتاجت إلى مَن يُعيلها، ثم إنّ صِدق مشاعِرها دفعها لتُخرجه من رعي الأغنام فيكون مع التُجّار ويجول في البلاد، فهو سيكون أباً لأولادها وسوف يتعرَّف على الحياة أكثر مع سنوات العَمَل، ويُعاني ويتعلَّم حتى ينضج وينجح ليكون أباً، ومُرَبّياً، ومُعلِّماً، لها ولأولادها.

الآن عندما يعود، سيثبت لها بأنَّه سيكون زوجاً، ومُعيلاً، وأباً مُكافِحاً، وعامِلاً في سبيل تكوين أسرة ناجحة. وستترك العمل في التجارة، وتتفرَّغ لبيتها وأولادها وزوجها، وسيتولَّى القيام بالعَمَل، وتأمين المعيشة لهم بجهده.

تمضي الأيَّامُ بَطيئةً، وتغدو الليالي أكثر وحشة، يغدو النهار أكثر طولاً، بل حتى الصيف يبدو لها أكثرَ حرارةً، وهي تُحادث نفسها، ويخطر لها أنَّها لو أرسلته في رحلة الشتاء إلى اليمن، ربما كان ذلك أخَفّ، لكن تعود وتُفكّر بأن الشتاء أيضاً قارس، ورحلة الصيف إلى بِلاد الشام هي الأفضل له، ويستمر بِها الشرود في وحشة انتظارِ مَن قد يأتي وقد لا يأتي مِن الرِّحلة. وينتابها شعورٌ بأنَّ القافِلة ذهبت لأوَّل مرَّةٍ إلى بقاعٍ بعيدة.. بعيدة، بقاعٍ محفوفةٍ بالمخاطِر، ولم يعد يهمّها شيء في العالَم سوى أن تعودَ القافِلة إلى أرض مَكَّة.

وذات يومٍ، بغتة تعالت الأصواتُ فَرِحة بعودة العِير من بلاد الشام، دَوَت الأصواتُ المُبشِّرة في أجواء مَكَّة، وهَرَعَ الناسُ من بيوتِهم، هرولَت قاماتٌ في كبد الطريق صوب القافلة القادمة التي بدأت تلوح من بعيد.

عند ذاك أحسَّت بأن شمساً بدأت تسطع رويداً رويداً على ظلمةٍ كانت قابعة في صدرِها، وأيَّة نبرات ذهبيَّة تلك التي تصدح في الطرقات وتزيح عن كاهلها جبلاً من القلق.
عاد العِير، أجل عاد العِير وها هو ذا يلوح بعودته من بعيد كغائب منذ مئة عام، ولا يهمّها مِن كل هذا العِير سوى أن يعود سالِماً.

تعلَّقَت أنظارُها بالقافلة التي بدأت تَلوح وتَدنو مَن بَعيدٍ، ناسيةً كل شيء، وكأن ليس فيها غيره؛ بل ليس في العالم كلّه غيره، تنظر إلى البَعيد، وقلبُها يخفق فرحاً.
لأوَّل مرَّةٍ راودها شعور بعظمة وجود إنسان نقي عذب يمكن لها أن تطمئن إليه كل الطمأنينة.

يتحدث الناسُ عن الأرباح، عن الأموال التي ستحل عليهم، عن هدايا لم ترها عيونهم من قبل، عَن أغراضٍ أوصوا عليها بشكلٍ خاصٍّ، عن رائحة بلاد الشام التي يحملها رجالُ قُرَيش.
وكل تفكيرها في رجلٍ واحدٍ، ولكن ما لهذه القافلة لا تصل؟ ما لهذه المسافة وكأنها تأخذ بالابتعاد، وما زالت أصواتُ المُبشّرين تتلألأ بالنداء حاملةً البُشرى، ما تزال الأصواتُ تصدحُ بأعذب أنشودةٍ سمعَتها.

دخَلَت القافِلةُ وانتشرت في أرجاءِ مكَّة، وازدَحمَت الطُرقات بالقادِمين، وجاء إليها برفقة ميسرة، وقد تغيَّرَت ملامحه بعض الشيء، بدا إرهاق السفر جليّاً على سحنته، مدَّ إليها النقود، وغدا يشرح لها تفاصيل التجارة، تفاصيل البَيع والشِراء، إنه الصادق الأمين، هذا الذي يشرق وهو واقفٌ يُسلّمها أرباحاً ما كانت تخطر لها على بال، يُسلّمها الأرباح، ويأخذ أجره، ثم ينصرف إلى أهله كي يغتسل ويرتاح من مشاق الرحلة.

عند ذاك طلبت من (ميسرة) أن يروي لها كل شيء عن تفاصيل الرحلة، أن يُحدِّثها عن رفقته في السفر، عن كل نظرة وحركة وكلمة بَدَرَتْ منه.
ولكن ميسرة رَكَنَ إلى الصمت في حضرة سؤال سَيِّدته، وأي شيءٍ سيقول، من أين سيبدأ، وإذا أخبرها بِما رأى هل ستُصدِّق وهو نفسه مُندَهشٌ لِما رأى وعاشَر؟!

ولكنَّها أصرَّت أن يروي لها ما رأى وسوف تُصدّقه لأنها تخبر صدق خادمها، ولذلك عندما أخبرها عن كائنَين غريبَين كانا يظهران في حرارة الظهيرة ليُظلّلاه، وكان هو الوحيد من بين القوم يراهما.

قالت له: صدقت يا ميسرة.
في تلك اللحظة ولد القرار الذي لا تَراجُعَ عنه، فأرسلت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، ولمَّا جاء، أخبَرته بأنها سوف تتزوَّج محمداً بن عبد الله الذي أولَته تجارَتها هذه السنة في رحلةِ الشام.
ولأن ورقة يثق بحكمة ابنة عمِّه وتأنّيها في اتخاذ مثل هذا القرار المصيري، أبدى موافقته.
تقول السيِّدة (نفيسة بنت منية): (كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ امْرَأَةً حَازِمَةً، جَلْدَةً شَرِيفَةً مَعَ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَوْسَطُ قُرَيْشٍ نَسَبًا، وَأَعْظَمُهُمْ شَرَفًا، وَأَكْثَرُهُمْ مَالا، وَكُلُّ قَوْمِهَا كَانَ حَرِيصًا عَلَى نِكَاحِهَا لَوْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، قَدْ طَلَبُوهَا وَبَذَلُوا لَهَا الأَمْوَالَ. فَأَرْسَلَتْنِي دَسِيسًا إِلَى مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ فِي عِيرِهَا مِنَ الشَّامِ. فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزَوَّجَ؟
فَقَالَ: "مَا بِيَدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ".
قُلْتُ: فَإِنْ كُفِيتَ ذَلِكَ وَدُعِيتَ إِلَى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالشَّرَفِ وَالْكَفَاءَةِ أَلا تُجِيبُ؟ قَالَ: "فَمَنْ هِيَ"؟
قُلْتُ: خَدِيجَةُ.
قَالَ: "وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ"؟
قُلْتُ: عَلَيَّ.
قَالَ: "فَأَنَا أَفْعَلُ".
فَذَهَبْتُ فَأَخْبَرْتُهَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنِ ائْتِ لِسَاعَةِ كَذَا وَكَذَا، وَأَرْسَلَتْ إِلَى عَمِّهَا عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ لِيُزَوِّجَهَا)[1].

عند ذاك حضر محمد عليه الصلاة والسلام مع أعمامه إلى بيت خديجة لخطبتها بشكل رسمي من عمِّها عمرو بن أسد، فقال أبو طالب: (الحمد لله الذي جَعَلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل،

[1] الطبقات الكُبرى، ج1، ص105

وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجَعَلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق كذا)[1].

وبعد أن تمَّ الزَواج، انتقل محمد عليه الصلاة والسلام للعيش في بيت خديجة رضي الله عنها، الذي يقع في زقاق العطَّارين.
وبدأ مرحلةً جديدة في حياته، مرحلة عائليَّة مع امرأة تُحبّه وتحرص عليه، تعوّضه بِما لقي من حرمان، من دفء المرأة، دفء البيت، ولبث يُقدِّر كل تضحياتها وحبّها الشديد له.

لم أملك نفسي مِن الشرود وأنا أستمع إلى أبي، وأدركتُ للتو بأن الابتعاد عَن التأسّي بالرسول صلى الله عليه وسلم يكمن خلف كل حالات الطلاق التي تحصل في واقِعنا، حالات تفتيت العائِلات، وتشريد الأطفال، يكمن خلف كل حالات انحراف الشبّان الذين هم في بدايات انفتاحهم على الحياة، خلف الفشل الذريع الذي يُمنى به الكَثيرون مِن الذينَ أراهم، أو أسمع بِهم.
أجل، لا بدَّ لي أن أقرأ كثيراً، كثيراً عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أن ألمّ بجوانب حياتِه، أن أقرأ أحاديثه. وصَدقَ الله إذا قال: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}**[2].
لا بدَّ أن أطَّلِع على كل ذاكَ العالَم الغَني الذي أنا بأمسّ الحاجة إليه.

[1] نور اليقين في سيرة سيد المرسلين
[2] سورة الأحزاب، الآية21

قال أبي: الزواجُ غِنى يا بُنَي، والرجل والمرأة يغتنيان بالزواج، وتتَّسع عليهما الحياة.
أنجبت له خديجة رضي الله عنها ابنه القاسم، فرأى نفسه أباً، يُمارس معه مشاعر الأبوّة، يُداعِب فلذة كبده، يُقبّله، يستأنس به، ويشعر بمسؤوليَّة العائلة أكثر وأكثر، وصارَ يُكنّى بأبي القاسم.
وكانَت الأبوَّة مرحلة جديدة في حياتِه، ولكنْ بعد نحو سنَتَين مِن عمره مات القاسِم، فحزن عليه، وأحسَّ بفراقِه.
وأنجبَت له ولده الثاني، فأسماه عبد الله، وعادَت ذات المُداعبات مع هذا الطفل وهو يكبر، وفي عمر سنة ونصف ماتَ هو الآخر.
وأنجبَت له أولى بناتِه، زينب، فعاش معها مشاعر الأبوة وهو يراها تكبر أمام عينَيه، ثم أنجبت الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة ابنته الصغرى فاطمة الزهراء.
ويتقدَّم به العمر وهو مستمرٌّ بِعملِه في التِّجارة، وكذلك بنشاطِه الاجتماعي في إصلاح المُجتمع وزرع بذرة السلم فيه.
فكان يُشار إليه بالحِكمة، والصدق، والأمانة، والعَفاف، وتؤخَذ مِنه المشورة، وعندما أصبح في الخامِسة والثلاثين مِن عمره، استطاع أن يُجنِّب بعض أسياد مَكَّة القِتال فيما بينهم.
وكان ذلك عندما تعرَّضَت الكَعبة لبعض التصدّع، فقاموا بترميمها وإصلاحها، وكان محمد عليه الصلاة والسلام عامِلاً في الإصلاح مِن خِلال نقل الحِجارة.
وعندما فرغوا مِن أعمال الترميم وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانِه، نشب بينهم خلافٌ على مَن يتولَّى القِيام بذلك، وتصاعَدَت وتيرةُ الخِلاف إلى درجة الاستعداد لِلقِتالِ بينهم عندما أتى بنو عبد الدار، وبنو عدي بقصعةٍ مملوءةٍ بالدم كإشارةٍ بأنَّهم الأَولى بنَيل شرف وضع الحجر الأسود في موضِعه.
واستَمَرَّ التَصعيدُ بينهم نحو أربعة أيَّامٍ، حتى تدخَّلَ أبو أمَيَّة بن المغيرة، والذي كان يكبرهم جميعاً في السن، وقال: (يا معشر

قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه).
فاتَّفَقوا على هذا الرأي، ورضوا بِه وهم ينظرون إلى المَدخَل، فرأوا محمداً أوَّل الداخِلين، وبذلك يكون الحَكَم بينهم. فقالوا: (هذا الأمين، رضينا، هذا محمد).
وعند وصولِه إلَيهم، أخبروه بِما اتَّفَقوا عليه. فقال: "هلم لي ثَوباً".
وعندما أحضَروا الثَوب، تناوَله ووضَعَه بيده على الحجر، وقال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً".
فاستَجابوا لِما قال، ورفعوه إلى الموضع، وعندها ثبَّتَه النبي صلى الله عليه وسلم في موضعه بيدَيه الشريفتَين.

نزول الوحي

في أمسية اليوم التالي جلسنا نستمع إلى أبي، فقال: اعتاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى غار حِرَاء شرق مَكَّة ويبعد عن بيته نحو خمسة كيلو مترات، والغار صغير جدّاً في حجمه، يقع في أعلى جبل النور الذي يبلغ ارتفاعه 630 متراً، وكان يمشي هذه المسافة، حتى يصل إلى ذاك المكان الذي يستقرّ في قمَّة الجبل.
يختلي بنفسه هُناك ويبتعد عَن الأوثان التي رفضها جملةً واحِدةً منذ صِغَره، يتفكَّر في ملكوت السموات والأرض، ويذكر الله، وأحياناً يأخذ معه الطعام ويبيت في الغار.

في ليلة القَدر، يوم الاثنَين وقبل بزوغ الفجر في الواحد والعشرين مِن شهر رمضان، وكان النبي قد بلغ أربعين سنة قمريَّة مِن عمره الشريف، ومضت على حياتِه العائليَّة مع خديجة خمس عشرة سنة، وبينما كان في خلوتِه في غار حِرَاء، جاءه صوت جبريل عليه السلام: اقرأ..
قال: "ما أنا بقارئ".
ثم أعاد القَول: اقرأ..
قال: "ما أنا بقارئ".
وأعادها الملك عليه ثلاث مرّات، وقال: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**[1].
في ذاك العمر، انتقلَت حياتُه إلى مرحلةٍ مفصليَّة: محمد صلى الله عليه وسلم ما قبل الأربعين بكل ذاك الزخم الذي عاشه في شِعاب

[1] سورة العلق، الآيات 1- 5

مكَّة، ومحمَّد صلى الله عليه وسلم ما بعد الأربعين الذي بدأت معه نزول الكلمات الأولى من الوحي على قلبه في غارِ حِرَاء.
كان حَدَثاً كبيراً بالنسبةِ إليه، وصار يرتعد، ومَن له غير أقرب الناس إليه، غير مَن يشعر معها بالأمان والطمأنينة، ولكن هل ستُصدّقه إذا أخبرها بِما حصل معه، بل هل يُخبرها، أم يخفي عنها؟

إنَّها خديجة الكُبرى التي ألفها وألفته، فلم يتردَّد من إخبارها بِما حصل معه وهو في غار حِرَاء، فصدَّقَته وآمَنَت به على الفور لتكون أوَّل امرأة تدخل الإسلام في الدقائق الأولى من نزول الكلمات الأولى من الرسالة.
وقَفَتْ معه بكل قوَّتها وإمكاناتِها وهي تُسانِده في نشر رسالةٍ سوف تنطلق من بَيتِها لتنتشر في آفاق الأرض.
تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكانَ يَأْتي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غَارِ حراءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فَقُلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** حتَّى بَلَغَ **{عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**. فَرَجَعَ بهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ علَى خَدِيجَةَ، فَقالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي"، فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، فَقالَ: "يا خَدِيجَةُ، ما لي"؟ وأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وقالَ: "قدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي"، فَقالَتْ له: كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَ اللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَداً إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،

وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ)[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (6617) عن عائشة، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة

دار الأرقَم وسرّيَّة الدعوة

استأنفَ أبي يقول: لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملأ عند نزول الكلمات الأولى مِن الوحي على قلبه في غار حِرَاء، ويدعو أهل مكَّة بشكل عَلَني لِترك ما هم عليه مِن ضَلال واتِّباعِه على الفَور.
بل بدأ بحكمةٍ مُراعياً الواقع المُترسِّخ في الناس، وكان وحيداً لا أحد يعرف شيئاً عَن التنزيل الجَديد غيره. فبدأ بداخِل بيته، وأقرب الناس إليه، وهي زوجته، وأم عياله، ورفيقة دَربه، خَديجة رضوان الله عليها.
فبداية التغيير نحو الأفضل يا بُني تكون مِن البَيت السَليم، فلا بُدَّ أن يكون أهل بيتكَ معك حتى تستطيع أن تفعل شيئاً مُجدياً في مهمَّتك، وفي هدفكَ في الحياة، وأقرب أهل بيتك هم زوجتك وأبناؤك، وبعد ذلك تتَّسع في استقطاب الناس لمؤازَرَتك فيما تَدعو إليه.

بعد أن استقرَّ الإيمانُ في بَيته، وقد أكرم الله عز وجل أم المؤمنين خديجة بالسّبق الأوَّل في دخول الإسلام، كما أكرَمها بأن تكون الزوجة الأولى لخاتم أنبيائه ورسله، وأكرمها بأن تكون الأمّ الأولى للمؤمنين، وأن تكون المرأة الأولى التي أنجَبت للنبي أبناء وجعلته أباً يعيش مشاعر الأبوَّة في بيتِها، والمرأة الأولى والوحيدة التي رأى النبي أحفاده مِنها.
آمَنَ ابن عمّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان النبي قد كفله عندما أتت على قريش سنة جفاف ومحل، وبدأ الناس يُعانون بسبّب ضيق المعيشة، وأراد النبي أن يردَّ الإحسان بالإحسان، ويُخفِّف عَن أبي طالب ضيق المعيشة لكثرة أولادِه فأتى مع عمّه العباس الذي تولّى كفالة جعفر، كما تولّى النبي كفالة علي، وبذلك

فقد تربّى علي بن أبي طالب في بيت النبوَّة في تلك السنوات المُبكِّرة مِن عمره.
وكان عند نزول الوحي في العاشِرة مِن عمره، وهو أوَّل الفتيان دخولاً في الإسلام، وأخفى إيمانه عَن أبيه في البِداية حتى يحصل ذلك بتدرّج، وكان متأثِّراً بشخصيَّة النبي وتربيته له، ويعتبره مثله الأعلى في الحياة، حتى إنه ليلة الهجرة عندما أراد المُشرِكون الاعتداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، نام على فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يُجنِّبه الأذى الذي قد يصيبه مِن المُشركين، وآثرَ أن يُصاب هو بالأذى ولا يُصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولبث مُلازِماً للنبي ومخلِصاً له، حتى أن النبي صلى عليه وسلم زوَّجه ابنته فاطمة الزهراء التي كانت لها منزلتها الخاصة عند أبيها بكونِها صُغرى بناته رضي الله عنهن.

وكان أبو بكر الصدّيق مِن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ويَعرف مدى صدقه وأمانته، ولذلك عندما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي، آمَن بنبوَّتِه على الفَور، فكان أوَّل رجلٍ يدخل الإسلام.
ثم آمَن عثمان بن عفان، وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص، وزهير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح.

وعندما آمَن عبد مناف بن أسد، الذي عُرِف بالأرقم بن أبي الأرقم على يد أبي بكر الصدِّيق، كان ذلك بمثابة التحوُّل في نشر الدعوة؛ لأنَّ الأرقم جعل داره مقرَّاً سرّيّاً يجتمع فيه المسلمون الأوائل لمُناقَشة المُستجدّات الطارِئة، وكذلك للاستماع إلى القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتوجيهات الجديدة.

تقول عائشة رضي الله عنها: (خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ, وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ, فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ, فُقِدْتَ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِكَ، وَاتَّهَمُوكَ بِالْعَيْبِ لآبَائِهَا وَأُمَّهَاتِهَا, فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ, أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَعَزَّ جَلَّ", فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَلامِهِ أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ, فَانْطَلَقَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَيْنَ الأَخْشَبَيْنِ أَحَدٌ أَكْثَرَ سُرُورًا مِنْهُ بِإِسْلامِ أَبِي بَكْرٍ, وَمَضَى أَبُو بَكْرٍ وَرَاحَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ, فَأَسْلَمُوا, ثُمَّ جَاءَ الْغَدَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ وَالأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ فَأَسْلَمُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)[1].

وكان أبو بكر مِن أعمدة الدعوة إلى الإيمان بنبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام. وكان مِن أصحاب النبي المقرَّبين إليه قبل الدعوة، ولذلك صدَّقه وآمن به. وفي ذلك يقول البيهقي: (لأنه كان يرى دلائل نُبُوَّة النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمع آثَارَه قَبْل دعوته، فَحين دعاه كان قدْ سبق فيه تَفَكُّرُه ونَظره فأسلم في الحال).

لم يقتصر السَّبق على الرِجال فقط، بل كانَت النِساء أيضاً سَبَّاقات إلى دخول الإسلام، وكانت خديجة رضي الله عنها قدوتهنَّ.

ومن النساء اللواتي سبقن إلى الإسلام مع أزواجِهن في تلك الأيّام المُبكِّرة جدّاً مِن الدعوة: أسماء بنت سلامة، مع زوجِها عباس بن أبي ربيعة

أسماء بنت عميس، مع زوجِها جعفر بن أبي طالب

فاطمة بنت المجلل، مع زوجِها حاطب بن الحارث

فكيهة بنت يسار، زوجة خطاب بن الحارث

رملة بنت أبي عوف، وزوجها المطلب بن أزهر

[1] الرياض النضرة في مناقب العشرة

أميمة بنت خلف، وزوجها خالد بن سعيد.

وكان الذين يريدون دخول الإسلام يأتون إلى هذه الاجتماعات السرّية في دار الأرقم التي تقع عند الصفا، وبعيدة بعض الشيء عن تجمّعات الناس، فيدخلون الإسلام على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومِن الذين دخلوا الإسلام، عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي، وقد أسلما معاً، وكان ذلك عندما تصادف أن التقى عمار بن ياسر مع صهيب الرومي على باب دار الأرقم.
وفي ذلك يقول عمار بن ياسر: (لَقيتُ صُهَيبًا على بابِ دارِ الأرقم، وفيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدخَلْنا، فعرَضَ علينا الإسلامَ، فأسلَمْنا، ثُمَّ مكَثْنا يومًا على ذلك حتى أمسَيْنا، فخرَجْنا ونحن مُستَخْفونَ)[1].
وكذلك أسلم في دار الأرقم، طليب بن عمير، وبعد إسلامه تحدَّث مع أمّه أروى بنت عبد المطَّلب عمَّة الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، وقال لها بأنَّه أسلم بِما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم دعاها كي تسلم، فلم تتردَّد وأسلمَت، وصارت تطلب من ابنها أن يؤازره ولا ينقطع عنه.
وكذلك أسلمت في دار الأرقم أم أبي بكر الصديق سلمى بنت صقر رضي الله عنها.
استغرقتُ في الاستماع إليه، وأنا أرجو ألّا ينقطع عنه، ورأيتُ أمّي أيضاً تستمع بإنصات، فأردف يقول: ومن الصحابة الكِرام الذين أسلموا على يدَي أبي بكر: عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف.

[1] سير أعلام النبلاء، ص 19

وبذلك كانَت نسمات الإسلام الطيّبة تنتشر برفقٍ في بيوت مَكَّة، ويوماً بعد يوم تزدادُ أعداد المسلمين انطلاقاً مِن الاجتماعات السرّية التي كانَت تحصل في دار الأرقم.
وكما كان الرجال ينشطون ويعظون الرجال، فكانَت النساء أيضاً ينشطن، ويعظن النساء لدخول الإسلام.
واستمرَّت دار الأرقم تحتضن طلائِع المسلمين بسرِّيَّة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقرأ ما يتنزّل عليه مِن القرآن للمسلمين المجتمعين في الدار، ويطلب منهم الصبر والثبات على الدِين.

الفصل الثاني

أوان الجهر بالدَعوة

كانَت أمّي تبدو هادئة بعض الشيء، وقد استردَّت عافيتها، وعادت تطبخ لنا طبخاتها اللذيذة، وقد أنقذتنا مِن تناول الطعام الجاهِز الذي كان أبي يوصي به مِن المَطاعم.
ولكن رغم ذلك، لبِثتْ تلكَ النظرات التي تنظرها بين حينٍ وآخر بلمحاتٍ سريعةٍ إلى أبي، وخاصَّة عندما يخرج مِن البَيت، أو يعود إليه.
في أمسيةِ اليوم التالي جلس أبي في موضِعه، وجلستُ وأنا أنتظر بشوقٍ عارمٍ ما سيقول.
وبعد نحو ربع ساعةٍ مِن جلوسِه، قال: لكلِّ شيءٍ أوانٌ يا بُنَي، وكما أنَّ السرّ له أوان، فالجَهر أيضاً له أوان. فعمل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته السابقون الأوّلون بجدٍّ ونشاطٍ طوال ثلاث سنواتٍ مُتواصِلةٍ بشكلٍ مُكثّفٍ في السر وأخذ الحيطة والحَذَر، وجاء اليومُ الذي انتقلَت فيه مسيرة الدعوة من السر إلى الجَهر، وذلكَ بأمرٍ مِن الله جلَّ جلالُه: **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** [1].

مع هذا الانتقال إلى الدَعوة العَلَنيَّة، اشتَعلَت مَكَّة وثار المُشركون على كل ما يَمُتُّ إلى الإسلام بِصلةٍ.
قالَت أمّي: هذه هي نتيجة الاندفاع بدون الإصغاء بشكلٍ جيّدٍ إلى الطرف الآخر.
قال أبي: كانوا يندفعون تحتَ فَورة حمية الجاهليَّة، وفي النهاية وبعد كل تلك الخسارات الجسيمة، أدرك حتى أقطاب الطغيان هذه

[1] سورة الحجر، الآية 94

الحقيقة، وندموا على كل ما فعلوا، ودخلوا الإسلام، لأنَّهم أيقنوا تماماً بأن المساواة التي يدعو لها الإسلام هي التي تجعل مِن الحياة أفضل، وتتيح للناس سبيل التعايش السلمي.
قالَت: حتى بعض مفكّرينا الكِبار الذين كانوا يُنادون بالإلحاد ويلقون المُحاضرات ويؤلّفون بعض الكُتب عنه، تَراجَعوا في فتراتٍ متأخّرة مِن حياتِهم وآمنوا بعد كل ذاكَ التاريخ مِن محاربة الدِين.
وهُنا تكمن عظمة الإسلام يا عمران، فمادام الإنسان لا يبقى مُصرّاً بعنادٍ شَديدٍ على الكُفر، فإنَّ باب الله يبقى مفتوحاً له في أي وقتٍ مِن الأوقات.
قال أبي: ليس هذا فحسب يا سارة، بل حتى كل تلك السيّئات التي اجتَرَحوها، يحوّلها الله لهم إلى حسنات. ثم أردف يقول: والله لو أمضيتُ عمري ساجِداً لله دون أن أرفع رأسي، لَما وفيتُ الله حقَّه.
خيَّمَ صمتٌ علينا وأنا أرجو أن يُكمل أبي حديثه، بعد قليل جاء صوتُه الهادئ: كان النبي صلى الله عليه وسلم قد زوَّجَ ابنتَيه رقية وأم كلثوم لابنَي عمّه أبو لهب وهما عتبة، وعتيبة عندما طلبهما منه. ولكن لم يدم ذلك، فعندما أُنزلَ عليه أمر الله: **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}**[1].
نفَّذَ الأمرَ، وصعد الصفا ونادى: ("يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عدِيٍّ"، حتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ ما هُوَ، فَجَاءَ أبو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقالَ: "أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ علَيْكُم، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ"؟ قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قالَ: "فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" فَقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَومِ، أَلِهذا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**[2]**}**).

---

[1] سورة الشعراء، الآية214
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (4510) عن أبن عباس، كتاب تفسير القرآن، باب **{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ}**سورة الشعراء، الآيتان114، 115

ولعلَّه لم يكتف بذلك، بل حمل حجراً وأراد أن يرمي به النبي، ولذلك جاء التتبيب، وجاء ذكر اليد.
وهذا الكلامُ الواضحُ سوفَ يُسعّرُ عمَّه وكذلك زوجة عمّه، وبعضَ الأقرباء، إضافةً إلى هذا كلّه، سيُسعّر صهرَيه ابنَي أبي لَهَب، فهو لم يكنْ عمَّه فحسب، وابناه لم يكونا ابنَي عمِّه فحسب، بل زوجَي ابنتَيه أيضاً.
وهكذا فإنَّ أبا لهب له خصوصيّةُ القرابةِ أكثر من جميع أعمامِه، وأبناؤُه لهم خصوصيّةٌ أكثر من جميعِ أبناء أعمامِه، وزوجتُه لها خصوصيّة أكثرُ من زوجاتِ جميعِ أعمامه.
والسورة توعُديَّة قويّة ومباشَرَة، من كلمتِها الأولى بحق عمِّه، وإلى الكلمةِ الأخيرة، بحقِّ زوجته، وهي أروى بنت حرب بن أمية، وتُعرفُ بأم جميل. وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد تزوَّجت بأبي لهب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأنجبتْ ستةَ أبناءٍ هم: عتبة، وعتيبة، ومعتب، والدرة، والعزى، وخالدة. وهذا بذاتِه تحذيرٌ إلهيٌّ بأن بعض الناس الذين يتمادون على الطيّبين والأنقياء في كل زمانٍ ومكان، فإن اللهَ يغضبُ عليهم ويُصدرُ حكمَه المُباشَر عليهم في الدنيا وفي الآخرة.

قلت: يا أبي ما ذا حصل والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قد وُضِعَ في هذا الموقفِ؟
قال: بلَّغ الآيةَ بحذافيرها دون أيَّة اعتبارات دنيويّة، وعند ذاك أصبح لها دويُّها الخاص بالنسبة لعمِّه وزوجة عمّه، وصهرَيه عتبة زوج رقية، وعتيبة زوج أم كلثوم؛ حيث أدّى ذلك أولَ ما أدّى إلى طلاقِهما، وجاءت زوجة عمّه إليه وحاولتْ قتله، ولكنَّ اللهَ أنجاه، فعندما سمعت: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا**

كَسَبَ* سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}[1].

خرجَت مِن بيتِها وراحَت تبحث عنه وفي نفسِها قرار الانتقام وقد حمَلَت بيدِها حِجارة: (فلمّا وقفت عليهما، أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ترى إلّا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة. ثم قالت:

مُذَمَّما عصينا.. وأمره أبينا.. ودينه قَلَيْنا.

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟

فقال: "ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني")[2].

وكانت لا تقلَ عن زوجها عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريقه وعلى بابه ليلاً، وكانَت سليطة اللسان، وتفتري على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتسبّب ذلك بطلاق ابنتَيه، حيث قال أبو لهب لابنَيه عتيبة وعتبة: (رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد. وسأل النبي صلى الله عليه وسلم عتبة طلاق رقية، وسألته رقية ذلك، فقالت له أمه: طلقها يا بني فإنها قد صبأت، فطلقها، وطلق عتيبةُ أمَّ كلثوم، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث فارق أم كلثوم وقال: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم سطا عليه، فشق قميص النبي صلى الله عليه وسلم)[3].

كل هذا وما يزال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوَّته وهو ينشر الدعوة بعزيمةٍ رغم كل ما يتعرَّض له مِن الأذى، وهم يستمرّون في ترصُّده والتضييق عليه ما أمكنَهم ذلك.

---

[1] سورة المسد، الآيات 1- 5

[2] الرحيق المختوم

[3] رواه الطبراني في المعجم الكبير رقم (17685) عن قتادة بن دعامة، ما انتهى إلينا من مسند النساء اللاتي روين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذات يوم خرج إلى الكعبة للصلاة، وعندما باشر في صلاته، قال أبو جهل: مَن يقوم إلى هذا الرجل، فيفسد عليه صلاته؟
ونهض ابن الزبعري، وتناول فرثاً ودماً، وتقدّم إليه، ولطّخ به وجهه. عندئذ فتل النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته، ثم أتى إلى أبي طالب شاكياً: "يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي"
قال أبو طالب وقد بدا الاستياء عليه: مَن فعل بك هذا؟
أجاب: "عبد الله بن الزبعري"
فحمل أبو طالب سيفه، واتّجه مع ابن أخيه على الفور إلى القوم، وعندما تفاجؤوا به متقدّماً إليهم، أخذوا ينهضون، فانبعثت نبرات صوته تسبقه إليهم: والله لئن قام رجل، جللته بسيفي.
عندئذ لبثوا في جلوسهم حتى وصلا إليهم، فقال على الفور: يا بُني مَن الفاعل بك هذا؟
قال: "عبد الله بن الزبعري"
فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً، وراح يلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، ويوبخهم بالقول.
وعادَ النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن ردّ عليهم عمّه بما ردّ، وأتاه جبريل عليه السلام بالآية الكريمة: **{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون[1]}** .
بعد أن تلقى الآية الكريمة، ذهبَ إلى عمّه قائلاً له: "يا عم نزلت فيك آية".
قال: وما هي؟
قال: "تمنع قريشاً أن يؤذيني وتأبى أن تؤمن بي".
فطمأنه باستمرار مؤازَرَته له، وأنَّه لن يتخلى عنه تحت أي ظرف.
فبات يصبر على ما يتلقى من الأذى، ويستمر في نشر الدعوة، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ: "قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، قَالَ: لَوْلَا

[1] سورة الأنعام، الآية26

أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** [2])[1] .

يقول أبو طالب:

وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأَنَّهُ
مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا
لَولا المَلامَةُ أَو حِذاري سُبَّةً
لَوَجَدتَني سَمحاً بِذاكَ مُبينا.

وفي ذلك يرى النبي صلى الله عليه وسلم، ذات يوم في عام الفتح عبد الله بن الزبعري، الذي أساء إليه وهو في صلاته، يُقَدّم إليه اعتذاره، فيقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه الاعتذار، ويدخل الإسلام، وممّا قاله في اعتذاره شعراً وكان يكتب الشعر:

إِنّي لمُعتَذِرٌ إِلَيكَ مِن الَّذي أَسدَيتُ إِذ أَنا في الضَلالِ أَهيمُ
فَاليَومَ آمَنَ بِالنَبيِّ مُحَمَدٍ قَلبي وَمُخطِئُ هَذِهِ مَحرومُ
مَضَتِ العَداوَةُ وَاِنقَضَت أَسبابُها وَدَعَت أَواصِرُ بَينَنا وَحُلومُ
فَاِغفِر فِدَىً لَكَ وَالِداي كِلاهُما زَلَلي فَإِنَّكَ راحِمٌ مَرحومُ
وَلَقَد شَهِدتُ بِأَنَّ دينَكَ صادِقٌ حَقٌّ وَأَنكَ في العِبادِ جَسيمُ
وَاللَهُ يَشهَدُ أَنَّ أَحمدَ مُصطَفى مُستَقبِلٌ في الصالِحينَ كَريمُ

تمضي السنوات بالدعوة المستمرَّة يوماً بعد يوم وساعةً بعد ساعة، ويدخل الناس رجالاً ونساء في الإسلام، ويلبث عمّه أبو طالب

[1] سورة القصص، الآية56
[2] رواه مسلم في صحيحه رقم(66) عن أبي هريرة، كِتاب الإِيمَان، بَاب أَوَّلُ الْإِيمَانِ قَوْلُ لا إِلَه إِلَّا اللَّه

يؤازِره ويُدافع عنه، ويأتيه رؤوس الشرك كي يثنوه عن موقفه: (يا أبا طالب خذ شاباً مِن أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً). يقول: (ما أنصفتموني، أدفع إليكم ولدي لتقتلوه، وأربّي ولدكم).
ولم يتركوه، فأرسلوا إليه بعض أشراف قريش كي يؤثِّروا عليه حتى يتخلَّى عن حمايته لمحمد صلى الله عليه وسلم. فقالوا: (إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه).

وبالمقابِل ما يلبث عمّه أبو لهب يُندّد به، فعند وفاة ابنه الثاني عبد الله، فَرِحَ أبو لهب بذلك وراح يقول بأنَّ محمداً أصبح أبتر.
وجاء الردُّ مِن الله سبحانه وتعالى في سورةٍ هي الأقصر في القرآن، تتألَّف فقط مِن ثلاث آيات، ولكنَّها مِن أكثر آيات القرآن اختزالاً واغتناءً بِسعة المعاني: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}**.
هذه السورة يا بُني كلَّما قرأتها مرة جديدة، اكتشفتُ فيها مدلولات جديدة، وأقف أتأمَّلها، وتتَّسع معانيها مع لحظات التأمّل والتدبّر.

رفع الله فيها مِن منزلة رسوله الصابِر، وجعل كلامَ خصومه مردوداً عليهم، وتبقى هذه السورة قاعِدة لكل مَن يُريد أن ينال بكلامِه مِن أهل الطِيبِ والاستقامة، فإنَّ الله يرفع مِن شأنِهم، ويجعل كل ما يقوله خصومُهم مَردوداً عليهم.

ويشتدّ العداء عليه في ذروة الجهر بالدعوة، وتُحاك المؤامرات ضدَّه مِن الذين يرفضون الإيمان به، ومِن أبرزهم:
عمُه أبو لهب، وأبو جهل (عمرو بن هشام)، وأخوه العاص بن هشام، وعقبة بن معيط، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف.

(كان أبو جهل إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنضعفن رأيك ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به)[1].
وذات مرة حاول عقبة بن معيط أن يخنق رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يقول عروة بن الزبير: (قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: **{أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**[2]**}**[3]) .

وعندما أسلم حمزة بن عبد المطلب، ثارت قُريش، وذهب أبو جهل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، وصار يؤذيه ولم يردّ عليه رسول الله.
وضَرَبه أبو جهل بحجرٍ على رأسه وشجَّه حتى صار الدَم ينزف من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما علم حمزة بذلك، حمل سيفه وراح يبحث عن أبي جهل حتى رآه، فقال له: (يا مُصَفِّرَ اسْتَه، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟! ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم - حي أبي جهل - وثار بنو هاشم

---

[1] السيرة النبوية- ابن هشام (395/1) .
[2] سورة غافر، الآية 28
[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (4555) عن عروة بن الزبير، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}**سورة الزمر، الآية68

ـ حي حمزة ـ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا).
ثم أرادوا أن يأتوا إليه ببعض المُغرَيات، فأرسلوا عتبة بن ربيعة الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: (يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.
قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قل يا أبا الوليد، أسمع"،
قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.
قال: "أقد فرغت يا أبا الوليد"؟
قال: نعم،
قال: "فاسمع مني"،
قال: أفعل،
فقال: "**{حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}**"[1]. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه،

[1] سورة فصلت، الآيات 1- 5

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك")[1].
وكانوا يكيلون له الاتّهامات بالسحر والجنون، ويُضيّقون على الذين يؤمِنون به، ويُلحقون بِهم أقسى ألوان التنكيل والتعذيب. ويستمرّ نزول الآيات، ويستمرّ في نشر الدعوة بالكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة.

أذكر هُنا يا بُنَي كلاماً للمؤرّخ الأمريكي جيمس متشنر قال فيه: (إن محمداً هذا الرجل الملهم الذي أقام الإسلام، ولد في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله، فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو الى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية، وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره أو قديساً، ولكنه أصر على أنه ليس إلّا عبداً من عباد الله أرسله الى العالم منذراً وبشيراً).
يا بُنَي إن أي شخصٍ مُنصفٍ في العالم عندما يتعرَّف على النبي صلى الله عليه وسلم في مواقِفه، في كل ما تعرَّض له، وكل ما استطاع أن يُقدّمه مِن قِيمٍ إنسانيَّةٍ، لا يملك سوى أن يجعله أسوة حسنة له.

[1] السيرة النبوية، ابن هشام ص 293، 294

سنواتُ الحِصار

قال أبي: نحنُ الآن في حديثنا أصبحنا في السنة السابِعة للبعثة، وخِلال هذه السنوات لم يصمد المسلمون سوى بالإيمان، وقد لاقوا أنواع الأذى دون أن يَتراجَعوا عَن إيمانهم، وعندما رآهم المُشرِكون بهذه العَزيمة كانت الضربة الأكثر قسوةً عندما أعلنوا الحِصار مِن كل نواحي الحَياة عليهم وعلى آل المطلب وهاشم بسبب مؤازرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يبيعون شيئاً لهم، ولا يشترون مِنهم شيئاً، ولا يتزوَّجون منهم. وقَد حاصروهم جميعاً في موقعٍ في جِبال مَكَّة كان يُعرَف بـ (شعب أبي طالب). فتركوا بيوتهم ومصالحهم ولبثوا هُناك تحتَ الحِصار.
وكان الشرط الوحيد مِن أجل فك الحصار عليهم وعودتهم إلى حياتِهم الطبيعيَّة، هو تسليم النبي صلى الله عليه وسلم لهم كي يقتلوه، وكتبوا بنود هذا الحِصار على صحيفةٍ، ووقَّع عليها أربعون رجلاً من زعماء قريش، وعلَّقوها على الكَعبة.

يقول سعد بن أبي وقاص بأنَّه ذات يومٍ من أيام الحِصار رأى: (قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء فتقويت بها ثلاث ليال). وكان حِصاراً عامّاً شمل الجميع بكبارِهم وصغارهم، برجالِهم ونسائهم دونَ أيِّ اعتبار، وكانَت خديجة رضي الله عنها مِن ضمن المُحاصَرين مع بناتِها: زينب، ورقيَّة، وأم كلثوم، وفاطِمة، إضافةً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأحياناً كان بعض المُشركين يوصِلون بعض الطعام والاحتياجات خِلسةً في أوقات الليل لأقربائِهم من المسلمين في موقع الحِصار للتخفيف عَنهم. فكانوا يُوزِّعون ذلك فيما بينهم، وكان حكيم بن حزام يأتي ببعض الاحتياجات إلى عمَّته خديجة.

واستمرَّ هذا الحِصار ثلاث سنوات متواصِلة وهم يُعانون القَحط بين الجِبال بعيداً عن بيوتِهم وأعمالِهم.
وصاروا يأكلون أوراق الشجر، وكل شيءٍ رطب يقعون عليه، وكانت صرخات الأطفال تتعالى مِن شِدَّة الجوع، وكانَ يَموت من المُحاصَرين مَن يموت من الجوع، والمرض دون أن ترأف بِهم قُرَيش.
وبعد ثلاث سنواتٍ، انقسمت قُريش بين فك الحِصار وبين البقاء عليه بعد تكاثر أعداد الضحايا وصرخات الأطفال والنساء والمرضى، وإصرار هؤلاء على الدِّين، بل وانضمام المزيد إليهم رغم هذا الحِصار الشَديد.
وعندها أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن الصحيفة التي علَّقوها على الكعبة، لم تَعد موجودة، فذهب المُشرِكون ليروا بأن الوثيقة قد أكلتها حشرة بيضاء اللون قريبة من حجم النملة، وتُسمَّى الأرَضْة، ولم تترك منها شيئاً سوى: (باسمك اللهم). وعند ذاك فَكّوا عَنهم الحِصار، وعاد المُحاصَرون إلى بيوتِهم.

كان حديث أبي يُبهرني وهو يتحدَّث عَن الشدائِد التي كان النبي يواجِهها ويتعامل معها بحكمةٍ مِن خِلال قوَّة الإيمان. وأدركتُ بأن لا شيء يُحصّنني من اليأس والاكتئاب أكثر مِن الإيمان.
لا شيء يجعلني مُحافِظاً على معنوياتي المُرتفعة، ومُتجنِّباً لحظات الانهيار حتى في أحلك الظروف، غير الإيمان.
كان النبي صلى الله عليه وسلم، يواجِه كل تقلّبات الحياة من خِلال الإيمان، وكان الصحابة يقتدون به، ولذلك واجهوا كل ما كان يُحاك ضدَّهم، وكل الصعوبات وهم بمعنويَّاتٍ مُرتفعةٍ، ولذلك كان النبي يُعزّز الإيمان لديهم.

وبلغتُ قناعة وأنا أصغي إلى أبي بأنَّني لا يمكن أن أنهار أو أستسلم تحت أي ظرف يمكن له أن يواجِهني إلّا إذا تعرَّض إيماني للضعف، أو إذا خرجتُ عَن الإيمان.
تعلَّمتُ كيف أرتقي في درجات الإيمان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو سبيلي إلى هذا الارتقاء، فعليَّ أن أواظِب على سيرتِه العَطرة، هذه السيرة التي لا تنتهي مكتشفاتها، وتبقى مُتجدِّدة لأبناء كل زمانٍ ومكان.
فلا حدود للإيمان، ويبقى الارتقاء في درجاتِه مفتوحاً، وكما أنَّه يبقى قابِلاً للزيادة، كذلك هو قابلٌ للنقصان.
قال أبي: يُعزّز رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان في قلبك، ويبيّن لكَ بأنَّكَ لا يمكن أن تكون سوياً وتُمارس سلوكاً طبيعياً إلّا من خلال الإيمان.
قال في ذلك يا بُنَي: "ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا"[1].
الإيمان يعني السَّكينة النفسيَّة التي يحتاجها كل إنسان وفي كل مراحل حياته، والإيمان يا بُني يُهذِب لك حياتك، وبدونه تشعر بأنَّكَ في شَتات.
قال النبي:" ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[2].
الحياة جادَّة يا بُني، ولا استهتار فيها، والإنسان يمكن له أن يبني نفسه، وكذلك يمكن له أن يُحطِّمها.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (78)عن العباس بن عبد المطلب، كِتاب الْإِيمَان، بَابُ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا

[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (16)عن أنس بن مالك، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان

قال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"[1].
الإيمانُ يا بُني في حقيقته يجعل الإنسان مُحِبّاً، ويجعله يتخلَّص من نزعات الدونيَّة والغل.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"[2].
في بعض مراحل الدعوة كان يصل الأمر بقريش أن يعتبروا ليونة النبي صلى الله عليه وسلم ضعفاً، وكان إذا قعد في المسجد وجلس إليه المستضعَفون من أصحابه أمثال: خبات، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصهيب، هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض بلهجة الاستكبار: (هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبَقَنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا).
ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يُفرِّق بين غنيٍّ وفقير، ويُبيّن بأن قيمة الإنسان تكمن في عمله وقيمه وأخلاقه.
ثم نهض وراح صَوبَ النافِذة، فتحها وقال وهو ينظر إلى الخارج: هُناك أناس تقدَّموا في العمر وما استقر الإيمان في قلوبِهم لأنهم ما سعوا نحو التعرف على ربهم واليقين به.
قالَت أمّي: مِن أجمل ما قرأت لجلال الدِّين الرومي قوله: (سألتُ الوردة: حدّثيني عَن الله، ففاحَت عِطراً).
قال أبي: ذِكرُ الله كلَه عطرٌ في عطر، وكم هو محظوظٌ ذاك الذي يمضي عمره في عطر ذكر الله.

---

[1] أخرجه الترمذي في الجامع رقم (2484)عن أبي هريرة، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع
[2] أخرجه الترمذي في الجامع رقم (2547)عن الزهير بن العوام، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع

ثم استدار وصار ينظر إلي ويقول: الإيمان ينمو في تربة نفسك يا بُني بذكر الله في كل أمر يُقدرك الله عليه، حتى وأنتَ تقرأ كلمة، أو تكتبها، حتى بخطوة تخطوها، أو بنظرة تنظرها، أو بصوت تستمع إليه.

عندما تقف على قَدَميك تَذْكر أن الله هو الذي بث فيك قوة الوقوف، عندما تكسب رزقاً تَذْكر أن الله هو الذي وسَّع عليك، تَذْكره في قيامك وقعودك، تَذْكره عند نَومك وعند استيقاظك، فيطمئن قلبُك بسَكينة الإيمان، ويُعاتِبكَ في هنيهةٍ لا تكون فيها مسكوناً بِذِكر الله.

قال عليه الصلاة والسلام: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1].

والإيمان هو تفاعلٌ في المُجتَمَع، ذات يوم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه:

(مَن أصْبَحَ مِنْكُمُ اليومَ صائِمًا؟

قالَ أبو بَكْرٍ: أنا،

قالَ: فمَن تَبِعَ مِنْكُمُ اليومَ جِنازَةً؟

قالَ أبو بَكْرٍ: أنا،

قالَ: فمَن أطْعَمَ مِنكُمُ اليومَ مِسْكِينًا؟

قالَ أبو بَكْرٍ: أنا،

قالَ: فمَن عادَ مِنْكُمُ اليومَ مَرِيضًا؟

قالَ أبو بَكْرٍ: أنا،

فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ:

ما اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ)[2].

---

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (5452) عن صُهيب، كِتَاب الزُّهد وَالرَّقَائِق، بَاب الْمُؤمِن أَمرُه كُلُّهُ خَير

[2] رواه مسلم في صحيحه رقم (4526) عن أبي هريرة، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لقد نما هذا الإيمان حتى بلغ به درجة عالية نتيجة وجوده بين الناس وتقديم الخير إليهم. تقول الصحابية درة بنت أبي لهب: (قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ")[1].

وجاء عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ"

قيلَ: أرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَجِدْ؟

قالَ: "يَعْتَمِلُ بيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ ويَتَصَدَّقُ"

قالَ، قيلَ: أرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟

قالَ: "يُعِينُ ذا الحاجَةِ المَلْهُوفَ"

قالَ: قيلَ له: أرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟

قالَ: "يَأْمُرُ بالمَعروفِ أوِ الخَيْرِ"

قالَ: أرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ؟

قالَ: "يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فإنَّها صَدَقَةٌ"[2].

كم من مواقف يا بُنَي نعيشها، وكم من أنباء نعلمها تزيدنا قرباً من نور الله إذا نظرنا إليها نظرات إيمانية. يُعلِمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأن النظرات الإيمانيَّة هي النظرات الأكثر إشراقاً في حياة الإنسان.

---

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (26819) عن درة بنت أبي لهب، من مسند القبائل، حَدِيث أَبِي عَمرة الأنصاري

[2] رواه مسلم في صحيحه رقم (1750) عن سعيد بن أبي بُردة، عن أبيه، عن جده، كِتَاب الزَّكَاة، بَاب بَيَان أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَة يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوعٍ مِنَ الْمَعْرُوف

فراق خديجة
رضي الله عَنها

كنتُ جالِساً مع أمّي في البَيت ننتظر أن يأتي أبي الذي اتَّصلَ بِنا وقال بأنَّه سوف يتأخَّر بعض الوقت، وبدا لي بأنَّ أمّي لا تقل شَغَفاً مني لمُتابعة حديث أبي عن سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. وصارحَتني بأنّ حديثه يؤثّر فيها وتتفاعَل معه أكثر مِن الكُتب التي تقرؤها.

عندما جاء أبي، كانَت أمّي قد أعدَّت العشاء، وبعد أن تناوَلنا الطَعام، جلس أبي في موضعه يرتشف الشاي الذي اعتادَ عليه بعد العَشاء، فقالَت له أمّي: نعم يا أبا محمد، ننتظر حديثك الطيّب الذي عودتنا عليه.

قال: صدّقيني يا أم محمد أنا أيضاً اعتدتُ عليه. ثم تنهَّدَ وقال: هكذا هي الحياة، تتقلَّب بالإنسان، وعلى الإنسان أن يستوعب كلَّ تقلّبٍ، وكلَّ تحوَّل، وكل مُنعطَف في حياته. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش هذه التحوّلات الكُبرى في حياتِه وهو يزداد إصراراً على الاستمرار في نشر رسالة توعية المُجتَمَع، وتنقيته، وتقدّمه، وتحرّره.

هكذا، أحياناً تأتي الشدائِد مُتوالية كما لو أنَّها لن تنتهي، فمن شِدَّةٍ إلى شِدَّة، ونظير ذلك تأتي الانفراجات أحياناً مُتوالية كما لو أنَّها لن تنتهي، فمن انفراج إلى انفراج، ويُعلِّمنا الرسول أن نأخذ الشدائِد بحكمة ونصبر، كما نأخذ الانفراجات بحكمة ولا نبطر.

بعد خمس وعشرين سنة مِن دفء الحياة العائليَّة، والاستقرار العائلي مع خديجة رضي الله عنها، والاعتياد عَليها، وترتيب حياته بِرفقَتِها، والعَمَل مَعاً في نشر الدَّعوة، وتحمّل المشاق والأذى معاً. وبعد المِحنة الأخيرة في الحِصار الذي أمضت فيه ثلاث سنوات،

عادَت خديجة إلى بيتِها مُنهَكة ومريضة ولم تهنأ طويلاً بالعودة، فبعد أشهرٍ قليلةٍ، بغتةً أغمضت عَينَيها، وفارَقته إلى الرفيق الأعلى.
وكان النبي عليه الصلاة والسلام ما يزال في عزاء عمّه أبي طالب الذي عاد هو الآخَر مُنهَكاً مِن الحِصار ومات قبل أيامٍ من موت خديجة رضي الله عنها.

فخسر النبي صلى الله عليه وسلم اثنَين مِن أعمدة مُسانديه ومؤازريه، وسمّى ذاك العام بعام الحزن.
هكذا فرغ عليه البيت، غاب عنه صوتُ خديجة إلى الأبد، ولم يكن الأمرُ سَهلاً عليه، فكانَت تملأ كل حياته، وتؤازِره بكل إمكاناتها المادّية والمَعنويَّة، وقَد اعتاد أن يراها في البيت كلّما دخل إليه، وكلَّما خَرَج مِنه، وكل نظرة مِن نظرات البنات، تُذكِّره بِها، كل ركن مِن أركان البَيت، يُذَكِره بلمساتِها عليه.

خديجة التي تَرَكَت كل شيءٍ مِن أجل حياتِها الجديدة، مِن أجل التفرّغ لبيتِها وعبادتها وتربية أبنائها، تَركَت انشغالها بالأموال، وإيلاف قريش، و تجارة رحلة الشتاء والصيف، وبقيت صامِدة دون أن تتخلَّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى في أكثر الظروف قسوةً، فتركت البيت والتقلّب في رَغَد العَيش، وكثرة الأموال، تركَت قبيلتها الأسديَّة ذات النفوذ والهيبة، وراحت تعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حالةَ الحِصار يوماً بيوم وسنةً بسنة، وهي تزداد عزيمةً وصبراً على التحمّل، تزداد إيماناً وثقةً بالدَعوة.

هكذا فجأةً رأى نفسه دون رفيقة العُمر التي كانت تملأ حياته، المرأة التي شاركته أعباء نشر الدعوة يوماً بيوم، وساعةً بِساعة،

التي آزرته وخفّفَت عنه، و أرسل لها الله سبحانه وتعالى سلامه وبشارة بالجنة مع جبريل.
قال أبو هريرة: (أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ)[1].
هُنا رأيتُ الدموع تُذرَفُ مِن عينَي أمّي، وهي تنصت. أردف أبي يقول:
عاد محمد صلى الله عليه وسلم بِلا رفيقة حياة مرة أخرى، وكأنَّ الرجل مهما اتَّسعَت مشاغِله، ومهما كثرت علاقاته الاجتماعيَّة، ومهما تفوَّقَ في عَملِه ونشاطِه، فإنَّه يشعرُ بِفراغٍ دون أن تكون امرأةٌ إلى جانِبه في مسيرة الحياة، امرأة رفيقة، امرأة أليفة، امرأة مُحِبَّة، امرأة مُضحّية، امرأة ينظر إليها، فتسرّه، وتجعله ينسى عناءَ عمل نهارٍ بأكمله.
ولكن سيبقى يَذكرها، يبقى يُردِّد اسمها وكأنها حية لم تمت.
حتى إنَّ عائشة رضي الله عنها التي لها موقع خاص في قلبه تقول: (مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: "إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ")[2].
قالَت أمّي: قرأتُ حديثاً عن عائِشة تقول فيه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها عن خديجة: "إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا"[3].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (3820) عن أبي هريرة، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (3642) عن عائِشة، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها
[3] رواه مسلم في صحيحه رقم (4591) عن عائِشة، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنهم، بَابُ فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عنهَا

قال أبي: نعم يا سارة لأن حب المرأة هو رزقٌ مِن الله تعالى للرَّجل، وعليه أن يُحافِظ على هذا الحب، ويصونه، فليست كل امرأة مُحِبَّة لِزَوجِها، وأحياناً تتحوَّل الظروف وتنكشف هذه الحقائِق، كما نرى في واقِعنا نتيجة هذه التحوّلات الاجتماعيَّة التي تحصل، فتتخلّى عَن زوجِها بِمُجرَّد حصولها على استقلاليَّة مادّيَّة، أو عندما يمرّ الرجل بضائِقةٍ ما، أو ربما بوضعٍ صحيٍّ ما، أو حتى يقع في خطيئةٍ، فتتركه المرأة وترى بأنَّها تَمَكّنَت مِنه، وأحياناً تُسعِّر عليه الناس، وتحاول أن تُشهِّر بِه وتُسيء إليه في محاولةٍ مِنها لتبرير تَركها له، وانقلابِها عليه وهو في أوجِ مِحنَته، فتكشف عن حجم غلّها نحوه، هذا الغل الذي كانت تكتمه لأن الظروف لم تكن تسمح لها بإخراجِه. فلا نكاد نُصدِّق بأنَّ هذه المرأة كانَت خلال كل هذه السنوات زوجةً لهذا الرجل، وبينهما أبناء.

وبالمُقابل أثبتت المرأة التي أحبَّت بصدق، عَن صِدق حبِّها، ولم تتغيَّر في مُختَلَف الظروف، ومهما رأت مِن المُغريات، فوقفَت إلى جانب زوجها في سرَّائه وضَرَّائه، في عافيته وفي مرضه، في غِناه وفي فقره، في موطنه وفي هجرتِه، في صوابه وفي عثراتِه.

وإن حصل شرخٌ في علاقتها الزوجيَّة، انسَحَبَت بصمتٍ ريثما تهدأ الأمور، أو فارَقَت وهي مُحافِظة على حبِّها وذكريات العشرة الزوجية، دون أن تسيء إلى زوجِها، أو تسمح لأحدٍ أن يسيء إليه أمامها.

المرأة التي تُحب، لا يُمكن لها أن تبغض، وإن بَغَضَت، فإنَّها لم تكن تُحب، بل إن الله أكرم الرجل الطيّب وجَعَلَ سبباً حتى تكشف له عَن حقيقتِها، لأنَّه رجلٌ طيّبٌ ويتَّقي الله، وليس فقط مع المرأة، بل مع مُختلف علاقاتِه سواء القريبة، أو البعيدة.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا

أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ: "مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ")[1].

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (24320) عن عائِشة، حديث السيدة عائِشة رضي الله عنها

سودة بنت زمعة
رضي الله عنها

بعدَ يومَين تفاجأنا بأمّي تطلب مِن أبي أن يُحضِرَ إمام المَسجد إلى البَيت، وكانَ ذلك صباح يوم الجمعة، وأبي في عطلته الأسبوعيَّة.
ذهبتُ معه لسماع خُطبة الجُمعة وأداء الصَلاة، وعندما انتَهينا، راحَ أبي إلى الإمام الذي هو على معرفةٍ وطيدةٍ به، ورأيته عدَّة مرّات في المكتبة، وطلبَ مِنه أن يأتي لزيارتنا في البَيت. فقال: خير يا أستاذ عمران؟
قال أبي: هُناك ستعرف يا فضيلة الإمام.
فقال: أنتَ تأمر يا أستاذ عمران، سوف أجيء بعد صلاة العصر إن شاءَ الله.
قال أبي: توكَّلنا على الله. ثم أعطاه عنوان البيت.
عندما عُدنا كانَت أمّي مُنشَغِلة في المطبخ بإحضار وجبة الغداء، وهي عادةً تكون وجبة مميَّزة، بكونها وجبة غداء يوم الجمعة، ويكون أبي معنا على المائِدة.
ويوم الجمعة بكل الأحوال هو يومٌ مُختَلِفٌ بالنسبة لنا، فبالإضافة إلى الوجبة المُميَّزة، أحياناً يأخذنا أبي ونتعشَّى في أحد المطاعم، ونمضي المساء كلّه خارج البيت، ونحن نتجوَّل بين الحدائِق، والأماكِن الخلّابة.
بعد تناول الغداء، ذهبتُ إلى غُرفتي لأخذ القيلولة، ولكنَّني لم أنم وأنا أشرد بِما دفع أمّي كي تدعو الإمام إلى بيتِنا.
و بعد نحو ساعتَين مِن صلاة العصر وكُنّا جالِسين نحتسي الشاي وننتظر الإمام، وكانَت أمّي صامِتة وبين لحظةٍ وأُخرى ترمق أبي الذي كان يحتسي الشاي بصمتٍ ويبدو في حالة انتِظار؛ تناهت

نغمة الباب الخافِتة، فنهض أبي متَّجهاً إلى الباب، وسارعَت أمّي في رفع الكاسات وأخذها إلى المَطبخ.
عادَ أبي وهو يُرحِّب بالإمام الذي ما إن رآني حتى مدَّ كفَّه إليَّ قائِلاً: كيفك يا محمد.
استجبتُ له وقلت: بِخَير ولله الحمد والشكر.
قال: إن شاء الله تكون دوما بِخَير.
وبعد جلوسِه بدقائِق، تفاجأتُ بخروج أمّي من المطبخ مرتدية الحِجاب، وهي المرَّة الأولى التي رأيتُ فيها أمَي بالحِجاب وقد بلغتُ الثامِنة عشر مِن عُمري، وكذلكَ رأيتُ الدَهشة باديةً على سحنات أبي وهو ينظر إليها.
ألقَت السلام وقدَّمَت لكل واحدٍ منّا كأساً مِن عصير البرتقال مع قطعة كاتو، وبعد جلوسِها بلحظاتٍ قالَت على الفَور: يا فضيلة الشيخ أريد أن أعتنق الإسلام.
لا أخفي كم سَرَّني ما سمعت، ورأيتُ وجه أبي يتفتَّح كوردة يانِعة، وهو يبتسم وينظر إليها، فأردَفَت أمّي تقول: وبعد اليَوم سوف ألتزِم بالتعليمات الإسلاميَّة، وكخطوةٍ أولى، ارتديتُ الحِجاب ولن أنزعه.
فقال لها الإمام: مباركةٌ عليكِ هذه الهِداية يا أمّ محمد، وهذا فضلٌ عظيمٌ مِن الله عليكِ. وصار يقول وهي تُردّد خلفه: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسول الله.
ثم نهض الإمام وهو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ"؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا"[1].
قالت أمّي: إن شاءِ الله لن أدع فريضةً صلاةٍ تفوتني، وسوف أحافِظ عَليها كما أُحافِظ على عينَي.

[1] رواه الترمذي في الجامع رقم (2928) عن أبي هريرة، أبواب الأمثال، باب مثل الصلوات الخمس

قال: يوجد لدينا في المسجد قسم لصلاة النساء، وفي بعض الأيام هُناكَ دروس لتحفيظ وتجويد القرآن حسب البرنامج الذي وضعَته أخواتُنا المُلتَزِمات المُتطوّعات.
في المساء وعندما جلسنا وأبي يتهيَّأ لاستئناف حَديثه، لا أدري لماذا تذكَّرت دموع أمّي عندما تحدَّث أبي عن وفاة خديجة، وفراقها لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خمس وعشرين سنة مِن الحياة معه، وكانَت تستمع وهي تنظر إليه والدموع تنهمر من عينَيها مدراراً.
أحضَرَت أمّي كعادتِها الشاي بعد العشاء، وجلسنا بانتِظار أن يشرعَ أبي في الحديث، وصرتُ أنظر إليه وكلِّي شَوقٌ إلى أجواء حديثه، فقال وقد عدَّل في جلسته: بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخمسين مِن عمره الشريف، وفي خِضمِّ المسؤوليَّات المُتراكِمة عليه، كان لا بدَّ لامرأةٍ أن تكون معينةً له، وتُخفّف عَنه مشقَّة العِنايّة بشؤون البيت، وتَربية البنات، والقِيام ببعض الواجِبات الاجتماعيَّة، وكذلك الاهتمام بِه وباحتياجاتِه، امرأة تُخفف عنه الفراغ الذي تَرَكَته خديجة رضي الله عَنها.
وكانَت الفِكرة أن يتزوَّج مِن امرأة ناضِجة، ولها خبرة في الحياة وتربية الأولاد، وتكون مُتقدِّمة في السِن، وبعض صحابيات الرسول أيضاً أردنَ أن ينتقينَ له امرأة مُناسِبةً تكون جَديرةً بدخول بيت النبوَّة، وحَمل هذا الشرف الرفيع.
وذات يومٍ أقدَمَت الصحابيَّة خولة بنت حكيم، زوجة الصحابي عثمان بن مظعون على ذلك وقالَت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟
فقال: "أجل، كانت أم العيال، وربة البيت".
قالت: أفلا أخطب عليك؟
قال: "بلى فإنكن معشر النساء أرفق بذلك").

فاختارَت له سودة بنت زمعة، وهي امرأة قرشية، وكانَت قد آمَنَت بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومِن السابقين الأوَّلين في الإسلام، وكانَت مُتزوّجة مِن السكران بن عمرو، وهو ابن عمٍّ لها، وأنجَبت منه ابنها عبد الله، وكانَت مع زوجها، وابنها عبد الله، وأخيها مالِك بن زمعة مِن ضمن مجموعة المُهاجِرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية.

قالَت أمّي: لم تُحدِّثنا عَن الهِجرة الأولى إلى الحبشة يا عمران.

في تلك اللحظة انتبَهتُ كم أنَّ أمّي تعلَّقَت بالحَديث،

فقال: كانَت هجرة، ولكن لم تكتمل، لأن بعض المُغرضين استطاعوا أن يدحضوها، وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة، عندما أذنَ النبي صلى الله عليه وسلم لبعض المسلمين الأوائل الذين كانوا يتعرَّضون للأذى الشديد بسبب إيمانهم، بالهِجرة إلى الحبشة، وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي -أرض صدق- حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه". وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وكان مِن ضمنِهم عثمان بن عفان، وزوجته رقيَّة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان ذلك بأمرة عثمان بن مظعون، وبعد وصولِهم إلى أرض الحبشة، نشرَ البعض فيهم خبراً بأن أهل مكَّة أسلموا، وهدأت الأمور، فرجعوا ليروا أن ما قيل لهم لم يكن صحيحاً.

ثم عادوا في هجرةٍ ثانيَّةٍ، وانضمَّت إليهم مجموعة جديدة مِن الذين أسلموا، فتألَّفَت الهجرة الثانية مِن 83 رجلاً و 19 امرأة. وهذه المرة، بأمرة جعفر بن أبي طالب، الذي عُرِفَ بأنَّه أوَّل سفيرٍ في الإسلام، وكان مُتَكلِّماً وفَصيحاً، وبوصول المجموعة، ذهب جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي سفيراً مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال له: (أيها الملك، لقد كنا قوماً أهل الجاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام, ونسيء

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف, فبعث الله إلينا رسولاً منا, نعرف نسبه وصدقه, وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنتعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء والأوثان، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاّ نُظلم عندك أيها الملك).
فقال النجاشي:
(اذهبوا فأنتم في بلادي آمنون).

وفيما بعد روَت أم سَلَمة رضي الله عنها شيئاً عَن هذه الهجرة، وكانَت أيضاً مِن ضمن النساء الـ 19 المُهاجِرات: (لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ". فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ وَإِلَى خَيْرِ جَارٍ، آمَنَّا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا)[1].
وبقيت سودة بنت زمعة رضي الله عنها في الحبشة حتى كانَت العودة إلى مَكَّة، ولم تمكث طويلاً حتى توفي زوجُها وبقيت تعيش أرملة في مَكَّة وتستمر في عبادتها ومؤازرتها الإسلام، وعندما

[1] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (16246) عن أم سَلَمة، كتاب السِّيَر، باب الإذن بالهجرة

ذهبت إليها خولة بنت حكيم، كانَت قد بلغَت السادِسة والستّين مِن عمرِها، وكانَـت امرأة بدينة، فقالَت لها:
(مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ؟
قَالَتْ: مَا ذَاكَ؟
قَالَتْ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطُبُكِ عَلَيْهِ،
قَالَتْ: وَدِدْتُ ادْخُلِي إِلَى أَبِي فَاذْكُرِي ذَاكَ لَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، قَدْ أَدْرَكَتْهُ السِّنُّ، قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحَجِّ ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَحَيَّتْهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ فَقَالَتْ : خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ، قَالَ: فَمَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَرْسَلَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَخْطُبُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ، قَالَ: كُفْءٌ كَرِيمٌ ، مَاذَا تَقُولُ صَاحِبَتُكِ ؟ قَالَتْ : تُحِبُّ ذَاكَ ، قَالَ: ادْعُهَا لِي فَدَعَتْهَا ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّ هَذِهِ تَزْعُمْ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَرْسَلَ يَخْطُبُكِ، وَهُوَ كُفْءٌ كَرِيمٌ، أَتُحِبِّينَ أَنْ أُزَوِّجَكِ بِهِ، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: ادْعِيهِ لِي، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ)[1].

وصارت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها ترعى بناته، وتدير شؤون بيته، وعندما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم مِن البيت، يكون مُطمئنّاً.
وكانت امرأة ناضِجة، وهي سودة بنت زمعة بن قَيْس العَامرية القرشية، وأمها الشموس بنت قَيس بنِ زَيد بنِ عَمرو، مِن بني النّجّار. و أكبر نساء بيت النبوَّة سِنّاً، وكانت امرأة تُعرَف بالكَرَم، والزهد، وكثرة العِبادة.
وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واستقراره فيها، أرسل لمجيء سودة وابنَتَيه فاطمة وأم كلثوم، وأتى معهنَّ مِن مكة إلى المدينة أسامة بن زيد، وهو ابن زيد بن حارثة الذي تبنّاه النبي، وصار يُعرَف بزيد بن محمد حتى جاء إبطال التبنّي في القرآن.

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (25210) عن أبي سلمة، ويحيى، حديث السيدة عائِشة رضي الله عنها

وكان يُعرف أسامة بأنه حب رسول الله، وكذلك (الحب بن الحب).
وأمّ أسامة هي أم أيمن (بركة بنت ثعلب الحبشيَّة) حاضِنة ومربيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت مولاة لأبي النبي صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن عبد المطَّلب، وعندما ولد النبي، كانت أم أيمن في خدمة آمنة بنت وهب، فاحتضنَت النبي، وبقيت معه حتى تزوَّج من خديجة رضي الله عنها، وعند ذاك أعتَقَها.
ولذلك عندما قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بتقسيم أموال بيت المال على المسلمين، أعطى ابنه عبد الله قسمته، وعندما جاء أسامة بن زيد، أعطاه ضعف ما أعطى لابنه عبد الله، وعند ذاك قال لأبيه: (لقد فضلت عليَّ أسامة، وقد شهدتُ مع رسول الله ما لم يشهد).
فقال له عمر: (إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك).
وكان عثمان بن عفان قد هاجرَ مع زوجته رقيَّة، بينما كان أبو العاص مع زوجته زينب ليُهاجِرا فيما بَعد. واستقبلَهم النبي أول الأمر في بيت حارثة بن النعمان، وبعد أن بنى مسجده في المدينة، بنى بجانب المسجد بيوتاً لأهل بيته، وسقَّفَها بجذوع النخل والجريد.
وصفَت السيدة عائشة، السيدة سودة رضي الله عنهما: (ما رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ في مِسْلَاخِهَا مِن سَوْدَةَ بنْتِ زَمْعَةَ، مِنِ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدَّةٌ)[1].
وقالَت عائشة رضوان الله عليها: (أنَّ بَعْضَ أَزْوَاجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قُلْنَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَيُّنَا أَسْرَعُ بكَ لُحُوقًا؟ قالَ: أَطْوَلُكُنَّ يَدًا، فأَخَذُوا قَصَبَةً يَذْرَعُونَهَا، فَكَانَتْ سَوْدَةُ أَطْوَلَهُنَّ يَدًا، فَعَلِمْنَا بَعْدُ أنَّما كَانَتْ طُولَ يَدِهَا الصَّدَقَةُ، وكَانَتْ أَسْرَعَنَا لُحُوقًا به وكَانَتْ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ)[2].

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (2749) عن عائِشة، كِتاب الرَّضَاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (1365) عن عائِشة، كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح

ومِن مواقِفها في الكَرَم: (أن عمر بن الخطاب بعث إليها بغرارة دراهم، فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: في الغرارة مثل التمر يا جارية: بلغيني القنع، ففرقتها كلها على الفقراء).

ردّ الأذى بالتسامح

تفاقَمَت الشدَّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد استقوى عليه خصومُه في مَكَّة، وصاروا يُعذِبون المسلمين بالجَلد والضرب، وإلحاق أقسى ألوان العذاب بِهم، ويمنعون القادمين إلى مكَّة مِن الذهاب إليه أو إلى أحد المؤمنين به، ويقولون لهم تارةً بأنَّه مجنون، وتارةً أنه ساحر، وأنَّه يُعادي الآلِهة.

هكذا يا بُنَي أحياناً يضيق المكان رغم سِعَته بالإنسان، فيرى نفسه مُحاصَراً، وقدّ سُدَّت الأبواب أمامه، وضاقَت الطُرقات بِه، ولم يعد يَجِد مَن يؤازِره في واقعٍ انقلبَ ضدَّه، ونحنُ الآن في شهر شوال من السنة العاشِرة للبِعثَة الكريمة، عشر سنواتٍ متواصِلةٍ مِن الصِراع والتضييق والحِصار والتشهير.

وفي هذه الأيّام العصيبة، وقد ضاقَت بِه مَكَّة، ذهب مشياً على الأقدام إلى الطائف التي تبعد عَن مَكَّة نحو 85 كيلو متراً لعلَّه يَجد مِن يؤمِن بِه ويؤازِره، ولم يصطحب أحداً مِن الصحابة معه سوى زيد بن حارثه، ابنه بالتبَّني الذي اعتاد أن يكون معه. مضى النبي في تلك الطرق الوعِرة وهو يقطع المسافة الطويلة حتى صار الدم ينزّ من قدَمَيه الشريفتَين.

وبوصولِه إلى الطائِف، لجأ وهو منهَك إلى قبيلة ثقيف، وصار يقرأ لهم القرآن، ويدعوهم إلى الإسلام، ويلتمس منهم النصرة، ولكنَّهم استهزؤوا به، وكذَّبوه، وصاروا يرمونه بالحِجارة، وكان زيد يجعل نفسه أمام النبي وهو يقيه مِن الحِجارة، فصارت الحِجارة تصيب زيداً حتى شُجَّ رأسه وهو يحتمل على ألّا تصيب رسول الله.

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه خارِجاً مِن ضيقٍ إلى ضيقٍ.

وانا أستمع إليه، كم شعرتُ بفخرٍ بأنَّني أنتمي إلى هذا النبي الكريم، كم شعرتُ بأنَّ هذا الحديث يُحصِّنَني لمواجَهة عَقبات الحياة، بل

صرتُ أشعر بالحياء مِن النبي إذا سمحتُ لليأس أن يقرَبَني مهما لاقيتُ مِن شدائِد. واكتشفتُ بأنَّني لم أكن بحاجَةٍ إلى شيءٍ بقدر حاجَتي القصوى إلى حديثٍ كهذا. وصرتُ أنظر إلى أبي وأنا أشعر بعظيم فضله علي، وانَّني مهما قدَّمتُ له، لا يمكن لي أن أردَّ ولو جزءاً يسيراً من عالَم أفضالِه علي. الأبُ نعمةً، ونعمة كُبرى عندما يكون أباً عظيماً.

قال أبي: أمضى النبي الكريم عشرةَ أيَّامٍ دون أن يخرج مِن الطائِف، وهو يكُرّر مُحاولاته، ويلجأ مِن بيتٍ إلى بيت، ومن وجيه إلى وجيه في الطائِف، ويحتمل على مضض كل ما يلقى، لأنَّ العَودة إلى مَكَّة لن تكون أفضل حالاً وهو يرى الأهوال تُرتَكَب بحق صحابته دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً. ولكنَّهم في النهاية طردوه بالقوَّة، وقَد سلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحِجارة تلو الحِجارة. وعند ذاك رجع يمشي حزيناً إلى مَكَّة وفي طريق العودة مشياً، وعند وصولِه إلى (قرن الثعالب)، جاءه جبريل عليه السلام، وفي ذلك جاءَ عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها قالَت: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ"، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (3456) عن عائِشة، كتاب الجِهاد والسِيَر، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين

دفء الإسلام

ما أثار استغرابي أنَّني سمعتُ أمّي تقول لأبي وهو يوّدعها صباحاً كي يذهب إلى عمله: يا أبا محمد إذا أردتَ أن تتأخَّرَ اليوم، فلا بأس.
نَظَرَ إليها وهزّ رأسه بالإيجاب، فأردفَت وهو يَخرج: وإن تأخَّرتَ إلى الغد أيضاً لا بأس. التفتَ أبي ينظر إليها نظرة ذات معنى، ثم عادَ وهزَّ رأسه بالإيجاب وخرج وهو يلوَّح لنا بكفِّه.
في تلك اللحظات لا أدري لماذا لم أستطع أن أتمالك نفسي مِن ضحكةٍ دَهَمَتني فجأةً، حتى إنَّ أمّي انتَبَهَت وقالت: لماذا تضحك يا محمد؟
استمرَّ بي الضحك دون أن أتمكَّن مِن السَيطرة عليه، وأنا أخفض صَوتي ما أمكن وأضع كفّي على فمي.
وفجأةً وجدتها هي الأخرى تضحك، فصرنا نضحك معاً، ورأيتها تتَّجه إلى المطبخ، وبعد قليلٍ أتت لي بكأسٍ من الحليب مع حبَّة مَوز في صحنٍ مع شوكة، وقد قشَّرَتها وجَعَلَتها في شرائح.
وجلسَت تحتسي قهوتها بعد أن أخَذَت كتاباً مِن المكتبة وصارَت تقرأ فيه.

بعد نحو نصف ساعةٍ من جلوسي نهضتُ لأنَّ موعد الدوام في المدرسة قد حان، واستأذنتُ أمّي بالذهاب. فقالَت وهي تودّعني: انتبه لنفسك يا محمد، وإيّاكَ ورفقة السوء يا بُنَي، اختر أصدقاءك بعناية. ولا تنس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ:

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[1].
والمثل يقول يا بُنَي: (الصاحب ساحِب).
قلت: لا تقلقي يا أمّي.
قالت وهي تودّعني عند عتبة الباب وتُرتّب شعري بكفَّيها: بِما أن أباك لن يأتي اليوم، ما رأيكَ أن نتغدى دجاج كنتاكي؟
قلت: كما تُريدين يا أمّي. قالَت: إذن سأتَّصل بخالتك ماري حتى تأتي وتتغدّى معنا.
قلت: تمام، وأنا اشتقتُ لها.
قالت: وهي تُحبّك كثيراً.
عندما عدتُ مِن المَدرَسة كانَت خالتي في بيتِنا، فقبَّلَتني، وقبَّلتُ يدها، وبعد قليلٍ اتَّصلَت أمّي بالمطعم وأوصت على الطَعام. فرحتُ أغيّر ثيابي، وأغسل يدَي، وعدتُ أجلس معهما حتى جاءَ عامِلان مِن المَطعم، وصارا يفرشان على الطاولة: دجاجة كنتاكي على شريحتَين، إلى جانب صحن البطاطا المقليَّة، وصحن التبّولة، وبعض أنواع السَلطات، والمخلَّل، والكريم، والخبز، وعبوات الكوكا كولا. وبعد أن فرغا مِن إعداد الطاولة بشكلٍ أنيقٍ، قدَّمَ أحدهما لأمّي كرّاساً صغيراً يحتوي على الفاتورة، فألقت أمّي نظرة إليها ووضعت فيها مبلغاً، ثم أعادتها إليه وهي تشكره.
بعد أن فرغنا مِن تناول الوجبة اللذيذة احتفاءً بوجود خالتي، جلسنا في غرفة الاستقبال، فقالَت أمّي: اعتنقتُ الإسلام يا ماري وأنا مُقتَنِعة به، لقد أنقذني من أكبر كارِثة كانَت تترصَّدني، وكدتُ أن أخسر ابني وزوجي وبيتي، وتَنهار حياتي كلّها، ولكنَّني هدأتُ كثيراً عندما قرأتُ القرآن، قرأت عَن حياة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام. قرأتُ أحاديثه، تعرَّفتُ إليه وأحبَبته، وآمنتُ بنبوَّته،

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (5238) عن أبي موسى، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك

بعظمته، آمنتُ بحكمته، وبقوَّة إنسانيَّته، وقد هذَّبَ لي ذهنيَّتي، ومفهومي للحياة.
بعد أن قرأت القرآن باللغة العربيَّة، وجدتُ فرقاً هائِلاً بين ما قرأته مُتَرجَماً إلى الانجليزيَّة، وبين اللغة التي أُنزِلَ بِها. وعندها استوعبتُ أكثر ما قالَته المستشرقة الألمانية أنا ماريا شميل: (القرآن هو كلمة الله، موحاة بلسان عربي مبين، على النبي الأمين وأن ترجمته لا يمكن إلّا أن تكون تقريبية ضمنية لا تضارع الأصل، إذ لا أحد، مهما بلغ من الحذق والكفاءة، يقدر أن يترجم ذلك الإعجاز الإلهي إلى لغة أخرى)[1].
نَظَرَت خالَتي إليها وهي تصغي باهتمام، فأردَفَت أمّي تقول:
أجل يا ماري أنا مَدينة له بكل هذا التغيير الذي حصل في حياتي، كل تلك المؤلَّفات التي قرأتها ورغم أهميَّتها بالنِسبةِ لي، فإنَّها لم تُعلّمني ما علَّمني إيَّاه القرآن، لم تُعلِّمني ما علَّمتني إيَّاه الأحاديث النبويَّة، وهكذا عندما أقرأ هذه الكُتب التثقيفيَّة مُجدَّداً، فإنَّ قراءتي لها تكون بوعيٍ أكثر، بانفِتاحٍ أكثر على معرفة الإنسان، ومعرفة الحَياة، بل وأستمتع بقراءتها أكثر، وقد لطَّفَ الإسلام لي ذائِقتي الأدبيَّة، وجعلني أرتقي في هذه القراءات على نحو أفضل.
وللصلاة بخشوعٍ سحرها العجيب يا ماري، مهما كنتِ منفعلة، فإن سجادة الصلاة كفيلة بتهدئتك، وتُغنيكِ عَن مُهدِّئات العالَم.
والأمر الآخر، دُعاء الفجر وأنا جرَّبته ورأيتُ نتائِجه، هكذا تشعرين بصلةٍ مع الرب، وحالة سلامٍ وتصالح مع نفسكِ، تعيشين حالة صفاء ذهن حقيقيَّة.
هكذا تُسلِّمين أمركِ لله وتشعرينَ براحةٍ ما بعدها راحة، وسَكينة ما بعدها سَكينة، مهما كنتِ مُضطَّربة ومُشتَّتَة الذهن.

[1] مِن مقدِّمة المُستَشرِّقة الألمانيَّة أنا ماريا شميل لكِتاب (الإسلام كبديل) لمُراد هوفمان

قالَت خالَتي: أنا سعيدة لسعادتكِ يا سارة، وأنا واثقة مِن حكمتكِ ونضوجكِ، ولا أخفيكِ بأن الكتب التي اقتنيناها مِن المكتبة تَرَكت أثرَها علي، وجعلَتني أتعرَّف على رسول الإسلام بشكلٍ أفضل.
قالَت أمّي: الإسلام يا ماري يُطوّر شخصيَّة الإنسان، ويُنمّي فيه مشاعِره الإنسانيَّة وانتماءه الإنساني.

عندما تزوَّجتُ، بقيتُ على ديني وأنا أذهب إلى الكنيسة طوال ثمانية عشر عاماً مِن زواجي وأصطحب ابني معي دون أن يمنعني عمران من ذلك، وكان يقول لي: ليس هو، ولكن الإسلام الحريص على التواصل مع الناس وعدم القَطيعة عنهم، يسمح له بالزواج مني دون أن أغيّر مُعتَقدي.
هذا ما عرفته في الإسلام يا ماري، وهذا ما أعيشه في دفئه.

الفصل الثالث

استعدادات الخروج مِن مَكَّة

أمضَت خالتي ذاك اليوم في بيتِنا، وفي صبيحة اليوم التالي ودَّعتني وهي تُقبّلني، ثم راحَت تُقبّل أمّي وهي تودّعها وتوصيها أن تُبلّغ سلامها إلى أبي،
وجلستُ أراجع دروس اليوم حتى حان موعد ذهابي إلى المدرسة.
وعند العصر تفاجأنا بنغمة الباب، فنَظَرتْ أمّي إليّ وقالَت: أتنتَظر أحداً يا محمد؟
قلتُ: لا.
فزمَّت شفتَيها، ونهضت تنظر مِن (العَين السحريَّة) للباب إلى الخارِج، وما لبثت أن فتحَت، فدخلت نسوة مُحجَّبات وقلن بأنَّهن مِن المسجد، وجئن يُبارِكن لها دخولها الإسلام.
فرحَّبَت أمّي بهن وتبادَلَت معهن القُبلات، جلسنَ وقدَّمن لأمّي هديَّة عِبارَة عَن: مصحفٍ، ومسبحة، وسجَّادة، وثوبَين للصَلاة، وحِجابَين.
ثم نهضن بعد نحو نصف ساعة، فودَّعتهن أمّي وهي تشكرهن على الزيارة اللطيفة.

في المساء عندما عادَ أبي إلى البَيت، أحسَستُ براحةٍ وتهيَّأتُ كي أستمع إلى حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم.
ولم يتأخَّر، فجلس في مكانه، وقال: هل أنتَ جاهز يا محمد لسماع الحديث؟
قلت: بل كنتُ أعدّ الساعات حتى يأتي هذا الوقت يا أبي.

قال: اليوم وصلنا في حديثنا إلى الخطَر الأكبر الذي صار قاب قوسَين أو أدنى مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاقَت عليه مَكَّة بِما رحبَت، وتصاعَد التوتّر بينه وبين الذين حاربوه وضيَّقوا عليه وعلى الذين آمنوا بِه.

بقي النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته السلميَّة مُتجنِّباً مُحاولات الاستدراج التي كانت تُحاك لمواجهةٍ قِتاليَّة بين المسلمين ومشركي مَكَّة، رغم أنَّه كان بإمكانِه أن يُشكِّل جَيشاً لِمواجَهةٍ كهذه، وكان لديه رجال أقوياء يستعدّون للتضحية بأنفسهم في سبيل الدِّين الذي آمَنوا به وذلك خلال نحو ثلاث عشرة سَنة مِن الدعوة على أرض مَكَّة وما حَولها.

وفي ذروة التصعيد، صار يشعر بضرورة الابتعاد عَن المَكان، وتَركِ مَكَّة حبّاً بِها وبأهلِها، وحقناً للدِّماء التي ستسيل فيما لو بقي، كما أنَّه صلى الله عليه وسلم، رأى في المنام أنَّه يُهاجر.

يقول صلى الله عليه وسلم: "رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرٌ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا، وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَإِذَا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِذَا الخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ مِنَ الخَيْرِ، وَثَوَابِ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ"[1].

صمتَ أبي قليلاً، ثم عدَّلَ جلسته وقال: بدأ نزول القرآن يابني في مكَّة المُكرَّمة، وهي بقعة تتمتع بمزايا تؤهلها لاستقبال الآيات الأولى من القرآن، هذه المزايا التي أهَّلَتها لتكون قبلة الدنيا.

الأرض على رحابتها يا محمد هي مسكن ومأوى الإنسان، وكما أن لكل إنسان خصوصيته، ولكل حقبة تاريخية خصوصيتها، فإن لكل بقعة جغرافية خصوصيتها التي تميّزها عن سائر بقاع الأرض، ويُمكن أن تؤدّي دوراً في صِلة الرحم البشري لم تؤده بقعة غيرُها.

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (6664) عن أبي موسى، كتاب التعبير، باب إذا رأى بقرا تنحر

قلت: نعم يا أبي.
أردف يقول وأنا أصغي إليه بإنصاتٍ: الناس من مختلف أصقاع الأرض تجذبهم دوماً الأماكن الجغرافية بالدرجة الأولى، ولذلك فإن أكثر الأماكن زيارة، هي تلك الأماكن التي تتمتع بأكبر مساحة جغرافية من الآثار، والأوابد، والمساحات السياحية، وتلك الأماكن التي شهدت أحداثاً هامَّةً في التاريخ البَشَري.
ولكن تبقى للأماكن الدينية خصوصيتها وقوتها في صلة الرحم الإنساني.
ثم استأنفَ يقول: أنا زرتُ مَكَّة يا بُنَي كما تعرف للحج، مشيتُ في طُرقاتِها وبين جِبالِها وأودِيَتِها، رأيتُ المَكِّيين الأصلاء فيها وتحادثتُ مَعَهم.
مَكَّة ليست قريـــة محلية في بلاد الإسلام، أو حتى في شرق أوسَط الكرة الأرضية، بقدر ما هي قريـة عالميَّة تتمتَّع بكل مقوِّمات التأثر والتأثير مع العالم بمختلف تركيباته، وشعوبه، وقبائله، وألوانه، وهي أكثر بِقاع الأرض زيارةً بشكلٍ مُستَمرّ طَوال السنة، وتحوَّلت مَكَّة إلى مكان تجمّعي لكل أبناء العالم بكل أطيافِهم، وألوانِهم، ولغاتهم، وأعراقهم.
قلت: والمدينة التي هاجر إليها يا أبي؟

صَمتَ قليلاً ثم قال: العلاقة بين مَكَّة والمَدينة هي علاقة تبادليَّة وتكامليَّة يا محمَّد، في مَكَّة أُنزِلَت أول آية من آيات القرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تتالى نزول القرآن مع هجرته إلى المدينة، لتؤسِّس الهِجرةُ لمرحلةٍ انتقاليَّةٍ جديدة مِن مراحل نشر الدعوة.
عاش النبي عليه الصلاة والسلام في المَدينة، وهنا بدأت العلاقة تأخذ تكامليَّتها لأن القُبلة بقيت في مكَّة، وهذا يبيّن بأن الرسالة ليست مكّية فحسب، بل هي مَدَنيَّة أيضاً، والمَدَنيَّة هُنا ترمز إلى

رحابة العالَم، وهي ليست المَدينة المنوَّرة فحسب كموقع جغرافي، بقدر ما هي المدينة الكونيَّة، لأنَّ الناس يجتمعون فيها كل سنة بدون انقطاع مِن كل أنحاء الكَون.
وهنا يمكن أن تعرف بأن الإسلام منذ هذه المرحلة بدأ في نداء العَولمة من أجل أن يكون هذا العالَم عالَماً واحداً مع الحِفاظ على خصوصيَّات الشعوب والقبائِل البشريَّة.

قالَت أمّي: منذ أيامٍ كنتُ أقرأ ما كتبه مالكوم إكس في سيرته الذاتية، عن بعض مشاهداته عندما زار مَكَّة المُكرَّمة حاجاً سنة 1964. قال: (لقد منَّ الله عليَّ فحججتُ البيت وطفتُ به، وشربت من ماء زمزم، وسعيت بين الصفا والمروة، وصليت في منى، ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض، والذين يُمثِّلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي العيون الزرق إلى الأفارقة السود، فأدَّيتُ معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود)[1].

قال أبي: نعم هذه البقعة مؤهَّلة لتقوم بدورٍ إنسانيٍّ يُمكن له أن يجعل الناس أكثر ترابطاً، وأكثر إخاءً، ومودَّةً وتَعايشاً.
قالت أمّي: وهذا يُذكّرني بقولٍ للكاتب الأمريكي مايكل وولف يقول فيه: (عندما ترى الكعبة لأول مرة تنظر إليها بعد أن تكون قد صليت باتجاهها لسنوات لتجدها رائعة جداً وجميلة جداً. الناس دائماً يبكون عندما يرون الكعبة بالرغم من كونها مبنى مربعاً بسيطاً. عندما تؤدي الطواف تشعر بإحساس عظيم من السمو الروحي، ولكن في الوقت نفسه تحس بالتجمع الهائل والتكامل مع الآخرين

[1] ملكوم إكس- سيرة ذاتية، منشورات دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت 1996

وهذا يجعلك تسمو روحياً دون أن تشطح عن حدودك الجسدية واتزانك الطبيعي).

قال أبي: بطبيعة الحال مهما تحدَّثَ المرءُ وتوسَّعَ به الحديثُ عن مَكَّة المُكرَّمة، فإنه لايستطيع أن يقول كل شيء عنها يا سارة، كونها لاتشبه أي بقعة من بقاع الأرض، وتنفرد بخصوصيةٍ تُميّزها عن سائر القُرى في العالَم، إضافة إلى أنها ترمز إلى تبادلية العلاقة بين القرية والمَدينة بِما في ذلك من تحوّلات مجتمعية وبيئية، وعلميَّة، وثقافيَّة، وكذلك توازنيَّة.

مَكَّة المُكرَّمة هي منارة المسلمين، وهي منارة الخير والبركة، قال عبدالله بن عدي بن الحمراء: (رأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ واقفًا على الحزوَرةِ فقالَ: "واللَّهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللَّهِ، وأحبُّ أرضِ اللَّهِ إلى اللَّهِ، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجتُ")[1].
وعندما ولَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد أمرَ مكَّة بعد فتحها، أوصاه: "ياعتاب أتدري على مَن استعمَلتك؟ على أهلِ الله تعالى فاستوص بِهم خَيراً"[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ هذا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَومَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهو حَرَامٌ بحُرْمَةِ اللهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ"[3].

هذه هي مَكَّة التي ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تُربتِها، وكبر في بيوتِها، وأُنزلَ القرآن أوَّل ما أُنزِل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها.

---

[1] رواه الترمذي رقم (4023) عن عبد الله بن عدي بن الحمراء، أبواب المناقب، باب في فضل مكة
[2] السيرة الحلبيَّة، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي
[3] رواه البخاري رقم (1750) عن ابن عباس، كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة

ثم نظرَ إلي وقال: الحديث عن مَكَّة المُكرَّمـة يا بُنَي، هو حديثٌ عن الإشراقة الأولى للإسـلام على هذا العالم، حديثٌ عن خصائِص المكان الذي أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثلاث وخمسين سنة مِن عمره فيه. مَكَّة يا بُني لا تنفصل عن رسول الله، كما أنَّه لا ينفصل عنها، وهي مسقط رأسه الكريم عليه الصلاة والسلام، وعلى أرضها فَتَحَ عينَيه لأوَّل مرَّة على هذا العالَم، و تحتفظ ببيت ولد فيه، ذاك المكان الذي يسمى (سوق الليل).
وفيها بيت أم المؤمنين الكُبرى السيدة خديجة رضي الله عنها التي أنجبت فيه أبناءه، وهي البقعة الوحيدة على سطح الكرة الأرضية التي يتجه فيها سكانها إلى القبلة من الجهات الأربع.

تتمتع مَكَّة المُكرَّمة بميزةٍ ليست لغيرها من أيَّة بقعة من بقاع الأرض.
مَكَّة التي هي (قبلة الدنيا) يتجه إليها الناس من كل بقاع الأرض لزيارة الكعبة المُشرَّفة،

ولم يسبق للنبي أن خرج مِن الحِجاز سوى مرتين، مرَّة عندما اصطحبه عمّه أبو طالب في تجارةٍ إلى بلاد الشام، وكان في نحو الثانية عشرة من عمره. وفي ذلك يقول أبو موسى الأشعري: (خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ)[1].
والمرة الثانية، عندما ذهب تاجراً إلى الشام في تجارة خديجة رضي الله عنها، وكان في الخامسة والعشرين مِن عمره.

[1] رواه الترمذي رقم (3711) عن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، أبواب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

ولكن هذه المرة، هي استعداداتٌ للهجرة، الهجرة الأولى التي سوف يعرفها في حياته، الغربة الأولى التي يعيشها وهو يبتعد عن مَكَّة. وكانَت دعوته قد سبقته إلى تلك البِقاع بسبب العلاقات المُتبادَلة بين مَكَّة والمدينة.

قلت: هل مَكَّة بعيدة عن المدينة يا أبي؟

قال: أجل بعيدة، بالمقياس الذي نعرفه الآن، نحو 400 كم، وإذا قسنا وسائل المواصلات البدائية في ذاك الوقت، وقارنّاها بالوسائل المُتقدّمة في وقتنا، علينا أن نتصوَّر المسافة بنحو 4000 كم.

والهجرة يا بُني أحياناً تكون ضروريّة، لأن الاستسلام للواقع القاسي، يُحاسَب عليه الإنسان، فعندما تضيق بك الحال في موضع، عليكَ ألّا تذعن وتستسلم، بل أن تسعى إلى موضعٍ آخرٍ من الأرض.

وبات الخَطرُ يحدق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبره القرآن بهذا الخَطَر، وبيَّنَ له تفاصيل ما يخطّط المشركون له في دار الندوة: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ}**[1].

فهم يحيكون له المكيدة سراً حتى يباغتوه بها، ويعتقلوه ويجعلوه سجيناً في مكانٍ مغلق حتى يتوقّف عن نشر الرسالة، وبذلك يوقفون نشاطه الدَعَوي، أو يداهمونه في مكانٍ ما ويقدمون على اغتيالِه، أو يخطفونه من مكانٍ ما، وينفونه من موطنه.

قالَت أمّي: يبدو أن الآراء تعدّدَت في هذه المَكيدة التي حاكوها ضده.

قال أبي: هذا الاختلاف يشير إلى عوامل القرابة وتداخل المصالح، فرسول الله صلى الله عليه وسلم، قرشيٌ أصيلٌ في مكّة، وله أقرباء سواء من جهة الأب، أو من جهة الأم، والاعتداء عليه

[1] سورة الأنفال، الآية 30

يُعدُّ استهانة بأقربائِه، وهم سواءَ مِن الذين آمَنوا به، أو لم يؤمِنوا، لا يقبلون بهذا الاعتداء، لأنَّها مسألة اعتبار في عموم المُجتَمَع المَكّي.

ولذلكَ أُخِذَت هذه العوامل بعين الاعتبار، وقد انقسموا إلى ثلاث فرق، وثلاثة ألوانٍ من إيقاع الأذى به، وكل لونٍ أكثر قسوة من الآخر.

ففي: **{لِيُثْبِتُوكَ}**، يتوقّف نشر الرسالة مهما تلقّى من الوحي، لأنه مُعتَقَل وسجين. وفي: **{أَوْ يَقْتُلُوكَ}**، مَن سيتلقّى تتمّة الوحي، وهو آخر الأنبياء والرسل.

وفي: **{أَوْ يُخْرِجُوكَ}**، رغم أن هذا الخَيار جاء في المرتبة الثالثة من المَكر، ونسبة الإجماع عليه أدنى، إلّا أنه ليس سهلاً، وهي كلمة مفتوحة على كل الآفاق، فلعلَّهم أرادوا أن يُخرِجوه إلى بقعةٍ بعيدة جداً، تبعد آلاف الأميال بين أناسٍ لا يجيدون التحدّث بالعربية، أو إلى صحراء لا يستطيع العَودة مِنها، وهذه كلها احتمالات وارِدة.

ولم يتأخَّر عليه الصلاة والسلام بعد تلقّي هذا الإنذار، فتقنَّع لأخذ الحيطة، وجاء وقت الظهيرة إلى أبي بكر في بيته.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النّهَارِ إمّا بُكْرَةً وَإِمّا عَشِيّةً حَتّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الّذِي أَذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا.

فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السّاعَةَ إلّا لِأَمْرٍ حَدَثَ.

فَلَمّا دَخَلَ تَأَخّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ،

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَخْرِجْ عَنّي مَنْ عِنْدَك"،
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنّمَا هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاك أَبِي وَأُمّي.
فَقَالَ: "إنّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ".
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ.
قَالَ "الصّحْبَةَ".
فَوَ اَللهِ مَا شَعَرْتُ قَطّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنّ أَحَدًا يَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ حَتّى رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ)[1].
فكانَت الخطوات الأولى لطريق الهجرة الطويل والشاق.
يقول الله سبحانه وتعالى:
{إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}[2].

على الإنسان أن يتّسمَ بالواقعيّة يا بُنَي، وهذه الواقعيّة هي من صلب الإيمان. فها هو ذا رسول الله يأخذ بمُعطيات الواقع، والله يُبارك له في هذا الأخذ الذي حصل على الأرض.
فهم على أرض الواقع كانوا أقوى منه، وإلاّ لَما استطاعوا أن يُخرجوه.
وعندما أصبح أقوى منهم، عاد إلى مَكَّة بقوّته، فاستسلم المُشركون للقوّة الجديدة على الأرض، وفتح المسلمون مَكَّة وأصبحوا قادتها.
ولكنهم لم يتآمروا على خصومِهم، ولم يعتدوا عليهم، أو يُخرِجوهم من ديارهم وأهليهم، كما خطَّطوا هم في دار الندوة، عندما كانوا قادة أقوياء.
فليلة الهجرة، ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهناك تجهَّز معه أبو بكر، وخرجا معاً، وحوصِرا في مغارة جبليّة في جبل ثور، غربي مكّة، وبقيا فيها ثلاث ليال.

---

[1] السيرة النبويَّة، ابن هِشام
[2] سورة التوبة، الآية 40

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها: (لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلا يَسْمَعُ أَمْراً يُكْتَادَانِ بِهِ إِلا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ)[1].

وشهد الله تعالى ذكره، لأبي بكر الصدّيق بصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أعمدة الصحابة، إذ آمن به وصَحِبه منذ بدايات نزول الوحي، ولبث في صُحبَته الشخصيّة مذ ذاك وحتى اليوم الأخير من حياة النبي صلى الله عليه وسلم.
فقد لبث مُصاحِباً له في حلّه وترحاله، وفي المدينة زوّجه ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأصبح إضافةً إلى ذلك صهره.
وعائشة هي أخت أسماء ابنة أبي بكر أيضاً، وقد شقت خمارها نصفَين، ربطت بالنصف الطعام للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأبيها عند الهجرة، وارتدت النصف، فعُرِفَت بذات النطاقين. وليس أبو بكر فقط الذي كان حريصاً على هذه الصحبة الطيبة، بل النبي أيضاً كان حريصاً عليها.

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يستذكر هذه التفاصيل فيما بعد: (قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا")[2].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (3726) عن عائِشة، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (3486) عن أبي بكر، كِتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم

وهو غار ثور، ويقع شمال جبل ثور، جنوب مَكَّة ويبعد عن المسجد الحرام مسافة أربعة كيلو مترات.
قلت: يا أبي شوَّقتَني لرؤية تلك الأماكن المقدَّسة.
قال: أبشر يا محمد، إن شاء الله سأصحبك معي لتكتحل عيناك برؤيَّة تلك الأماكن المقدَّسة.
القَول لا يكون كالفعل يا بُني، عندما أتحدَّث، أتخيَّل كل تلك الأماكن التي جبتها ونظرتُ إليها، وعشتها.

كان أبو بكر رضي الله عنه يُدرك مدى إصرار المشركين على إلحاق الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وملاحقتهم له تبث إشارة جلية بأنهم لا يكتفون بإبعاده عن مكّة، وإلا لكانوا تركوه، وقد خرج، أو حتى سهّلوا له الخروج.
بل لحقوا به ليقتلوه، وهاهم قد غدوا على وشك إلقاء القبض عليه.
قال أبو بكر: (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا).
ويظهر أنهما كانا ينظران إليهم، فهي مجرَّد نظرة حتى لو وقعت سهواً من أحد المشركين، ستجعله على الفور تحت سيوفهم، وهم أكثر الناس عداوةً له.
فما الذي سيفعلونه وهم يقعون على رأس الإسلام في هذه المغارة الجبليّة؟ لكن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم بأنهما ليسا لوحدهما، وأن الله معهما، والذي يكون الله معه، لا توجد قوةٌ تقدر عليه، مهما كان في موضع ضعف.
ولسنا مع بضع دقائق، أو بضع ساعات في هذا الحِصار يا بُنَي، بل استمرّ الحِصارُ عليهما ثلاث ليالٍ، وكان عامر بن فهيرة، وهو مولى أبي بكر الصديق، يغتنم بعض الفرص بين حينٍ وآخر بحذرٍ شديدٍ ليمدّهما ببعض الحليب.
حينها وأنا أسمع، خَطَرَ على بالي سؤالٌ، فقلت: يا أبي إذا كانا قد اختبآ في الغار، فأين خبَآ راحلتيهما؟

قال: نعم يا بُنَي، فقد وضعا راحلتيهما عند شخصٍ، كما تقول أم المؤمنين عائشة زوجة النبي وابنة أبي بكر:
"وَاسْتَأْجَرَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِن بَنِي الدِّيلِ هَادِيًا خِرِّيتًا، وهو علَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَدَفَعَا إلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، ووَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ برَاحِلَتَيْهِما صُبْحَ ثَلَاثٍ"[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (2172) كتاب الإجارة، باب إذا استأجر أجيراً ليعمل له بعد ثلاثة أيام، أو بعد شهر، أو بعد سنة جاز، وهما على شرطهما الذي اشترطاه إذا جاء الأجل

بينَ ظهراني المدينة المنوَّرة

كانَت فرحتي لا تُوصَف عندما خرجتُ مِن غُرفَتي عشاءً، ورأيتُ أمّي بثياب الصلاة على سجَّادتها تُصلّي.
جلستُ أنظر إليها وهي تؤدّي أركان الصَلاة، وعندما انتهت، مدَّت يدها إلى المصحف الذي كانَت وَضَعَته بجانِبها، قبَّلَته، وشرعَت تقرأ، ثم وضعته ثانيةً بجانِبها، وسجدت لعدَّة دقائق تدعو، ثم نهضت وأعادت المصحف إلى موضِعه على أحد رفوف المكتبة دون أن تضمَّه إلى الكتب.
وعادت تجلس في الغرفة، فقلت: أينَ أبي، أما زال نائِماً؟
قالَت: لا، استَيقظ، وذهب إلى الحلّاق كي يحلق شعره.
فنهضتُ واتَّجهتُ إلى المطبخ، وجلبتُ صحناً صغيراً مِن الهريسة التي صَنَعتها أمّي، وصرتُ أتناولها بشهيَّةٍ. وبعد قليلٍ دخل أبي، فنهضنا، وما لبث أن جلس، وبعد تناول العشاء، جلس أبي في موضعه الذي اعتاد أن يجلس فيه، ولم يسبق لي أن رأيته يجلس في غير ذاك الموضع مِن الغُرفة.
قالت أمّي: عوَّدتنا يا عمران على حديثك، وصرنا ننتظر هذا الوقت حتى نستمع إليك.
قال: تجاوَزنا الآن المرحلة المكّية من حياة النبي عليه الصلاة والسلام، والمرحلة الجديدة بدأت منذ اليوم الأوَّل لوصوله عليه الصلاة والسَلام إلى أرض المدينة.
قلت: كيف يا أبي؟
قال: المرحلة المكّيَة كانَت بمثابة التهيئة والإعداد، وكان العمل دقيقاً جدّاً، بحيث استطاع النبي بحكمةٍ بالِغةٍ أن يتجاوَزها دونَ قِتالٍ رغم كل حالات الاستفزاز التي تعرَّض لها وكذلك تعرَّضَ لها صحابته الكِرام، ورغم كل محاولات الاستدراج إلى نِزاعٍ بين جموع المسلمين وجموع المُشركين، فتحمَّلوا على مضضٍ حتى ثلاث

سنوات متواصِلةٍ مِن الاستفزاز والحِصار، والتجويع، دون اللجوء إلى نزاعٍ مُسلَّحٍ، وإيقاع الناس في حربٍ استنزافيَّةٍ وفَلتانٍ أمني.
هزَّت أمّي رأسها وهي تنظر إليه وتنصت، فأردَفَ يقول:
لأنَّ أيّ تصرّفٍ بدون حِكمة في التعامل مع واقعٍ مُضطَّربٍ كهذا، قد يُفجِّر الأمرَ ويُخرِجه عَن السَّيطرة، فمن الأفضل أن تبقى مُحافِظاً على قوَّتك، وتترك خصمكَ في قوَّتِه، فالمسألة هُنا كانَت تحتاج إلى عامِل الزَمَن ريثما تتغيَّر بعض المُعادلات، ولذلكَ كان النبي يوصيهم بالتهدِئة والصبر والاحتساب، وعدم الانجرار إلى تصرّفاتٍ فرديَّةٍ، وعندما كان الأذى يتصاعَد، كان يطلب مِنهم الهجرة والابتعاد عَن المَكان.
وهذه هي الواقعيَّة التي افتقدها كثيرٌ مِن القادة في العالَم والذينَ تسبَّبوا في حروبٍ استنزافيَّة ألحقت الويلات بالناس.
تذكَّرتُ زميلي (هنري) في المدرسة الذي كلَّما يسمع أحداً يُناديني باسمي، يتقدَّم إليَّ ويستهزئ، فأدفعه عنّي.
قلت: سبحان الله، رغم كل هذه الحكمة، أحياناً أرى في المَدرَسة مَن يتحدَّث بشيء من السلبيَّة.
قالَت أمّي: يا بُنَي، مثل هذه التقييمات تؤخَّذ مِن النوابغ والعباقِرة الذين هُم خَلاصة المُجتمعات، وليس مِن محدودي العلم والمعرفة البسطاء.
قال أبي: انتقلَ النبي صلى الله عليه وسلم مِن مرحلة الإعداد، إلى مرحلة القيادة، مِن مرحلة المحلّيَّة الضيّقة، إلى رحابة العالَم، والعلاقات الواسِعة مع ملوك وقادة الأرض. كانَت المرحلة الأولى هامَّة، ولكن لا يجوز أن يبقى الإنسانُ متقَوقِعاً في محليَّةٍ ضيّقةٍ وهو صاحِب رسالة إلى العالَم.
ثم نظر إليَّ وقال: الهِجرة يا بُنَي هي حياة جديدة بالنِسبة للإنسان، لأن كل ما فيها جديدٌ في جديد، ويبدأ المُهاجر في هجرته حقبةً جديدة من حياتِه، فيتعامل مع وجوهٍ جديدة، يمشي في شوارع

جديدة، يرى فيها أناساً لم يرهم مِن قبل، أماكن لم يقع نظره عليها مِن قبل، يتعرَّف على خصائِص اجتماعيَّةٍ جديدة.
وهذا مِن شأنِه أن يفسح أمامه آفاقاً جديدة لم تكن مُتاحة في المكان الذي يُهاجِر مِنه، فيكمل مسيرة عَمله في الحَياة وهويتجدَّد بهذا الجديد.
وحياة النبي صلى الله عليه وسلم كانَت حياة مُتجدِّدة، اغتنَت بالعمل، والمواقِف الإنسانيَّة، والعلاقات الاجتماعيَّة، والسُنَن التي سنَّها، والأحاديث التي تُرسّخ المشاعِر العائليَّة المُشترَكة، والتكاتف الإنساني والأخوي للبشريَّة جمعاء،
وكان عليه الصلاة والسلام ممتلئاً بالحيويَّة، يحضّ على حب العمل والإنتاج حتى اللحظات الأخيرة مِن الحياة، ويقول للناس: "إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"[1].

فلا موضِع للخاملين والعاطِلين عَن العمل في منهجه، وكانَ يمضي أوقاته مِن عملٍ إلى عَمل، ومِن صَلاحٍ بين الناس إلى صَلاح.
فعندما تتأزَّم الأمور على الإنسان في بقعة أرض، عليه ألّا يستسلم، أو ييأس، بل عليه أن يسعى للخروج من الأزمة وهو بمعنوياته العالية.
الاستسلام للأزمات، هو ظلم للنفس، ولا يمكن أن تضيق أرض الله كلّها على أحد، فإن ضاقت في هذه البُقعة، اتَّسعَت في بقعةٍ أخرى، وإن ضاقَت في الأخرى، اتَّسَعَت في أخرى.
عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، استقبله أنصار الإسلام هناك بترحابٍ، فبدأ بالترتيبات الجديدة منذ ساعة وصوله.

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (12705) عن أنس بن مالك، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه

قالَت أمّي: بذلك يمكن تقسيم حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثلاث مراحل انتقالية كُبرى: مرحلة ما قبل نزول الوحي من ولادته إلى سن الأربعين،
ومرحلة نزول الوحي في مَكَّة،
ومرحلة الهجرة من الثالثة والخمسين.

قال: نعم يا سارة، وكل مرحلة ممتلئة بالعمل والجهد والنشاط والبصمات، وهذه المراحل لا تنفصل عَن بعضِها، بل تتكامَل مع بَعضِها بَعضاً.
ثم أردفَ يقول: كان اسمها يثرب في الجاهليَّة نسبة إلى يثرب بن قاينة،
وعندما دخلها الرسول الأكرم، غيّر اسمها من يثرب، إلى المدينة.
جاءَ عن أبي قتادة: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى بِأَرْضِ سَعْدٍ بِأَصْلِ الْحَرَّةِ عِنْدَ بُيُوتِ السُّقْيَا، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ وَعَبْدَكَ وَنَبِيَّكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا دَعَاكَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ، نَدْعُوكَ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ وَثِمَارِهِمْ. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ، وَاجْعَلْ مَا بِهَا مِنْ وَبَاءٍ بِخُمٍّ. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَمَا حَرَّمْتَ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ الْحَرَمَ")[1].

وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يُرسّخ في الأنصار تعاليمه، يقول عبد الله بن زيد: (لَمَّا أفَاءَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، ولَمْ يُعْطِ الأنْصَارَ شيئًا، فَكَأنَّهُمْ وجَدُوا إذْ لَمْ يُصِبْهُمْ ما أصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقالَ: "يا

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (22118) عن أبي قتادة، حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه

مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بي؟ وكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فألَّفَكُمُ اللَّهُ بي؟ وعَالَةً فأغْنَاكُمُ اللَّهُ بي؟ كُلَّما قالَ شيئًا قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: ما يَمْنَعُكُمْ أنْ تُجِيبُوا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: كُلَّما قالَ شيئًا، قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: لو شِئْتُمْ قُلتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وكَذَا، أتَرْضَوْنَ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وتَذْهَبُونَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصَارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا وشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وادِيَ الأنْصَارِ وشِعْبَهَا، الأنْصَارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثَارٌ، إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي علَى الحَوْضِ")[1].

قالت أمّي: في هذه المرحلة الانتِقاليَّة كيف أصبح التوجّه الجَديد في نشر الدعوة؟

قال أبي: بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، انتقل الوحيُ أيضاً إلى هناك، واعتباراً من اليوم الأول من وصوله إلى المدينة، صارت هناك مرحلتان مفصليّتان في منهج الوحي: مرحلة السوَر المكّية، التي تتميَّز بالدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله كمرحلةٍ أولى. ثم السوَر المدنيّة التي وضَّحَت الأحكام والفرائض والحلال والحرام، بعد أن ترسَّخ الإيمان في قلوب المؤمنين. وفي المدينة فُرِضَ الصومُ في رمضان على المسلمين في السنة الثانية للهجرة. وهي آياتٌ مَدَنيَّة لا لأنها أُنزِلَت في المدينة فحسب، بل لخصائص تمتاز بها هذه الآيات في نَص الأحكام والشرائع، بعد أن رَسَّخَت الآيات المَكِّية قواعد وثبوتيّات الإيمان.

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (4097) عن عبد الله بن زيد

التآخي الإنساني

قال أبي وهو ما يزال مُتَّجِهاً بحديثه إلى أمّي: في هذه المرحلة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يوطدّ العلاقة ما بين المُهاجرين والأنصار، ويؤسس مجتمعاً متماسكاً، على أساسٍ أخويّ، كخطوةٍ أولى لإشاعة الألفة بين المجتمع الذي كان مُفكَّكاً عَن بعضه بعضاً بسبب المصالِح، والتفاوت في النفوذ، والنِزاعات القَبَليَّة.
فعقدَ ميثاق التآخي بين المُهاجرين والأنصار، ورحَّبَ الأنصارُ بهذا التآخي وتفاعَلوا معه على أرض الواقع قَولاً وفعلاً.
ومِن جانِبِهم فقد خفَّفَ هذا التآخي مِن شعور المُهاجِرين بالغُربة، وصاروا يشعرون بالانتماء إلى المَكان، وهم الذينَ تَركوا بيوتَهم وممتلكاتِهم وأموالَهم وذكرياتهم ومصالحهم وأعمالهم في سبيل الحِفاظ على إيمانِهم، وإصرارهم ألّا يضعفوا ويتراجعوا عنه بفعل المضايقات الشديدة التي كانوا يتعرَّضون لها في مَكَّة مِن المُشركين.
وكان هذا التآخي بِمثابة التأسيس الأوّلي المَتين لانطِلاقةٍ جَديدةٍ في مَسار نشر الدَعوة بالكلِمة الطيّبة والموعِظة الحَسنة، في ظهراني المُجتَمع المدني الجديد الذي تشكَّل مِن سُكّان المَدينة الأصلاء، والمُهاجِرينَ إليهم مِن مَكَّة.
ولِتَعزيز وترسيخ ذلك أكثر، بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ليجتمعوا فيه للصلاة، والاستماع إلى خُطَبه وإرشاداته.
وقد حصل هذا التآخي لأوَّل مرَّة في التاريخ الإنساني ليُزيل الفوارق العرقية، والقومية، والاقتصادية، والوجاهية، والنفوذية، والاجتماعية، واللونية بين الناس. فقال صلى الله عليه وسلم: " تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْواً تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى"[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (5688) عن النعمان بن بشير، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم

وقال صلى الله عليه وسلم: " أَكمَلُ النَّاسِ إيمَاناً أَحَاسُنُهُم أَخْلَاقاً المُوطِئُونَ أَكْنَافاً، الَّذينَ يَألفُونَ ويُؤلَفُونَ ولا خَيرَ فِيمَن لا يَألَفُ ولا يُؤلَفُ"[1].

نَعم يا سارة، البدايات دوماً تكون بالِغة الحساسيَّة، ولا بدَّ مِن إشادة أساساتٍ سليمةٍ مَتينة حتى تكون قابِلة للبِناء عليها، ولا تكون هشَّة.
فالآن هي بداية إشراقة المرحلة المَدَنيَّة مِن عُمر الدعوة الشريفة، وهي مُختَلِفة عَن بداية المَرحلة المَكِّيَّة.

الآن بدأ إصلاح البُنية التَحتيَّة لسلوك المُجتَمَع، وفق إرشاد الآيات القرآنيَّة التي يتلقّاها النبي صلى الله عليه وسلم، وصار يبذل الجهد أكثر فأكثر، ويعرق في الصيف أكثر، ويبرد في الشِتاء أكثر، كما أن المرحلة الجَديدة استَوجَبَت أن تتَّسع علاقاته الاجتماعية، تماماً كما استوجبت المرحلة المكِّية تقليص علاقاته الاجتماعية ما أمكن، فكان مُكتَفياً بأمِّ المؤمنين الأولى والكُبرى خديجة رضي الله عَنها على مدار ربع قرن، حتى وفاتِها.
وعند ذاك ولِمُتَطلَّبات رعاية البيت والأولاد، تزوَّج في مكَّة مِن سودة بنت زمعة رضي الله عنها وهي في السادسة والستِّين مِن عُمرِها.
وهذا يؤكِّد بأن الزواج في حياتِه سيكون لدواعي ضرورة المَرحلة الجَديدة، بل إنَّ الله عزَّ وجل ربُّ السمواتِ والأرض، في هذه المرحلة يُزوّجه بكلامٍ إلهيٍ مُباشَرٍ يتنزَّل عليه: **{زَوَّجْنَاكَهَا}**[2].
ويأمره بالتنفيذ على الفَور، وهو في ذروة الإصلاحات التي يُجريها لبُنيَة المُجتَمع التحتيّة، وكان على تواصلٍ ساخِنٍ مع الأوامر الإلهيَّة التي تتتالى في النزول على قلبه، فهو عليه الصلاة والسلام، مأمورٌ

[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (7983) عن أبي سعيد الخدري
[2] تقول الآية الكريمة: **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}** سورة الأحزاب، الآية37

بتنفيذ أوامر الله جلَّ شأنُه، وكل ما فيه مُكَرَّسٌ لِخدمة الدعوة، ولا صوتَ يعلو على صوت الدعوة التي لها الأولويَّة في حياتِه، بكونِه رسول الله، وحامل رسالة ختم النبوَّة للعالَمين.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أمر ببناء المسجد، وقال: "يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا".

قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله)[1]. وهذا بيانٌ على مدى إقبال الناس في المدينة على الدعوة، ومدى ترحيبهم بالنبي وصحابته. فاستأنفَ يُرسخ فيهم مشاعر السِّلم، ويعظهم بقوله: "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ"[2].

ومِن مظاهر تحسين حياة الأنصار نحو الأفضل، ما قاله البراء بن عازب: (كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته وكان الرجل يأتي بالقِنو والقنوين فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط من البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تبارك تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}**[3]. قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده)[4].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (2648) عن أنس بن مالك، كتاب الوصايا، باب وقف الأرض للمسجد

[2] رواه مسلم في صحيحه رقم (4870) عن أبي هريرة، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسِلاح إلى مسلم

[3] سورة البقرة، الآية 267

[4] رواه الترمذي رقم (3060) عن البراء بن عازب، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة

وفي السنة الثانية للهجرة، وفي أَوج الإصلاحات الاجتماعيَّة، شُرِّعَت الزكاة، فزاد ذلك من تكاتف وتآخي الناس مع بعضِهم.
والزكاة تُعزّز الجانب الإنساني في الإنسان، وتُحرّره مِن مادّيته المَقيتة، وتُذكّره بإنسانيته وإخائه مع الناس، ومسؤوليَّتِه تجاههم. وفي الزكاة يأتي الغَني إلى الفَقير، ويعطيه حقَّه دون أن يتمنَّن عَليه، فيأخذ الفقير منه دون أن يشعر بأنَّه أخذَ شيئاً ليس له، بل أخذ حقَّه الذي أوجبه الله له. والزكاة تحل المعوّقات الماليَّة لملايين الناس كل سنة، إضافة إلى الصدقات، والفطرات، وبقيَّة ألوان الإنفاق خالِصاً لله تعالى.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}**، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَيْثُ شِئْتَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ" فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ)[1].

و في هذه المرحلة أيضاً، أسَّسَ النبي صلى الله عليه وسلم لِمَنهَج التعامل الإنساني مع اللّاجئ الذي يضطَّر لترك دياره تجنُّباً للخَطَر

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (1738) عن أنس بن مالك، كِتَاب الزَّكَاة، بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْأَقْرَبِينَ وَالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ، وَالْوَالِدَيْنِ وَلَوْ كَانُوا مُشْرِكِين

الذي يحيق به وبأسرَتِه، بسبب مُعتَقده. فقد استقبل الأنصار مِن أهل المدينة، المُهاجِرين واللّاجئين إليهم مِن مَكَّة، أحسنَ استقبالٍ، حتى شهد لهم الله بقوله: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}**[1].
لقد أجزلوا لهم العطاء، واستقبلوهم كأخوة في حالةٍ إنسانيَّةٍ رفيعة المستوى.
قال أنس بن مالك: (لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَقَدْ كَفَوْنَا المُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَإِ حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ")[2].

وقد عزَّزَ فيهم رسول الله عليه الصلاة والسلام مشاعر الأخوَّة الإنسانيَّة ومسؤوليَّة الإنسان تجاه الإنسان، ونهى عن الغيبة، فقال لهم: "أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ"؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ"، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: "إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"[3].

ويوماً بيوم وسنة بسنة يُرسِّخ النبي عليه الصلاة والسلام مشاعِر الأخوَّة الإنسانيَّة فيهم بأحاديثه المؤثِّرة، فقال: "الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ"[4].

---

[1] سورة الحشر، الآية 9
[2] رواه الترمذي في سننه رقم (2524) عن أنس بن مالك، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع
[3] رواه مسلم في صحيحه رقم (4818) عن أبي هريرة، كتاب الْبِرّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الْغِيبَةِ
[4] رواه أبو داود في سننه رقم (4335) عن أبي هريرة، كِتَاب الْأَدَب، بَابٌ فِي النَّصِيحَة وَالْحِيَاطَة

وهم يستمعون ويستجيبون ويتفاعلون ويتغيَّرون بهذه التوجيهات الإنسانيَّة الجديدة، فيحضَّهم على محبة بعضهم بعضاً كما لو أنَّهم عائلة واحدة فيقول لهم: "إِنَّ اللَّهَ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: أيْنَ المُتَحابُّونَ بجَلالِي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي، يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي"[1].
ويعظهم بقوله: "مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا"[2].
ويبيّن لهم عليه الصلاة والسلام كم أن الإنسان يكون قويّاً بالإنسان، وكم يكون واهِناً بدون الإنسان.
ويأتي بالمعاني المؤثِّرة والعِبارات المُتماسِكة والقويَّة، قال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا"[3].
تناول أبي شربة ماء، وبعد قليلٍ مِن الصمت، أردَفَ يقول وهو ينظر إلي: التآخي يا محمد هو أن تشعر بأخوَّة الآخر لك، وتشعر بأخوَّتكَ له، وتعيش هذه الحالة، وتتفاعَل معها، وتجعلها مِنهاجاً في حياتِك. وما دونَ ذلك سيفصل الإنسان عن الإنسان حتى لو كانت بينه وبين الآخر رابطة أخوّة حقيقيَّة، وكان مِن أمِّه وأبيه.
الأخوَّة تتعزَّز وتترسَّخ كلَّما رأيتَ شيئاً مِنكَ في الآخر، ورأيتَ شيئاً مِنه فيك، شممتَ رائِحتكَ مِنه، وشممتَ رائِحته مِنك.
وتلك الأخوَّة التي شيدها رسول الله بقيت مُستمرَّةً في عموم المسلمين أينما كانوا في مشارق الأرض ومغارِبها، سواء أكانوا يعرفون بعضهم بعضاً، أو لا يعرفون بعضهم بعضاً، فما إن يقول الشخص بأنَّه مسلم، حتى يتعامَل معه المسلم الآخر بروحٍ أخويَّةٍ ويؤازِره بروحٍ أخويَّةٍ حتى لو كانَت بينهما آلاف الأميال، ثم بصرف النَّظَر عَن القوميَّة، أو اللون، أو اللغة، فهو استمرارٌ وإحياءٌ لسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوصيَّته لعموم

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (4783) عن أبي هريرة، كتاب الْبِرّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَاب، بَاب فِي فَضْلِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ
[2] رواه أبو داود في سننه رقم (4601) عن البراء بن عازب، كتاب الأدب، أبواب النوم
[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (2341) عن أبي موسى، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم

المسلمين في كل زمانٍ ومكان: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (2442) عن عبد الله بن عمر، باب لا يظلمُ المسلمُ المسلمَ ولا يُسلِمه

تأسيس منهج التعايش السلمي بين المُكوِّنات

كانَت المدينة تُعاني الاضطرابات، والأوضاع الأمنيَّة كانَت مُتدَهورة فيها، ولم يستطع أحد تَهدِئة هذه النزاعات التي كانَت مُحتَدِمة في أرجائِها.
وكانَت العداوة مُشتَعلة بين قبيلتَي الأوس والخزرج على مدار 140 سنة مِن الحروب بينَ الجانِبَين.
ولأوَّل مرَّةٍ خلال كل تلك السنوات الطَويلة مِن الاستنزاف، وكثرة الضحايا والخسائِر، أجرى الرسول عليه الصلاة والسلام بينهم التصالح بشكل أذهل جميع سُكّان المدينة، بل أذهل قبيلَتي الأوس والخَزرَج أنفسهم، فطووا صفحات ذاكَ الماضي مِن الحروب الطاحِنة، وتحوَّلوا إلى أحبَّة وقد ألَّفَ الله بينَ قلوبِهم.

فمهما بلغت الخصومة مِن حِدَّة، يبقى أمل التصالح قائِماً، وليس هذا فحسب، بل أمل أن تؤدّي المُصالحة إلى التآلف والتحاب أيضاً بعد كل تلك البغضاء أمام هذا المثل الكبير، سواء بالنسبة للأوس والخزرج، أو أي جماعتَين، أو دولتَين، أو عائلتَين، أو حتى شخصَين.
فعندما احتكموا إلى الله، أزال التنافر والتباغض من قلوبِهم، وجعل فيها التآلف والتحاب.
قالَت أمّي: الجَميل أن الإسلام يحرص شديد الحرص على أهمّيَّة أن تبقى العلاقة الإنسانية قائمة، حتى وإن كان الطرف الآخر غير مسلم.

قال أبي: نعم، تبقى للمشاعر الإنسانيَّة منزلتها المحفوظة في الدعوة لأنَّها بالأصل جاءت لتُقرِّبَ الإنسانَ مِنَ الإنسان، وتتيح للناس عموماً سبل العيش المُشتَرَك.

ولذلكَ، عَمل النبي صلى الله عليه وسلم على التصالح بين المُتخاصمين، والتآخي بين المُهاجرين والأنصار، وابتعدَ عَن مَكَّة تجنّباً للمواجَهة المُسلَّحة، وقبل ذلك أبعدَ المسلمين في هجرَتَين إلى الحَبَشة.
والآن وقَد أصبحَ في المدينة، أعدَّ وثيقةً مِن أسمى الوثائِق الإنسانيَّة التي يتأسَّس عليها العَيش المُشتَرك بين مكوّنات وطوائِف المُجتَمع مِن المُهاجرين، والأنصار، واليَهود، ومُختلَف الفصائِل، وصارَت تُعرَف بوثيقة المدينة.
فوضعَ النبي صلى الله عليه وسلم البنود الأولى لإشادة دعائم دَولة مَدَنيَّة حقوقيَّة تعايشيَّة، وهي أوَّل دولة للمسلمين على الأرض وأعطَت لكافَّة المُكوّنات المُختَلِفة حقوقها المُتساويَّة وفق دستور المواطَنة، وكفلت حرّيَّة المُعتقَد وممارسة الشعائِر، ونظير ذلك التزم الجميع بالدِفاع عَن دولتهم في حال تعرّضها للعدوان.

قالَت أمّي: كانَت أوّل دولة وفاقيَّة، في واقعٍ انعدَمَ فيه الوِفاق.
قال أبي: صحيح، وبذلك استطاعَ الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُخرِج الناس مِن قوقعة القبائِل المُشتّتة إلى تماسكِ أمَّةٍ واحدة.
ودستور المَدينة يا سارة تعتمده الآن أحدث وكُبرى دول العالم المُتقدّمة، ومِن ذلك إعطاء الجنسيَّة للمُهاجِر، بل وتعمل الدولة على جلب المُقرَّبين للمهاجِر فيما يُسمَّى بـ (لم الشَمل).
وهذه مِن أساسيّات دستور المدينة؛ حيث أصبح المُهاجرون مواطنين في المدينة لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم مِن الحقوق والواجِبات، وكذلك مَن لحق بِهم مِن أقربائِهم وذويهم، وبذلكَ استتبَّ الأمنُ في الناس.
جاء في مُقدِّمة الوثيقة:

(بسم الله الرحمن الرحيم هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ).

ثم جاء:

(وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ،

وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ).

وللحفاظ على استتباب الأمن العام في الناس، جاء في بنود هذه الوثيقة:

(وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ).

وكذلك جاء:

(وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ،

وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ).

ولأوَّل مرّة في تاريخها، رأت المدينة هذا الاستقرار، ونعم مواطنوها بالأمن والمُصالحات وأصبح هُناكَ قضاءٌ يُحاسب المُتجاوزين. ثم بدأ الرخاء ينتشر في ربوع هذه المدينة التي تحوَّلَت إلى دولة رسميَّةٍ بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي صار يوطِّد العلاقات الخارجيَّة معَ سائر الملوك والقادة، وكذلك في

الداخل يعمل على توسعة بناء هذه الدولة وتوفير فُرَص العَمَل وأنواع التجارات والاستثمارات لِمواطِنيها.
وانتشر الدِّينُ على هذا المنهج السلمي، ولاقى القبول مِن الناس، وتكاثرَت أعداد المُسلمين خارج المدينة أيضاً واتَّسَعَت علاقات ومراسلات النبي صلى الله عليه وسلم مع ملوك وقادة المناطق المجاورة للمدينة، وهو يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى النجاشي في السنة السادسة للهجرة:
"بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النّجَاشِيّ عَظِيمِ الْحَبَشَةِ؛ سِلمٌ أَنْتَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ وَأَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطّيّبَةِ الْحَصِينَةِ فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ اللهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي فَإِنّي رَسُولُ اللهِ وَإِنّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ وَقَدْ بَلّغْتُ وَنَصَحْت فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي وَالسّلَامُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى".

فجاء رد النجاشي:
(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إلى محمد رسول اللهِ، من النجاشي أصحمة، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمةُ الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هُوَ، أما بعد: فقد بلغني كِتابُك يا رسولَ الله فيما ذكرتَ مِن أمر عيسى، فوربِّ السماءِ والأرضِ، إنَّ عيسى لا يزيدُ على ما ذكرتَ ثُفْروقاً إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرَّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهدُ أنَّك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابنَ عمك، وأسلمتُ على يديه للهِ رب العالمين).

وكتب إلى المقوقس عظيم القبط في مصر:
"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}**[1]".
وحمل الرسالة حاطب بن أبي بلتعة, وبعد شيء مِن الحوار معه، قال المقوقس لحاطِب: (أنت حكيم وجئت من عند حكيم).

وأرسل إلى هرقل عظيم الروم في السنة السادسة للهجرة:
"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيّين، **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}**".
وقال هرقل بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

وكتب إلى وجَيْفر وعبد ابني الجُلُنْدَي، صاحبَي عُمان في السنة الثامنة للهجرة:
"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدٍ ابْنَيِ الْجُلَنْدَى، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدِعَايَةِ

[1] سورة آل عمران، الآية 64

الإِسْلاَمِ؛ أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً؛ لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنَّكُمَا إِنْ أَقْرَرْتُمَا بِالإِسْلاَمِ وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرَّا بِالإِسْلاَمِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلِي تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتَظْهَرُ نُبُوَّتِي عَلَى مُلْكِكُمَا". وحملها إليهما عمرو بن العاص.

وإلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس، مع عبد الله بن حذافة السهمي
وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، مع العلاء بن الحضرمي
وإلى الحارث الحميري حاكم اليمن، مع المهاجر بن أمية القرشي المخزومي
وإلى هوذة الحنفي صاحب اليمامة، مع سليط بن عمرو العامري القرشي.

قالَت أمّي: وأنتَ تتحدَّث عَن هذه المُنجَزات الإنسانيَّة التي حقّقَها رسول الله
صلى الله عليه وسلم، حَضَرَني قولٌ للمهاتما غاندي يقول فيه:
(أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر، لقد أصبحتُ مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة بِرَبِّه ثم برسالته. هذه الصفات هي التي مهَّدَت الطَريق، وتخطَّت المصاعب وليس السيف)[1].

[1] المهاتما غاندي في حديث لجريدة (ينج إنديا)

منهج السلم

قال أبي ونحن نصغي إليه بإنصاتٍ ونرجو ألّا ينقطع به الحَديث ما أمكن:
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيماً في سائر شؤون الحياة، وكان مُخلصاً وأميناً في عهوده حتى مع الذين كانوا يُعادونه بشدَّة.
حتى إنَّ عمر بن الخطاب قال لأبي بكر في صلح الحديبية: (يَا أَبَا بَكْرٍ، أَوَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى.
قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الذِّلَّةَ فِي دِينِنَا.
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ الْزَمْ غَرْزَهُ حَيْثُ كَانَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ.
قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: "بَلَى"، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الذِّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ: "أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي".
ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْراً)[1].

لم يكن موقف النبي مِن وهن, فمجرَّد الجلوس على مائدة حوار والتحاور بين طرفَين مُتنازِعَين، يعني النفوذ الذي يتمتعان به، ومنعاً لتدخل أي طرف في شؤون الطرف الآخر.
قلتُ: كيف كان هذا الصلح يا أبي؟

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (18605) عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَان بن الْحَكَمِ، أَوَّلُ مُسْنَدِ الْكُوفِيِّينَ، حَدِيثُ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيِّ، وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ

كان في العام السادس للهجرة، عندما تجهَّزَ النبي صلى الله عليه وسلم مع نحو 1400 مِن الصحابة وقرَّروا الذهاب إلى مكَّة لأداء العُمرة.
وعندما تسرَّبَ الخبر إلى زعماء قُريش، قاموا على الفَور بتجهيزِ جيشٍ لمواجهة المسلمين عند دخولِهم إلى مَكَّة.
مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع صحابته، وعندما وصل إلى حدود مَكَّة في منطقة اسمها (الحديبيَّة)، وحالياً تُسمَّى الشميسي، تقع غرب مَكّة على بعد 22 كم منها، توقَّفتَ ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء عن المضيّ إلى الأمام، فأخبر النبي أصحابه بأنَّها توقَّفَت بأمر الله عز وجل. وبذلك توقَّفوا جميعاً في المكان الذي وصلوه، ولم يطل بِهم الوقوف حتى أرسلَت قُريش بمبعوثيها للتفاوض معهم، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، عثمان بن عفان زوج ابنته إلى قريش وقال له: "أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام".
فذهب عثمان ولبثوا ينتظرون دون أن يعود عثمان، ومع تأخّره، شاع خبر أنّهم قتلوه، وعند ذاك دعا النبي أصحابه، وكان تحت الشجرة، فالتمّوا جَميعاً إليه، ودعاهم للبيعة، فبايعوه بأنَّهم لن يسكتوا على هذا التجاوز بحق مفاوض أعزل ذهب للتفاوض السلمي، وهو يمثلهم جميعاً، والاعتداء عليه هو اعتداء عليهم جميعاً بكونه ممثّلهم. فقال النبي: "لا نبرح حتى نناجز القوم". وسمّوا هذه البيعة ببيعة الرضون.
هُنا يا بُني على الإنسان ألّا يسكت عندما يحصل اعتداءٌ عليه، بل أن يُدافِع عَن نفسه بحدود الإمكانات المُتاحة لديه ولا يقبل أن يكون جَباناً.
ولكن وهم في غمرة ذلك، جاء عثمان بعد كل ذاك التأخير، وقد أخبرهم بأنَّهم قدموا للعمرة، وكان يتفاوض معهم، وأخبر النبي

بأنّهم وافقوا على التفاوض، وأنَّهم سوف يُرسلون مبعوثاً من أجل كتابة عقد الاتَّفاق.

أردف أبي يقول: كان النبي عليه الصلاة والسلام ممثلاً للمسلمين بصفته حاكم المدينة، وجاء سهيل بن عمرو مُمثِلاً عَن المشركين بصفتهم حُكَّام مَكَّة.
وعند البدء في العَقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.
فاعترض سهيل على البسملة في بدء محاولة الصلح قائلاً: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم.
لم يعترض النبي عليه الصلاة والسلام، فطلب من علي أن يكتب ما يقوله الشريك في الصلح. ثم قال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو".
فاعترض سهيل مرة أخرى على عبارة (رسول الله) قائلاً: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.
لقد كان الرجل مُعبّراً عن عدم إيمانِه، فلم يفرض عليه النبي أمراً لا يؤمن به لأن الله هو الذي يقذف الإيمان في قلب مَن يشاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو".
فجرى الاتفاق على:

- (وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- أن من آمن وأتى النبي صلى الله عليه وسلم دون إذن وليه رده، ومن أتى قريشاً ممن كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه.
- أن بينهم عيبة مكفوة.

- أنه لا إسلال ولا إغلال.
- أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
- أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم عن مكة عامه ذاك فلا يدخلها.
- أن تخرج قريش عن النبي صلى الله عليه وسلم في العام القابل عن الحرم فيعتمر ويدخل مكة بأصحابه.
- ألّا يكون معه في دخوله مكة غير سلاح الراكب وتكون السيوف في القرب.
- ألّا يخرج من مكة بأحد من أهلها إن أراد أن يتبعه.
- ألّا يمنع أحداً من أصحابه إن أراد البقاء بمكة والإقامة فيها).

في تلك اللحظات الأولى مِن الصلح الذي شهد عليه كل من: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن أبي مسلمة، ومكرز بن حفص، وعلي بن أبي طالب، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى النبي، فقام إليه سهيل وضرب وجهه قائلاً للنبي: (يا محمد قد لُجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدقت". فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأُرد إلى المشركين يفتنونني في ديني).

لقد زاد هذا المنظر الصحابة ألماً مِن نص هذا الصلح، ولكنهم امتثلوا لأمر النّبي الذي يمتثل به لله تعالى، وقد رد على أبي جندل: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم".

ورغم أن النزاع لم يحصل، فإن الله بارك لهؤلاء الصحابة الـ 1400 موقفهم، فأنزل سبحانه وتعالى: {**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**}الفتح18. وصارَت هذه الشجرة التي وردت في القرآن الكريم تُعرَف بـ شجرة الرضوان.

فقال النبي فيما حصل لناقَته من التوقّف عن المسير: "ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل". بمعنى أن الذي أوقف الفيل حين أراد أبرهة أن يهدم الكعبة، هو الذي أوقف الناقة.

وكان مِن نتائج هذا الصلح أن دخل اثنان مِن أقطاب قياديي جيش قريش الاسلام وهما: خالِد بن الوليد، وعمرو بن العاص، فعندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم مع صحابته في العام القادم إلى مَكَّة لعمرة القضاء، بحسب معاهَدة الصلح، سأل عن خالد بن الوليد، وعندما بلغه سؤال النبي عنه تأثَّر بهذه المُبادَرة السلميَّة رغم كل ما قام بِه مِن حروبٍ ضدّ المُسلمين. وفي ذلك يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: (لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في عمرة القضية، تغيبتُ ولم أشهد دخوله، فكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، وكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومِثْلُ الإسلام يَجْهَلُهُ أحد؟! وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم عنك، فقال: "أين خالد"؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: "ما مِثْلُهُ جهل الإسلام، ولو كان جعل نِكَايَتَهُ وَجِدَّهُ المسلمين على المشركين كان خيرا له ولقدمناه على غيره"، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، وقد فاتتك مواطن صالحة، فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام). وأسلم معه عمرو بن العاص.

الإنسان موقفٌ يا بُني، والشجاعة عندما تكون في موضِعها فهي واجِبة، وعلى الإنسان أن يكون له موقِفه.

كان عليه الصلاة والسلام يجنح إلى السلم، تقول أم سَلَمة رضي الله عنها: (مَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ، أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ")[1].
ويقول وهو يحث الناس على التصالح: ("لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ"[2].
وكان عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الرفق فيقول: "إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شَيءٍ إِلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شَيءٍ إِلَّا شانَهُ"[3]. ويقول: "إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[4].

[1] رواه أبو داود في سننه رقم (4495) عن أم سَلَمة، كِتاب الْأَدَب، أبوابُ النَّوم
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (5908) عن أبي أيوب الأنصاري، كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة
[3] رواه مسلم في صحيحه رقم (4698) عن عائشة، كتاب الْبِرّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ فَضْلِ الرِّفْق
[4] رواه مسلم في صحيحه رقم (4825) عن عائشة، كتاب الْبِرّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ فَضْلِ الرِّفْقِ

بين الدِّين والدُّنيا

لم أكن أعلم أن اليوم الأوَّل مِن ذهابي إلى الجامِعة للتسجيل فيها، سوف يحمل لي كل هذا الألم.
يا إلهي، كم تمزَّقتُ وأنا أسجّل في السنة الأولى في علم الاجتماع، حينها حضر (لوجان) ابن خالي بكل قوَّة إلى ذاكِرَتي كما لو أنَّه معي، عاد كل ذاك الحديث الذي كان يدور بيننا عَن المُستقبل.
لوجان بكل رقَّته، وقد أمضينا معاً منذ الصف الأوَّل وحتى الصف التاسع، وقد أحبَّني وتعلَّق بي كما أحببته وتعلَّقتُ به.
وكان يأتي إلى بيتِنا، وأحياناً أذهب إلى بيتهم ونمضي الأوقات معاً ونحن نتحدَّث ونضحك ونُخطّط للمستقبل، وكل واحدٍ يُصارح الآخر بأسراره وأمنياتِه، وذات يوم جاء إلى المدرسة وكان حزيناً شاحِباً فقلتُ له: ما بكَ يا لوجان، أحوالك اليوم لا تُعجبني؟
بكى وقال: أبي وأمّي تشاجَرا، وتركَتْ أمّي البيت.
ورأيته يتغيَّر ويشحب وجهه يوماً بعد يوم وهو يقول لي: أكاد أُجنَّ يا محمد، البيت دون أمّي له وحشة، وأبي أيضاً أصيب بنوبة اكتئاب، ولم يَعد يَخرج مِن البَيت.

بعد ذلك غاب لوجان عن المدرسة، ولم يعد يزورني في البيت، وحتى هاتفه غدا خارج التَّغطية.
فذهبتُ أسأل عنه في البَيت، وكان خالي لوحده، فجلست قليلاً ثم قلت: أين لوجان يا خالي؟
فقال بوجهه الثقيل الكئيب: خرج منذ شهر، ولم يَعد، ولا أعرف شيئاً عَنه.
وكانَت أمّي أيضاً قَلِقة عليه مِن جهة، وعلى أخيها مِن جهةٍ أُخرى خاصّةً عندما أفضى الخِلاف بين خالي وزوجته إلى الطلاق.

ذات يوم وكانت مضت سنة على عدم رؤيتي له، تفاجأتُ به يُهاتفني، ويقول بأنَّه يُريد أن يراني.
أحسستُ بفرحٍ، لأنَّني كنتُ بشوقٍ إليه، فقلتُ لأمّي بأنَّني سأخرج وألتقي لوجان.
ذهبتُ إلى المكان وشعرتُ بتمزّقٍ في قلبي عندما وقَعَتْ أنظاري عليه، كان يرتدي ثياباً رثَّةً، وقد طال شعره الأشعث، وكانَت ملامِحه قد تغيَّرَت كثيراً، وبدا أنَّه لم يستحم منذ مدَّةٍ طويلةٍ.
فأخذته في حضني وصرتُ أقبّله ويُقبّلني ودموعنا تنهمر.
أمسكتُ بيده وقلت: كيفك يا لوجان، لماذا تغيَّرتَ هكذا؟
قال: أنا مُتعبٌ جدّاً يا محمد، أشعر بأن الحياة كلّها تضيق عليَّ.
قلت: لنذهب إلى البيت.
قال: لا يا محمد.
قلت: خالتك أوصَتني أن أجلبكَ معي إلى البيت، لأنَّها اشتاقت إليكَ كثيراً.
قال: لا أريد أن أرى أحداً، أشعرُ بأنَّني انتهيت.
قلت: إذن لنذهب إلى مطعم ونجلس ما دمتَ مُصرَّاً ألّا تأتي إلينا.
هزَّ رأسه ومضينا حتى دخلنا إلى أقرب مطعمٍ، وجلسنا إلى طاولةٍ مُنزويَّةٍ، فقلتُ له: لماذا تركتَ الدِراسة يا لوجان وأنتَ الذي كُنتَ تقول بأنَّك تُريد أن تصبح أستاذاً للكيمياء.
ابتسَمَ بسمة باهِتة وقال: الأمنيات شيء، والواقع شيءٌ آخَر يا محمد، أشعرُ الآن بأنّني ضائعٌ في صحراء مجهولة، وهذا الشعور يُرعبني ولا يتركني طَوال الوَقت، وفي الليل أشعر بأشباحٍ تحوم حولي في الغُرفة، فأترك الضوء مشتعِلاً ولا أستَطيع النَّوم.
صدّقني يا محمد لم تغب عَن بالي يوماً واحِداً، ولكنَّني قطعتُ علاقتي بكل هذا العالَم، وحتى هاتفي حطَّمته، واليوم فقط طلبتُ مِن أحد الأشخاص أن يُعيرني هاتفه كي أجري الاتّصال بك، نعم يا محمد لقد بقي رقمُكَ في ذاكِرَتي وكيف لي أن أنساه. اليوم، اليوم،

لا أعرف لماذا أحسستُ بأنَّني لم أعد قادِراً على مقاومة شوقي إليك.

أمضينا نحو ساعَتَين معاً، وتناولنا الطعام، ثم ودَّعته على أن نلتقي بين حينٍ وآخر، ولكن بعد أسبوعٍ كان الخبر المُفجع عندما سمعتُ بأنَّه قد انتحرَ بواسطة حبل في غُرفته التي يُقيم فيها.
كانَت بالنِسبة لي صدمة مروِعة تلقَّيتها، وانتابني شعورٌ بأن جزءاً منّي قد اختفى عَن هذا العالَم.
ولكنَّ الله عوَّضَني، فبعد عدَّة أيَّامٍ وبينما كنتُ حزيناً في باحة المدرسة، تقدَّمَ منّي طالبٌ أراه في المدرسة، ولكن لا يوجد تعارفٌ بَيننا.
قال: تبدو حزيناً يا محمد؟ وكما لو أنَّه استدرَكَ فقال: أنا مارك، في الصف العاشر معك، ولكن في شعبةٍ أُخرى.
قلتُ: تشرَّفتُ بك يا مارك، أنا حزينٌ على لوجان؟
قال: أينَ هو، منذ مدَّة طويلة لم أره؟
قلت: انتحر منذ عِدَّة أيَّام
بدا مارك مُتأثِراً بِما سمع وقال: ليتكَ لم تُخبرني بذلك يا محمد.
قلت: لذلك أنا حزينٌ، كان لوجان صديقي، وابن خالي.
قال: ما رأيك أن نُصبح أصدِقاء؟
قلت: موافق.
ومن يومها يرسل لي كل صبيحة جمعة بالواتس بطاقة مُزخرَفة مكتوب عليها: (جمعة مُبارَكة).
فأكتب له: أشكرك صديقي الغالي مارك، وجمعتكَ أيضاً مُبارَكة.

تداعَت كل تلك المشاهِد إلى مُخيّلَتي، حتى انتهيتُ مِن الإجراءات المطلوبة للتسجيل في الجامِعة، وعدتُ إلى البَيت، وكانَت أمُي

تنتظرني لتُهنّئني، وكان أبي أيضاً قد عاد مُبكِراً مِن المكتبة كي نتناول الغداء معاً بهذه المُناسَبة في أحد المطاعِم.
احتضنتني أمّي وهي تقول: مبروك يا محمد، لقد دخلتَ الجامعة، لا أكاد أصدّق أن السنوات مضت بهذه السرعة.
وبدأت دموعها تنهمر، ثم أخذني أبي في حضنه، وهو يبارك لي هذا الانتقال إلى الحياة الجامعيَّة، ولم تكن الغصَّة تُفارِق حنجرتي، وأنا أتذكَّر بِحرقة لوجان الذي كان سيُسجّل اليوم معي للدخول إلى الجامعة في قسم علم الكيمياء الذي أحبَّه.
في تلكَ اللحظات وأنا أنفجر بالبُكاء، بدأتُ أشعر أكثر مِن أي وقتٍ مضى مدى حاجَتي القصوى إلى أبوَي.
بعد أن تغدَّينا في المطعم، أعادَنا أبي بسيَّارَته إلى البَيت، وعندما أراد الذهاب إلى المكتبة، لا أدري لماذا قلت له: ابقَ معنا اليوم يا أبي.
فنظر إليَّ باستغراب، كما نظَرَت أمَي إلي باستغراب، ورأيتها تهزّ رأسها له، فقال: حاضِر يا ولدي، لن أذهب.
هكذا شعرتُ بحاجة أن نكون معاً، وارتعبتُ في لحظةٍ مِن تصوّر ابتعادهما عنّي، أو ابتعادي عنهما.
جلسنا معاً، فقال أبي: عندما لا يكون للإنسان هدف في الحياة، فإنَّه يشعر بالضَياع، والهدف يجعلك تشعر بمسؤوليَّةٍ تجاه نفسك، وتجاه الحَياة.

ولكن أريدُ أن أخبِرك يا محمد بأن الحياة ليست دائِماً تحمل لنا المسرّات، بل أحياناً تحمل لنا المُنغِّصات أيضاً؛ وكما أن المسرّات هي جزءٌ مِن الحياة، فإن المُنغِّصات هي أيضاً جزءٌ مِنها.

وما هو مهمٌّ أن تبقى مُحافِظاً على معنويَّاتِكَ في مواجهة هذه المُنغِّصات ولا تجعلها تنال مِن عزيمتكَ في الحياة.

أن تبقى مُحافِظاً على مبادئك وقيمكِ مهما حيكت ضدَّك محاولات الإخضاع، فلا يكفي أنَّكَ تُجيد المشي بثقةٍ في حقول الورود الآمِنة، بل عليكَ أن تُجيد المشي بحذرٍ في حقول الألغام المحفوفة بالمخاطِر أيضاً وتجتازها بسلام.

كان أبي يتحدَّث، ولا تكاد صورة لوجانٍ تُفارِق مُخيّلَتي، فهكذا بكل بساطةٍ يمكن للإنسان أن ينهار بغتةً تحت وطأة ظروفٍ قاسيةٍ تواجِهه، هكذا أمام عثرةٍ من عثرات الحَياة تنطفئ فيه الحيويَّة، وتتحطَّم كل معنوياته، فلم تعد المسألة بالنسبة لي مسألة الموت عندما يأتي بحكم المرض أو أي طارئ بشكلٍ طبيعيٍّ، بل أن يبلغ الإنسان مرحلة يغتال فيها نفسه وهو في قمَّة الحياة.
وفي هذه المرحلة التي أنفتح فيها على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، اكتشفتُ بأن الإنسان هو أقوى مِن كل الظروف التي يمكن لها أن تواجِهه، ولا توجد ظروفٌ تكون أقوى مِن الإنسان، ولكنَّه قَد يتوهَّم بأنَّها أقوى منه، فيرضخ لها، ويستسلم لظلمة اليأس.
قال أبي: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي لكل شيءٍ حقَّه، ويُقسّم الوقت بانتظامٍ بين العِبادة، وبين القِيام بواجباته العائلية والإنسانية.

يقول أنس بن مالك: (جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ.

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا.
وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: "أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي")[1].

كان عليه الصلاة والسلام يدعو المُسلم أن يكون اجتماعياً، ومتواصِلاً مع الناس ومحافِظاً على علاقاته معهم، وألّا يكون مُقصِّراً في واجِباتِه، وفي حقوق الناس عليه.
يقول حنظلة: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَعَظَنَا، فَذَكَّرَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ.
فَقَالَ: "مَهْ".
فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ.
فَقَالَ: "يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ")[2].

يقول سِمَاك بن حرب: (قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ كَثِيراً، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ أَوْ الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ

[1] رواه ابن حبان في صحيحه رقم (318) عن أنس بن مالك، كِتاب الْبِرّ وَالْإِحْسَان، بَاب مَا جَاءَ فِي الطَّاعَات وَثَوَابِهَا
[2] رواه مسلم في صحيحه رقم (5067) عن حنظلة، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا

الشَّمْسُ قَامَ وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ)[1].

عندما بحث مايكل هارت واستقصى العُظماء كي يؤلّف كتابه (العظماء مائة). انبهر بشخصية محمد عليه الصلاة والسلام وهو يطّلع على سيرته مِن مُختلَف المَصادِر والمراجع. ولم يَجد كما يقول في هذا الكِتاب مَن هو أعظم مِن محمد عليه الصلاة والسلام. ونوَّه في مُقدِّمة كتابة إلى هذه الحقيقة التي توصَّل إليها، فقال:

(إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي. أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً، وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضاً في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها. لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قوة جبارة لا يستهان بها فيمكن أن يقال أيضاً إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ).

ولم يكن هذا الكلام لِمُجرَّد الكلام، بل كان نتيجة أدلّة وقرائِن، فقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم خِلال مسيرة حياتِه العَطِرة أن يؤسِسَ لهذا المَنهَج الوَسَطي المُعتَدل ما بينَ الدِّين، وما بينَ الدُّنيا.

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (4411) عن سِمَاك بن حرب، كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ تَبَسُّمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ

يقول عبد الله بن عمر (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ" قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: "فَلاَ تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا")[1].

أنتَ الآن مشرفٌ للدخول إلى حياةٍ عمليَّةٍ جديدة، هي حياتك الجامعيَّة يا محمد، وعلاقاتك مع الناس سوف تتّسع أكثر، وهذه مرحلة سوف تؤسّس فيها حياتك.
ثم ألقى نظرةً إلى أمّي، وعادَ ينظر إلي وقال: لا تحرم نفسك مِن الحياة، ولكن لا تفرط في الانجرار إليها أيضاً، لأنَّ النفس لا تعرف الشبع.
يقول الإمام الشافعي:

إذا حارَ أمرُكَ في مَعْنَيَيْن ولم تدرِ حيثُ الخطأ والصوابُ
فخَالِفْ هَوَاكَ فإنَّ الهوَى يقودُ النفوسَ إلى ما يعابُ

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

وَالنَفسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبتَها وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقنَعُ

حاول أن تملأ حياتك بالتنوّع يا بُني، لأنَّ التنوّع غِنى بكل الأحوال، وحتى بالنِسبة للعمَل، فعليكَ أن تُلِمَّ ببعض الأعمال إضافةً إلى عملك الرئيسي، لأنَّكَ لا تعلم التحوّلات التي قد تواجِهكَ، نعم التحوّلات التي لم تكن تخطر لكَ على بال، فتُصدَم بِها وتراها وقَد تحوَّلَت إلى واقعٍ ملموسٍ وفُرِضت عليك.
التحوّلات غير المتوقَّعة هي جزءٌ مِن الحياة يا بُنَي، ولذلكَ عليكَ أن تؤمِن بِها، وتتوقَّع دوماً ما هو غَير مُتوَقَّع، وتحسب له حساباً.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (5805) عن عبد الله بن عمر، كتاب الأدب، باب حق الضيف

الفصل الرابع

عائشة بنت أبي بكر
رضي الله عنها

اقترب شهر رمضان، وبدأتُ أتخيَّل كم أن رمضان هذه السنة سيكون مميَّزاً، لأنَّ أمّي سوف تصوم معنا، رغم أنَّها كانت تنهض وتعدّ السحور، وتُشارِكنا الطعام، وكذلك عند الإفطار، ولم يسبق لي أن رأيتها تتناول لقمة طعام، أو تشرب شربة ماءٍ في أوقات الصيام.
وأنا أتخيَّل تلك الأجواء الرمضانيَّة، جاءَ أبي مِن المكتبة، وقبل أن يستبدل ثيابه، قال: لكما عندي مفاجأة تسركما.
قالت أمّي: ما هي ياعمران؟
وقلت: أفرِحنا بِها يا أبي.
ولم يُخبِرنا بشيءٍ حتى حلول اليوم الأوَّل مِن رمضان، فقال والبسمة تشعُّ على وجهه: رتَّبتُ لي إجازةً مِن العمل، وسنذهب للعُمرة.

وفجأةً غمرتني فرحة ليس بمقدوري وصفها، ورأيتُ أمّي أيضاً تبكي مِن شدَّة الفَرح وهي تقول: صحيح يا عِمران، صحيح سأرى كل تلك الأماكن المُقدَّسة؟.
قال أبي: صحيح يا سارة، سنمضي رمضاننا هُناك.
قالَت أمّي: هذا أوَّل رمضان أصومه يا عمران، ويا لي مِن محظوظة، سأصومه وأنا في تلكَ الدِّيار التي طالما تحدَّثتَ لي عَنها، وقرأتُ عَنها.
قال متَّجِهاً بكلامِه إلي وهو يربت على كتفي: وهذه فرصة لك أيضاً يامحمد طالما أن الجامعة في عطلتها السنوية.
وانطلقنا في اليوم الثاني مِن رمضان، ولم نشعر بالمسافة ونحن نتحدث حتى وصلنا مَكَّة، وكان الوقتُ مساءً، وعندما نزلنا ثلاثتنا، أحسستُ بانشراحٍ في صدري ونحن نمدَّ خطواتنا الأولى على أرض مكَّة، ورأيتُ أمّي مُنذَهِلة وهي تنظر إلى الأجواء، والطرقات، والناس، والأضواء. ثم اتَّجهنا إلى الفندق، استرحنا نحو ساعة، وخرجنا إلى تلك الأجواء، كان مَنظراً رائِعاً، تجمّعات الناس مِن مُختلَف أصقاع الأرض، كما لو أنَّهم أخوة جاؤوا ليَصِلوا أرحامهم، جاؤوا ليلتقوا ببعضِهم بعضاً.
تمتمتُ في نفسي ونحن نمضي: هذه مِن الإنجازات الإنسانيَّة الطيّبة التي تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، فهاهم الناس يلتقون ببعضهم البعض هُنا كما لو أنَّهم عائلة واحِدة.
وطَلَبَت أمّي أن يستمرَّ أبي في حديثه عَن السيرة النبويَّة ونحن نعيش تلكَ الأجواء، وأن يتحدَّث عَن أمّهات المؤمنين، سيّدات بيت النبوّة.
وشجَّعتها على الفكرة، وقلتُ لأبي بأنَّني أيضاً أريد ذلك، فوافق أبي، وفي المساء جلسنا في الفندق، فقال: بعد نحو أربع سنوات على زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين الكريمة سودة بنت زمعة، وهي الزوجة الثانية له بعد وفاة أم المؤمنين

الكُبرى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، تزوَّجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم زواجَه الأوَّل في المدينة من عائشة ابنة الصحابي الجليل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، الذي كان رفيقه في رحلة الهِجرة.
وهو: عبد الله بن أبي قُحافة عُثْمَان بن عَامر بن غَالب بن فِهر القرشي التيمي.
وَأُمُّها هِي أُمُّ رُومَانَ بِنتُ عَامِر بنِ عُوَيْمِر بن عَبدِ شَمسٍ بن عَتَّاب بن أُذَيْنَةَ الكِنَانِيَّة.

وكان أبو بكر مِن أعمدة الدعوة، فهو صاحبه، ورفيقه، ومؤازره.
قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَأْنَاهُ، مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ"[1].
وجاءَ عَن عثمان، قال: (حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلاَسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: "عَائِشَةُ"، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟، فَقَالَ: "أَبُوهَا"، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب"، فَعَدَّ رِجَالًا)[2].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم رأى عائشة في المنام قبل أن يتزوَّجها، وفي ذلك تقول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: (أُرِيتُكِ قَبْلَ أنْ أتَزَوَّجَكِ مَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُ المَلَكَ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِن حَرِيرٍ، فَقُلْتُ له: اكْشِفْ، فَكَشَفَ فإذا هي أنْتِ، فَقُلْتُ: إنْ يَكُنْ هذا مِن عِندِ اللَّهِ يُمْضِهِ، ثُمَّ أُرِيتُكِ يَحْمِلُكِ في سَرَقَةٍ مِن حَرِيرٍ، فَقُلْتُ:

[1] رواه الترمذي في الجامع رقم (3752) عن أبي هريرة، أبواب المناقب
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (3495) عن أبي عثمان، عن عمرو بن العاص، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً خليلاً

اكْشِفْ، فَكَشَفَ، فإذا هي أنْتِ، فَقُلْتُ: إنْ يَكُ هذا مِن عِندِ اللَّهِ يُمْضِهِ)[1].

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، هي الزوجة الوحيدة التي تزوَّجها النبي وهي بكر.

عندما انتقلت إلى بيتِها الزوجي، صارت تقوم بواجبات الزوجة المُحبَّة له، فكانَت تضع له الطِيب، وتعد الطعام، وتقوم بواجِباتِها المَنزليَّة. وكان أحياناً يقول لها: يا عائِش، وأحياناً: يا حميراء.

تقول رضي الله عنها: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً: "يَا عَائِشَ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلاَمَ"، فَقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)[2].

وتقول: (دَخَلَ الْحَبَشَةُ الْمَسْجِدَ يَلْعَبُونَ فَقَالَ لِي: "يَا حُمَيْرَاءُ، أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِمْ"؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَامَ بِالْبَابِ وَجِئْتُهُ فَوَضَعْتُ ذَقَنِي عَلَى عَاتِقَهُ فَأَسْنَدْتُ وَجْهِي إِلَى خَدِّهِ)[3].

وكان عليه الصلاة والسلام يلاطفها، وفي ذلك تقول: (خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: "تَقَدَّمُوا" فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: "تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ" فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ" فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: "هَذِهِ بِتِلْكَ")[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (6645) عن عائِشة، كتاب التعبير، باب ثياب الحرير في المنام

[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (3768) عن عائِشة، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها

[3] ا أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (9099) عن عائِشة، كتاب عشرة النساء، إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب

[4] أخرجه أحمد في مسنده رقم (25717) عن عائِشة، حديث السيدة عائِشة رضي الله عنها

وكالعادة، عندما يُحقّق المرءُ نجاحاً، يظهر خصومٌ لهذا النَجاح ويُريدون أن ينالوا مِنه، فكما أن أهل الخير يسعون إلى لم شمل الناس كعائلة واحدة، فإن أهل الشر يسعون إلى تفتيت الناس عن بعضهم بعضاً، وبث الشرذمة فيهم.

كانت العلاقة بين الأنصار والمُهاجرين من أرقى العلاقات الإنسانية النبيلة، وسنة بعد سنة كانت العلاقة تقوى وتؤتي أكلها. وأخذت دعوة الإصلاح التي حمل لواءها رسول الله صلى الله عليه وسلم تتَّسع وتُصبح أكثر قوَّةً.
ومِن الجانِب الآخر كان الخصوم يفعلون ما بوسعِهم كي يبثّوا الانشقاقات في صُلب هذه العلاقة بين المُهاجرين والأنصار، ويتواصَلون ويتحالَفون مع بعضهم البعض، فكانَت المُحاولات ترتكز على إيجاد العوامل التي تجعل الأنصار يصطَدِمون مع المُهاجِرين، وينشب القِتال بَينَهم، وهكذا يضعف الطَرَفان، ويتمكَّن الخصوم مِن السَيطرة على الوضع، بل إنَّ أحد الأطراف سوف يستدعي بنفسه هؤلاء الخصوم للتدخّل كي يستقوي بهم على الآخر، وهكذا سيجد الخصوم مُبرّراً للدخول، بل ويدَّعون بأنَّهم استُدعوا للتدخّل مِن قِبَل أهل الدار، فَلَبّوا الدَعوة.

ولكن قبل ذلك سوف يعملون كي يحتَدم الصِراع في الداخل، ويحصل فيه نزيفٌ داخلي مُروع. فعندما رأى المُنافِقون، وعلى رأسِهم عبد الله بن أُبي ابن سلول، انتشار الإسلام في المدينة، حاولوا إحداث بعض الانشقاقات فيهم.

وفي ذلك يروي جابر رضي الله عنه: (كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"دَعْهُ، لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ")[1]. ففشلت هذه المُحاولة بحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعندما عَلِمَ ابنه بأن أباه كان يقصد محمداً عليه الصلاة والسلام بقول: (وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ). ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (يا رسول الله قد علمت المدينة أنه لا يوجد أحد أبر لأبيه مني فإن تريد قتله فأمرني أنا فإني لا أصبر على قاتل أبي). وكان ابنه مِن خَيار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان اسمه (حُباب) مِن زوجته خولة بنت المنذر بن حرام بن عمرو. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام غيَّر اسمه مِن حُباب إلى عبد الله.

وفي طريق عودة الجيش منتصراً إلى المدينة، لم يسكت المُنافِقون الذين استطاعوا أن يدسّوا أنفسهم في هذا الجيش، فأرادوا أن ينالوا نفسياً مِن معنويات رسول الله صلى الله عليه وسلم، مِن خلال افتعال حادثة الإفك، ولكن الله عز وجل بيَّن الحقيقة مِن خلال ما أنزل على قلب رسوله من آياتٍ في سورة النور ببراءة أم المؤمنين عائشة مِن الإفك الذي افتعله رأسُ المُنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول الخزرجي الذي كان يُريد أن يكون حاكِماً على المدينة، ويستغل أيَّة بؤرة كي يُثير مِن خلالِها ما يؤذي المسلمين، وما يجعل الشِقاق ما بين المُهاجِرين والأنصار.

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (4905) عن جابر، سورة المنافقين، باب قوله سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم

وكان يَدَّعي الإسلام، بل وكان مِن ضمن جيش المسلمين في معركة المصطلق. وعند عودة الجيش من هذه المعركة، سارع إلى مدخل المدينة، وتقدَّم إلى أبيه قائِلاً: (والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله). وهو يُشهِر السيفَ في وجهه.

وقبل ذلك بثلاث سنوات، في معركة أحد التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة، كان لعبد الله به أُبي ابن سلول، موقفه المُعادي للمسلمين حينما انسحب بنحو ثلث الجيش مِن المعركة وقال: (ما ندري علام نقتلُ أنفسَنَا).
والآن أراد أن يوجِّه ضربَة النِفاق الأقوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، في طريق العودة من معركة المصطلق إلى المدينة، وذلك مِن خِلال افتعال حادثة الإفك والترويج لها بحق أم المؤمنين الطاهِرة عائشة رضي الله عنها.

قلت: كيف حصل ذلك يا أبي؟
قال: مِن خِلال واقِعة طبيعيَّة، وما كان لها أن تُذكَر لولا أن ابن سلول، هوَّلَها وضخَّمَها وأراد أن يوظِّفها لتحقيق مآرِبه.
فعندما عاد النبي صلى الله عليه وسلم برفقة الجيش بطمأنينةٍ وقد أبعدوا الخَطَرعن المسلمين في المدينة من حملة بني المُصطلق والمُتحالفين معهم، وكانت عائشة ترتدي عقداً أهدته لها أختُها أسماء، وعندما تجهَّزَت للعودة، انتبهت لضياع العقد منها، فراحت تبحث عَنه، وفي هذه الأثناء، قاد المُرافِقون هودَجها ظنّاً منهم بأنها راكبة عليه، وكانت شابة صغيرة خفيفة الوزن.
وعندما وَجَدت العقد وعادت، كانت القافلة قد ابتعدت والهودَج يمضي معها كما لو أنَّها فيه.
فجلست تنتظر أن النبي عندما لا يراها، سيعود ليأخذها، وستروي له ما قد حصل معها. وعند ذاك غفت ولم تستيقظ إلّا عندما جاء

الصحابي صفوان بن المعطل، والذي كان يتعقَّب الجيش من الخلف.

تقول عائشة رضي الله عنها:

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ)، وعند العودة تقول: (دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي ، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ)[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (4494) عن عائِشة، كتاب تفسير القرآن، باب **{لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات، بأنفسهم خيرا}** النور 12، إلى قوله: **{الكاذبون}** النحل:105

واستغل المُنافِقون ذلك، وبثّوا شائعةً هزَّت المُجتمَع في المدينة، وغدت حديث الساعة. وحدث تصعيدٌ عندما قال سعد بن معاذ بأنَّه على استعداد لقتل المُتسبّب في الشائِعة، وعارضه سعد بن عبادة لأن عبد الله بن أبي ينتمي إلى قبيلته
وتدخَّل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بحكمةٍ لتهدئة التصعيد.

قالَت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في استذكارِها للحادِثة:
(وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: "يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ"؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْراً، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ)[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: (وبَكَيْتُ يَومِي لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولَا أَكْتَحِلُ بنَوْمٍ، فأصْبَحَ عِندِي أبَوَايَ، وقدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ ويَوْمًا حتَّى أظُنُّ أنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبيْنَا هُما جَالِسَانِ عِندِي وأَنَا أبْكِي، إذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأنْصَارِ، فأذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي). هذا الموقِف من تلك المرأة بقي حاضِراً في ذاكرة عائشة رضي الله عنها، فلم تستطع تلك المرأة الأنصارية أن تفعل شيئاً كي تدين وتستنكر ما حصل، وتؤازِرها في شدَّتِها سوى تلك الزيارة البسيطة، وقد شارَكَتها البُكاء بصمتٍ وخرجت بصمت دون أن تقول شيئاً، ورغم ذلك فقد حفظت لها عائِشة هذه الزيارة، وقالَت: (لن أنساها لها).

كان الوضعُ مُضطرِباً في المدينة، ولا أحد يعلم ما الذي سيحصل، وما الذي سيفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يتعامَل مع الأمر بِما يجري على أرض الواقع، قبل نزول آيات الإفك.

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (2546) عن عائِشة، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً

قالت عائِشة رضي الله عنها: (فَبيْنَا نَحْنُ كَذلكَ إذْ دَخَلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَجَلَسَ، ولَمْ يَجْلِسْ عِندِي مِن يَومِ قِيلَ فِيَّ ما قيلَ قَبْلَهَا، وقدْ مَكَثَ شَهْرًا لا يُوحَى إلَيْهِ في شَأْنِي شَيءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: يا عَائِشَةُ، فإنَّه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وإنْ كُنْتِ ألْمَمْتِ بذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وتُوبِي إلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عليه، فَلَمَّا قَضَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، وقُلتُ لأبِي: أجِبْ عَنِّي رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقُلتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فِيما قَالَ، قَالَتْ: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ).

الموقفُ يا بُنَي كان حَرِجاً سواء بالنِسبة لأبيها، أو لأمِّها، وكذلك لها، فلم تكن مِن إجابةٍ منهما. وهُنا عبَّرَت عائِشة عَمّا شعرَت بِه في تلك اللحظات الحرِجة، وتحدَّثَت بحكمةٍ: (قَالَتْ: وأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لا أقْرَأُ كَثِيراً مِنَ القُرْآنِ، فَقُلتُ: إنِّي واللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أنَّكُمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ به النَّاسُ، ووَقَرَ في أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ به، ولَئِنْ قُلتُ لَكُمْ: إنِّي بَرِيئَةٌ -واللَّهُ يَعْلَمُ إنِّي لَبَرِيئَةٌ- لا تُصَدِّقُونِي بذلكَ، ولَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ- واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ- لَتُصَدِّقُنِّي، واللَّهِ ما أجِدُ لي ولَكُمْ مَثَلًا إلَّا أبَا يُوسُفَ إذْ قَالَ:
{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُونَ}[1]. ثُمَّ تَحَوَّلْتُ علَى فِرَاشِي وأَنَا أرْجُو أنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، ولَكِنْ واللَّهِ ما ظَنَنْتُ أنْ يُنْزِلَ في شَأْنِي وحْيًا، ولَأَنَا أحْقَرُ في نَفْسِي مِن أنْ يُتَكَلَّمَ بالقُرْآنِ في أمْرِي، ولَكِنِّي كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ ما رَامَ مَجْلِسَهُ ولَا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهْلِ البَيْتِ، حتَّى أُنْزِلَ عليه الوَحْيُ، فأخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حتَّى إنَّه

[1] سورة يوسف، الآية 18

لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ في يَومٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَضْحَكُ، فَكانَ أوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا أنْ قَالَ لِي: يا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللَّهَ، فقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ، فَقَالَتْ لي أُمِّي: قُومِي إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقُلتُ: لا واللَّهِ، لا أقُومُ إلَيْهِ، ولَا أحْمَدُ إلَّا اللَّهَ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}** الآيَاتِ[1])[2].

وكان ذلك بمثابة بداية جديدة بالنِسبة لعائشة التي غدت تتفقَّه في الدين، وتُكثر مِن العِبادة وترتقي في درجاتِها، وتحافِظ على بيتِها الزوجي، ومع السنوات تشعر بالمسؤوليَّة أكثر وأكثر، وهي التي أكرمها الله سبحانه وتعالى بتنزيل عشر آياتٍ مُتتاليات فيها. وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنة أبي بكر الصديق، حامل لواء الإسلام بعزيمةٍ، الذي وردَت صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن، وخليفة المسلمين الأوَّل، وابنة أم رومان بنت عامر الفراسية الكنانيَّة، وأخت الصحابي عبد الرحمن بن أبي بكر، وأخت ذات النِّطاقَين أسماء بنت أبي بكر.

وكان عليه الصلاة والسلام يعدل بين زوجاته فيما يملك في المبيت، والمأكل، والمشرب، والمسكن، والنفقة، وما إلى ذلك، وبيت النبوَّة هو من أفضل البيوت وأزكاها، وكانت مبنية على العدل والمساواة.

---

[1] عشر آيات كريماتٍ في سورة النور 11، 20 أُنزلت في تبرئة أم المؤمنين عائشة: **{إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ* لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ* لَّوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ* وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ* وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ* يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ* وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}**

[2] رواه البخاري في صحيحه (2661) عن عائشة

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"[1].

وفي الليلة التي يبيت فيها عند زوجة، كانت زوجاته يجتمعن في ذات البيت، وأحياناً يتناولن العشاء معاً ويتحادثن، ثم تنصرف كل واحدة إلى بيتها.

ولعل حبه لعائشة كان يرجح، فالإنسان لا يستطيع أن يحب أكثر من شخصٍ بذات الدرجة، سواء في الزواج، أو الأولاد، أو الأصدقاء، فدوماً يكون هناك مَن تكون درجته أكثر في المحبة.

وبذلك تقول عائشة: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي، فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي، فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ")[2]. فميل القلب خارج عن إرادة الإنسان، وزيادة المحبة في القلب تكون من الله عز وجل. جاء عَن أم سَلَمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: "يا أُمَّ سَلَمة لا تُؤْذِينِي في عَائِشَةَ، فإنَّه واللَّهِ ما نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وأَنَا في لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غيرِهَا"[3]. وهذا أيضاً لم يكن بإرادة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن يملك مكان أو زمان نزول الوحي عليه، بل هو تكريمٌ من الله سبحانه وتعالى لعائشة؛ حيث نزل جزءٌ من الوحي على قلب رسول الله وهو في لحاف عائشة رضي الله عنها.

ويمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، تقول عائِشة رضي الله عنها: (لَمَّا ثَقُلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واشْتَدَّ به وجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أزْوَاجَهُ في أنْ يُمَرَّضَ في بَيْتِي، فأذِنَّ له)[4].

---

[1] رواه الترمذي (3990) عن عائشة، أبواب المناقب، باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

[2] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (13814) عن عائشة، كِتَابُ الْقَسَمِ وَالنُّشُوزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}** سورة النساء، الآية129

[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (3599) عن عائِشة، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل عائشة رضي الله عنها

[4] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (5408) عن عائِشة، كتاب الطب، باب اللدود

عن أنس رضي الله عنه قال: (لَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ)[1].

بقيت السيّدة عائِشة رضي الله عنها كمصدرٍ ومرجعٍ لمعرفة سنن النبي صلى الله عليه وسلم، فكانَت تُزوّد المسلمين بهذه السنن الشريفة.

قال أبو موسى الأشعري: (مَا أُشكِلَ عَلَيْنَا أَصْحَاب رَسُوْل اللَّه حَدِيثٌ قَطُّ فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ، إِلَّا وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ عِلْمًا)[2].

وكانت رضي الله عنها امرأة حكيمة، وفصيحة اللغة، وتقرأ كتاب الله، والحكمة، وتحفظ الكثير من الأمثال والشعر.

قال الأحنف بن قيس: (سَمِعْتُ خُطْبَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم وَالْخُلَفَاءِ هَلُمَّ جَرًا إِلَى يَوْمِي هَذَا، فَمَا سَمِعْتُ الْكَلامَ مِنْ فَمِ مَخْلُوقٍ، أَفْخَمَ، وَلا أَحْسَنَ مِنْهُ مِنْ فِي عَائِشَةَ رضي الله عنها)[3].

عند ذاك حان وقتُ السحور، فنهضت أمّي وراحت تُعدّ لنا الطَعام، وبعد أن تناولنا السحور، خرجنا ثلاثتنا إلى المسجد، أدّينا صلاة الفجر جماعة، وعُدنا إلى الفندق، نمنا حتى العاشرة صباحاً، ثم استفقنا وخرجنا لتكملة المناسك.

---

[1] أخرجه الترمذي في الجامع رقم (3618) عن أنس بن مالك، أبواب المناقب

[2] رواه الترمذي في الجامع رقم (3978) عن أبي موسى الأشعري، أبواب المناقب، باب من فضل عائشة رضي الله عنها

[3] تاريخ دمشق، لابن عساكر

حفصة بنت عمر
رضي الله عنـها

في المساء عُدنا إلى الفندق، وبعد أن استرحنا نحو ساعة، استأنف أبي حديثه، فقال: عندما أُنزِلَ الوحيُ على قلب رسولنا الكريم عليه الصلاة والسَلام، كانت حفصة، طفلة صغيرة في الخامسة من عمرها، وهي أكبر أبناء عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني رضي الله عنه، الذي أسّسَ التقويم الهجري، وسُمّي بالفاروق لدقَّته الشديدة للتفريق ما بين الحق والباطل دون أن يميّز في ذلك ما بين المسلم وغير المسلم.

ترعرعت حفصة رضي الله عنهاعلى الإيمان، وجدِّية الحياة في بيتٍ مسلمٍ، وصارت تأخذ دروس تعلّم القراءة والكتابة من الصحابية شفاء العدوية، حتى محت أمّيَّتها ومع المواظَبة، تمكَّنت من أصول وقواعد اللغة العربية.

تزوَّجت حفصة عندما تقدَّم إليها الصحابي خُنَيس بن حذافة السهمي، وكان من ضمن المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وقد عاد إلى مَكَّة، وهو من الشبّان النشطاء الذين كان لهم السبق في دخول الإسلام والمُساهمين الأوائل في نشر الدعوة.
وكانَت هذه الأفكار تجمع ما بين حفصة وخُنيس، وكما أنّه غدا من أبرز النشطاء في الدعوة إلى الإسلام، غدت حفصة مِن أبرز نساء قريش فصاحةً وبلاغةً.
وعندما أذن النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة، كان لهما السبق أيضاً في الهجرة إلى المدينة التي هاجر إليها النبي. ورغم أنّها لم تنجب، إلّا أنّها صبرت، كما صبر زوجُها، ولم يتزوَّج خُنيس من

غيرها كي يُصبح أباً، كما أنَّها لم تطلب الطلاق كي تتزوَّج من غيره لتُصبح أمّاً.
وشارك خُنيس في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وكذلك في معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وأصيب بجروحٍ عديدة توفي على إثرها، لترى حفصة نفسها وقد تحوَّلت إلى أرملة وهي في العشرين من عمرها.
وعندما رآها أبوها عمر بن الخطَّاب في حزنٍ شديد، أراد أن يُخرِجها من ذلك، وفكَّر أن يزوّجها لتفتح صفحةً جديدةً من حياتِها.
فذهب إلى عثمان يقترح عليه الزواج من حفصة، ولكنه اعتذر، وعند ذاك راح إلى أبي بكر، وكذلك رآه يعتذر.
وعن بعض تفاصيل ذلك يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ, وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, قَدْ شَهِدَ بَدْرًا تُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ،
قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا.
قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟
قُلْتُ: نَعَمْ.
قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا)[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (4005)

تزوَّج النبي عليه الصلاة والسلام من حفصة بنت عمر بن الخطاب، وأخت عبد الله بن عمر، الذي كان يصغرها بست سنوات، وأمّها زينب بنت مظعون، وزينب يا بُنَي هي أخت عثمان بن مظعون، أتذكره؟

- أجل يا أبي، هو زوج خولة بنت حكيم التي اختارَت في مكّة السيّدة سودة بنت زمعة لتكون زوجةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

ابتسم أبي ابتسامة رضا وهو ينظر إلي، فتمتمتُ في قرارةِ نَفسي: أنا لا أستمع إليك فقط يا أبي، بل أحفظ ما تقول مِن شدَّة تركيزي في الاستماع، وعندما تنقطع عن الحديث، أبقى أعدُّ الساعات حتى تسنح الفرصة لأجلس معك، وتُحدّثني عَن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم العَطِرة التي دوماً تُدهشني بالجَديد فيها.

وقلتُ له: لا أخفيكَ يا أبي، بأنَّني صرتُ أقرأ بعض كُتب السيرة الموجودة في مكتبة البَيت، ولكن حديثكَ هو الأكثر قُرباً والأكثر تأثيراً، وأيضاً الأكثر تشويقاً.

قال: لكل مرحلة في كتابة السيرة خصائصها ومزاياها يا وَلَدي، لأنَّ لكل مجتمع في كل حقبة زمنيَّة خصائصه ومزاياه.

قَد نستغرب بعض العادات التي كانَت تحصل منذ ألف وأربعمائة سنة، أو في قرونٍ أخرى، ونحنُ الآن في هذا الزمَن المختلف تماماً، والمُجتَمَع المختلف تماماً بحكم التغييرات الهائِلة في نَمَط الحياة وطبيعتها.

ولكنَّها كانَت طبيعيَّة في ذاك المجتَمَع وذاك الزمَن، فلا تحكم على ما كان يحصل في تلك الأزمِنة، استناداً على مُستجدّات زَمَنك.

قلت: نعم يا أبي.

قال: كما أن لزمنكَ جماليّاته، فلتلك الأزمنة أيضاً جماليّاتها، والناس كانوا يعيشون الحياة ويستمتعون بِها، ويُنتجون فيها، كانَت حياتُهم

أيضاً حافِلة بالمسرّات والأطمعة اللّذيذة، والمواقف الإنسانيَّة المُبهِرة، كانَت حياتُهم مُشرِقة، كما كانت تحتوي أيضاً على بعض النَكَسات والآلام والفجائِع، ولكن الحياة كانَت تمضي مِن قرنٍ إلى قرن، ومِن تحوّلٍ مُجَتَمَعيٍّ إلى تحوّل حتى وَصَلَتنا، وتصلُ مَن سيأتون بَعدنا بِمُكتشفاتها الجديدة.

المُهم أن تسعى ما بجهدك يا بُني حتى لا تكون رَقماً في عدد سكّانِ الكرة الأرضيَّة في زمنك، لأنَ الأرقام كثيرة، بل أن تكون بصمةً وإنتاجاً وحضوراً. وهذه الدروس تتلقّاها مِن سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، لأن حياته اغتَنَت بمختلف الجوانِب التي يمكن للإنسان أن يعيشها ويواجِهها.

كان عمر بن الخطّاب حريصاً على ابنته حفصة، وكان يحبّها، وقد كُنّي بِها (أباحفص).

وتزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم لتُصبح رابع أمّهات المؤمنين، ولها نَسَبٌ به، عن طريق كعب بن لؤي، الجد السابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت أم المؤمنين حفصة تتحاوَر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتسعى إلى العلم، وفي ذلك تقول: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأرجو ألا يدخل النار أحد، إن شاء الله تعالى ممن شهد بدراً، والحديبية"، قالت: قلت: يا رسول الله أليس قد قال الله: **{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً}**[1]. قال: "ألم تسمعيه يقول: **{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً}**[2]"[3].

---

[1] سورة مريم، الآية71

[2] سورة مريم، الآية72

[3] رواه ابن ماجه في السنن رقم (4281)

وتقول: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يَأْتِي جَيْشٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، يُرِيدُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ، خُسِفَ بِهِمْ، فَرَجَعَ مَنْ كَانَ أَمَامَهُمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، فَيُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ". فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُسْتَكْرَهًا؟ قَالَ: "يُصِيبُهُمْ كُلَّهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ كُلَّ امْرِئٍ عَلَى نِيَّتِهِ")[1].

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (25897) عن حفصة ابنه عمر، مُسْنَدُ النِّسَاءِ، أَوَّلُ مُسْنَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

زينب بنت خزيمة

رضي الله عنها

أيامٌ ذهبيَّة حافلةٌ تمضي بِنا بسرعةٍ ونحن لا نريد لها أن تمضي حتى نبقى أكثر، حتى نرى أكثر.
المشي في طُرقات مكّة، موائد السَّحور والإفطار الجماعيّة، أصناف تمور وحلوى مَكَّة، أصناف الطَعام والشراب، الالتقاء بأفواج الناس، ارتداء ملابس الإحرام البيضاء، الطواف حول الكعبة، السعي بين الصفا والمروة، شرب ماء زمزم، الإكثار مِن قراءة القرآن، من الدُعاء، مِن الصلاة، مِن الذكر، مِن ترديد: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ) في حالةٍ روحانيَّةٍ لا يمكن تعويضها.

أمضينا اليوم التالي كله خارج البيت، وعندما حان موعد الإفطار، أفطرنا على الموائِد الجماعيَّة بين جموع الناس، ثم أدّينا صلاة المغرب، ولبثنا في تلك الأجواء التي لم نشبع مِنها حتى صلَّينا كذلك العَشاء والتراويح، وعدنا إلى البيت، وصار كل واحدٍ منَّا يقرأ القرآن نحو ساعةٍ، ثم جلسنا نستمع إلى أبي وهو يكمل حديثه عن سيّدات بيت النبوَّة الطاهِرات، فقال: كانت زينب بنت خزيمة في الجاهليَّة تُعرَف بأم المساكين، لأنَّها كانَت توليهم عنايتها، وتُكثر من إطعامهم والإحسان إليهم ما أمكنَها ذلك، وقد اعتاد بعض المساكين على عطاياها، وهي تشعر بمسؤوليَّةٍ تجاههم.
وتُعتَبَر زَينَب مِن المُدافِعات عَن حقوق المساكين الذين كانوا يُعانون الحاجة لأسبابٍ مُختلِفة سواء صحّيّة، أو التقدّم في السن، أو كثرة العيال، وما إلى ذلك.
وهي ابنة الحارث بن عبد الله بنِ عمرو بنِ عبد مناف الهلاليَّة، وقيل عن أمّها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث: (لا تُعْلَم امرأة

من العرب كانت أشرف أصهاراً من هند بنت عوف، فأصهارها: النبي صلى الله عليه وسلم، والعباس، وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر، وشداد بن أسامة بن الهاد).

وكانت زينب ولدت في مَكَّة، وهي بنت حسبٍ ونسب، أخواتها لأبيها وأمها: أم الفضل، أم بني العباس بن عبد المطلب، ولبابة أم خالد بن الوليد، وأختها لأمها: ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين.

دخلت زينب الإسلام وهي صغيرة السن، وهاجَرَت إلى المدينة، وعندما وقعَت معركة بدر، لم تبق في بيتِها، بل خَرَجَت تضمد الجرحى بِما لَدَيها مِن خِبرة، وإلى جانِب ذلك تُقدِّمُ الطَعام والماء لهم.

ثم قال أبي بعد صمت قصير: كانَت تستثمر أوقاتها لتُقدِّم النفع للناس، فتُعلِّمُ النساء وتمحو أمّيتهنّ، وتستمر في تفقد شؤون المساكين واليتامى والأرامل وتقديم المساعدات لهم بِما أمكنها مِن كفالة ورعاية.

وقَد أكرَمها الله بِمنزلة دخول بيتِ النبوَّة الشريف وأن تكون زوجةً طاهِرةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيش معه في بيتٍ واحدٍ وتحت سقفٍ واحدٍ، وتُصبح الأمّ الخامِسة للمؤمنين رضوانُ الله عَليها.

وعند زواجها من النبي صلى الله عليه وسلم، بنى لها بيتاً خاصّاً بِها إلى جانب بيت سودة، وبيت عائشة، وبيت حفصة.

ولكنَّ عمرها لم يكن طَويلاً، وكذلك لم تدم في بيتِ النبوَّة وخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعد نحو ثمانية أشهر، ماتت أمُّ المؤمنين زَينَب وهي في نحو الثلاثين مِن عُمرِها، وكان ذلك في السنة الرابِعة للهجرة، ولم يمت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

سوى خديجة في مكة، وزينب في المدينة رضي الله عنهما. وحزنَ النبي لموتِها، وذكَّره ذلك بموتِ خديجة.
ورغم العُمر القصير، إلّا أنَّ زينَب رضي الله عَنها تَركَت بصمتها مِن خِلال أعمال الخير التي عُرِفَت بِها، وما إن يُذكَر اسمها، حتى يُذكر لقبُها (أمّ المساكين).
عندها رأينا أمّي تبكي، وهي مستغرِقة في الاستماع، فقال لها أبي: ما بكِ يا سارة؟
قالَت: أبكي على كل تلك السنوات التي ضاعَت مِن عُمري هباءً دون أن أعرف شيئاً عَن الإسلام، ولا عَن هذا النبي العَظيم، أشعرُ كم أنَّني كنتُ في ظلمة، وفتحتُ عينَي على النور.
أريد أن أفعل أشياءً كثيرة لعلّي أعوّض ما فاتني، أن أدعو النساء إلى قراءة سيرة الرسول، أن أخصّص مساعدات للفقراء، أن أقرأ القرآن أكثر، أستغر ربّي أكثر، أصلّي أكثر، أصوم أكثر، أذكر الله أكثر، أصلّي على رسول الله أكثر، كم أشعر يا عمران بكل ذاك التقصير، بكل تلك الغَفلة التي كنتُ فيها.

أم سَلَمة بنت أبي أميَّة
رضي الله عنها

تأثّرَ أبي وهو ينظر إليها، ورأيتُ الدموع تترقرق في عينَيه، وبعد قليلٍ سجدتْ أمّي نحو خمس دقائِق، ثم عادت وجلست في موضِعها على الأريكة، مسحت دموعها وقالَت: أرجوك يا عمران أكمل، كم أنا مُتعطِّشة لأعرف المزيد عَن تلك السيرة العَطِرة، كم أنا بحاجةٍ لأتعلَّم مِن سيّدات بَيتِ النبوَّة.
قال أبي: ثم أكرم الله المرأة الصالِحة أم سَلَمة بنت أبي أمية بأن تكون أمّاً للمؤمنين، وهي هند بنت أبي أمية المخزومية، ابنة حذيفة أبي أميَّة بن المغيرة، وابنة عم خالد بن الوليد، وكان أبوها مِن سادات قُرَيش، ومشهوراً بالجود، وكان يتولّى الإنفاق على الذي يُسافر معه، ويُعطيه مالاً حتى صار يُلقَب بـ (زاد الراكب)، وأمُّها هي عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن عبد المطلب.

كانت أم سَلَمة متزوّجة مِن ابن عمِّها أبي سَلَمة، وهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن مخزوم القرشي، دخل الإسلام مبكّراً قبل دار الأرقم، وهو ابن برة بنت عبد المطلب، عمة النبي صلى الله عليه وسلم، وأخو النبي ﷺ من الرضاعة.
وعندما هاجر زوجُها أبو سَلَمة إلى المدينة، مَنَعَها أهلُها مِن الذهاب معه، وبعد وصولِه إلى المدينة، قامَت بمحاولاتٍ عديدةٍ حتى لحقت به مع ابنها سَلَمة.

شارك أبو سَلَمة في معركة أحد وتوفي بعد إصابته، وكان له من الأبناء: عمر، و سَلَمة، وزينب.

فتزوَّجَها النبي صلى الله عليه وسلم، لتكون رضي الله عنها وأرضاها، الأم السادِسة للمؤمنين، ويقوم برعاية وتربية أبنائِها اليتامى.
وكانت تُرافقه، وتُعرَف بذات (الرأي الصائب والعقل البالغ). وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبيَّة برأيها، وكان ذلك بعد زواجه منها بِسنَتَين، في السنة السادسة للهجرة عندما أعرض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الامتثال لأمره.
فبعد الاتفاق على بنود صلحة الحديبية، قال لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا"، وأعاد ذلك ثلاث مرات دون أن يقوموا.

فدخل إلى أم سَلَمة وذكر لها ما جرى بينه وبين الصحابة، عند ذاك قالت أم سَلَمة رضي الله عنها: (يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخرج ثم لا تكلّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالِقكَ فيحلقُكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا، رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا)[1].
وسنةً بعد سنة، كبر أبناؤُها في بيتِ النبوَّة الشريف، على تربية وعناية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصارت ربيبته زينب فقيهة، ثم زوَّج ربيبه سَلَمة من ابنة عمّه حمزة بن عبد المطلب.

تقول أم سَلَمة رضي الله عنها وأرضاها: (أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا فَسُرِرْتُ بِهِ قَالَ: "لَا تُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعَ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ". قَالَتْ أُمُّ سَلَمة: فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (2731) عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم

أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَاخْلُفْنِي خَيْراً مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، قُلْتُ: مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَدْبُغُ إِهَابًا لِي، فَغَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرَظِ، وَأَذِنْتُ لَهُ، فَوَضَعْتُ لَهُ وِسَادَةَ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَقَعَدَ عَلَيْهَا، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِي أَنْ لَا تَكُونَ بِكَ الرَّغْبَةُ فِيَّ، وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ فِيَّ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ، وَأَنَا امْرَأَةٌ دَخَلْتُ فِي السِّنِّ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ، فَقَالَ: "أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ، فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السِّنِّ، فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ، فَإِنَّمَا عِيَالُكِ عِيَالِي".
قَالَتْ: فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْراً مِنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1].

أردفَ أبي يقول: عاشت أم سَلَمة حتى بقيت أم المؤمنين الوحيدة على قيد الحياة، بعد وفاة جميع أمّهات المؤمنين، وبذلك بقيت المصدر الوحيد الأكثر قُرباً من النبي صلى الله عليه وسلم، فكان الصحابة يتوافدون إليها من أجل الأسئلة عن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وروَت أم سَلَمة رضي الله عنها 378 حديثاً نبويّاً، رواها عنها نحو مئة صحابي وتابعي وهي بذلك تكون ثاني أكثر النساء روايةً للأحاديث النبويَّة بعد عائِشة رضي الله عنها. وكانَت أم سَلَمة آخر مَن مات مِن أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وكانت في نحو الرابعة والثمانين من العمر.

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (16095) عن أم سَلَمة، مُسند الْمَدَنِيِّين، حديث أبي سَلَمة بن عبد الأسد

جُويريَة بنت الحارث
رضي الله عنها

نَظَرَ أبي إلى ساعَته وقال: ألن تعدّي لنا السحور يا أمّ محمد؟
ابتَسَمَت أمّي وقالَت: كلامكَ أطيَب مِن أي طعامٍ يا أبا محمد، لا أريد أن أنهض كي لا تفوتني كلمة واحِدة مما تقول. ثم أردَفَت: ما رأيكَ أن تكمل لنا الحديث، ثم نخرج ونتسحَّر مع الجَماعة، حتى طعامهم لذيذٌ جدّاً؟.
التفتَ إليَّ وقال: وأنتَ ما رأيك يا محمد؟
ورأيتُ أمّي تومئ لي كي أوافق، فقلت: أنا مع رأي أم محمد يا أبي.
قال: إذن، نتحدَّث عَن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث، وهي مِن النساء المميَّزات في عصرِها.
قالَت أمّي: يكاد وقتُنا يفتقد مثل هكذا نساء يا أبا محمد.
قال: ليس فقط النساء..
ثم نَظَر إلي، وعاد ينظر إلى أمّي وأردف: بل الرِجال أيضاً يا سارة،
الآن، بحكم هذا الانفتاح، تكاد الأصالَة المحلّية تتلاشى، وصار الإنسان يتأرجح بين محلِّيَته، وبين انفتاحه الافتراضي على العالميَّة، فخرجَ عَن محلِّيَته، وبذات الوقت عجز أن يُصبح عالميّاً. وهذا ما أحدث الشرخ في شخصيَّته.
في ذاك العصر الذي نتحدَّث عنه، كانت المرأة متمسِكة بأصالة محلِّيَتها، ولذلك نرى أعداداً هائلةً مِن نساءٍ كنَّ بطلات بكل معنى الكلمة، ولهنّ بصماتهن البطوليَّة في التاريخ. ونساء بيت النبوَّة كُنَّ مِن صفوة النِساء في عصرهن، ولذلك، كل واحِدة لها شخصيَّتها، ولها مزاياها وبصماتها.

كانَت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن جذيمة الخزاعية المصطلقية، مِن بيت سيادة، وكان أبوها الحارث سيداً في قومه، وأحد قادة بني المصطلق. ولدت في السنة الثانية من البعثة النبوية.

واسمها (برة)، تزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة، وكانت في نحو العشرين مِن عمرِها، فغيَّر اسمها إلى جويرية.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ اسْمُهَا بَرَّةُ فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمَهَا جُوَيْرِيَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجَ مِنْ عِنْدَ بَرَّةَ)[1].

وكانت جويرية بمنزلة البركة على قومها، وتسبَّبَت في تحرير مئة مِن نساء قومِها، كما أنَّها كانت السبب في إسلام أبيها مع أخَّين لها، وكذلك إسلام بني قومِها الذين كانوا يُعادون الإسلام بناءً على ما كان يُقال لهم مِن أقاويل ضالَّة وغير صحيحة عَن الإسلام.

ولكن عندما تعرَّفوا على إنسانيَّة الدعوة الإسلاميَّة، وعلى خِصالِها الطيّبة، دَخَلوا الإسلام وآمنوا به.

وكان زواج جُويريَة السبَب خلف التعرّف الحقيقي على جَوهر الإسلام، وكيف أنَّه يدعو إلى العدل والمساواة والمحبة والإخاء الإنساني.

ثم نَظر إليَّ وقال: هذا خيرُ نموذجٍ يا بُني ألّا نحكم على الأشياء بمُجرَّد سماع بعض الأقاويل، سواءً أكانَت هذه الأقاويل سلبيَّة، أو إيجابيَّة، قبل أن نتحقَّق وخاصَّةً مِن الطَرَف الآخر الذي تُقال عنه هذه الأقاويل، فقد نُضَلّ بالمَديح الذي لا يكون دقيقاً، وقَد نُضَلَ بالذَمّ الذي لا يكون دَقيقاً. وخُذ هذا قِياساً على سائِر معارفك وعَلاقاتك يا

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (4106) عن ابن عباس، كتاب الأدب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة

بُني، فلا تتَّخذ المواقِف قبل أن تتحقَّق. وهذا شيءٌ مِمَّا علَّمَتني إيّاه السيرة النبويَّة الشريفة.
قالت أمّي: كيف استطاعَت جويرية رضي الله عنها أن تُدخل أهلها إلى الإسلام؟
قال: مع السنة السادِسة مِن وجود النبي صلى الله عليه وسلم على أرض المدينة والانتشار الكبير الذي حقَّقَته الدعوة في الجزيرة العربيَّة، استطاعَ الخصوم مِن قريش استدراج بني المُصطلق والتحالف معهم كي يتجهَّزوا لشنّ غارةٍ على المُسلمين في المدينة، بعد أن أقنعوهم بأنَّهم باتوا يُشكِّلون خَطَراً عليهم. وهي قبيلة عربية مِن خزاعة، المنحدرة من الأزد القحطانية وكانَت تُقيم بين مدينَتَي رابغ، وجدَّة.

فاستجابوا لهذا الاستدراج، وجَهَّزوا جَيشاً بقيادة الحارث بن أبي ضرار، وهو أبو جُويريَة. وبَلَغَ الأمرُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في شهر شعبان، فجهَّزَ جَيشاً تولَّى قِيادته، وجعل راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، وترك أمرَ المدينة بيد زيد بن حارِثة، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنادى في الناس: (قولوا لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم).
وانطلق بالجيش إلى الحدود كي يتصدَّى لغارة بني المُصطَلق ويمنعهم مِن الدخول إلى المَدنيّين الآمِنين في بيوتِهم في المدينة، سواءَ مِن المَسلمين، أو من غيرِ المُسلمين.

وكان لا يخلو الأمر مِن وجود بعض المُنافقين مِن المُهاجرين الذين أتوا مِن مَكَّة كدسائِس وهم يدَّعون الإسلام، وكذلك مِن بعض أهل المدينة الذين كانَت لديهم مآرب.

والتقى الجيشان في المريسيع، وهي منطقة مائيَّة، وكان جيش المصطلق وقفوا يسقون مواشيهم مِن الماء، واحتدَمَ بينهم القِتال حتى ألحق المُسلمون بِهم الهزيمة، وفيما بَعد تبيَّن للحارِث، قائد جيش المُصطلق بأنَّهم استُدرِجوا، وأن المُسلمين لا يعتدون على أحد، بل على العكس، فإنَّهم يحمون حتى غير المسلمين الذين يُقيمون في ديارِهم، وينشرون المحبة والتسامح والعفاف والقِيَم والفضائل والكرم في الناس، ويمنعونهم من الاعتداء على بعضهم البعض، وقد أتى جيشهم لردّ الاعتداء، وليس للاعتداء.
ومع هذه الحقيقة، أسلم هذا القائد الحارث بن ضِرار مع ابنَيه وابنته جُويريَة ، وتزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم وغدا صِهراً للحارِث، وغدت ابنته مِن أمَّهات المؤمنين، ثم دخلت قبيلة بني المُصطلق في الإسلام.
أردف أبي يقول بعد قليلٍ من الصمت: كانَت جُويريَة امرأة حباها الله عز وجل بنعمة الجمال، وعُرِفَ عنها الطيب والنقاء والعطف، وكانت فصيحة تواظِب على العِبادة وفعل الخير، وتتفقَّه في الدِين.
تقول أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها: (كانتِ امرأةً حلوةً مُلَاحةً لا يراها أحدٌ إلا أخذتْ بنفسِه)[1].
وكانت رضي الله عنها لا تحب العبودية، وتُحرّر العبيد مِن مالِها، وتكثر الصوم في النوافل، وتبقى تذكر الله بعد صلاة الفجر حتى الشروق، وتفعل بذلك ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت أم المؤمنين جويرية كثيرة التسبيح، جاء عن ابن عباس، عن جويرية: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: "مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا"؟ قَالَتْ: نَعَمْ،

[1] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (16577) عن عائِشة، كِتاب السِّيَر، جِمَاعُ أَبوَابِ السِّيَرِ

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ")[1].

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (5034) عن ابن عباس، عن جُويريَة، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَاب التسبيح أول النهار وعند النوم

زينب بنت جحش
رضي الله عنها

بعد ذلك انقطَع أبي عن تكملة الحديث، لأنَّنا صرنا نمضي أغلب الوقت في مناسك العمرة، وتعرَّفَ أبي على بعض الأشخاص كما تعرَّفَت أمّي على بعض النساء وصارت تمضي وقتاً طويلاً في المسجد، وكنتُ أمضي الوقت مع أبي، وأحياناً كان يطول بِنا البقاء خارج الفندق حتى السحور، فنتسحَّر على الموائد الجَماعيَّة، ثم نصلّي الفجر في المَسجد جَماعةً، ونعود إلى الفندق مُتعَبين، وما نلبث أن ننام.

لكن بعد عدَّة أيامٍ على ذلك، استطعنا أن نعود إلى الفندق مُبكِّراً وكانَت فرصتنا الثمينة كي يكمل أبي حديثه لنا عَن أمّهات المؤمنين، ودورهنَّ في حياتِه، وفي نشر الدعوة.

قالَت أمّي وقد كانت راغبة أن يستمرّ أبي في حديثه: ما أحوجنا في هذا الوقت إلى الاقتداء بأمّهات المؤمنين، كل امرأة تحدَّثتَ عَنها يا عمران، تَركَت لديَّ أثراً.

كُنَّ نساء مُتقدّمات في درجات النضوج والحكمة، وكم أشعر بخسارةٍ فادِحةٍ لأنَّني لم أكن أعرف شيئاً عنهن مِن قبل. وكم سأشعر بخسارة إذا لم أتعرَّف على بقيَّة أمّهات المؤمنين.

استفدتُ مِن خصائص كل واحِدة مِنهن وأنتَ تتحدَّث، والآن، الآن فقط يا أبا محمد ونحن على هذه الأرض الطاهِرة، عرفتُ شيئاً يسيراً عَن أهمّيَّة وضرورة أمّهات المؤمنين الفاضِلات، فماذا لو أن النبي عليه الصلاة والسلام، توقَّف عَن الزواج بعد وفاة خديجة رضي الله عَنها؟.

هل كانَت حياته ستغتني بكل هذا القَدر، وهل كانت النساء بشكل عامٍ ومع تعاقب الأجيال سيستفدن، كما يستفدن مِن الاقتداء بسيدّات بيت النبوّة.

أجل، فقد أسهم ذلك ويسهم في ترسيخ الإيمان لدى النساء عبر الزَمَن، فكل امرأة وبعد أن تتعرَّف على أمَهات المؤمنين، تُريد أن تقتدي بِهن في العفاف، والطهر، والصدق، وعمل الخير، والتعليم، والإخلاص للعائِلة والزوج، كل امرأة تُريد أن تلتقي بأمّهات المؤمنين في الآخرة وهي مرفوعة الرأس.
نعم، بعد أن حدَّثتني عنهن، أدركت أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم اغتنَت أكثر بوجودِهن، أكثر ممّا لو خلَت من هذه السيدات الفاضِلات، ولذلك بي طمعٌ أن تستكمل حديثك يا أبا محمد، ولا تحرمنا مِنه.

قال أبي وقد استقرَّ في جلوسه: اليوم يا سارة سيكون حديثنا عَن أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن خزيمة، وتُكنَّى بأم الحَكَم. وهي ابنة عمَّة النبي صلى الله عليه وسلم، أميمة بنت عبد المُطَّلب، ولدت في مكة قبل الهجرة بـ 32 سنة.
وقد شرَّفها الله عز وجل وأكرمها بدخول بيت النبوَّة وأن تكون أمّاً للمؤمنين، وذلك بعد طلاقها من زيد بن حارثة، وهو أوَّل الموالي دخولاً في الإسلام.

وتعود قصة زيد بن حارثة مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة عندما قامت أمّه سعدى بزيارة بعض أهلها وقد اصطحبته معها، وحصلت غارة لبني القين بن جسر على بعض بيوت بني معن، وكان زيد صبياً ومن ضمن الذين أخذوهم، ثم أخذوه إلى سوق عكاظ وعرضوه للبيع، وعند ذاك اشتراه حكيم بن حزام بأربعمائة درهم لعمّته خديجة بنت خويلد. وعندما تزوَّجها محمد عليه الصلاة والسلام، وهبته له.

وفي موسمٍ للحج، صادف أن رآه بعض أهالي قومه وكانوا يحجّون، فتعرَّفوا إليه، وكذلك عرفهم بعد أن تحدَّثوا معه. فقال لهم زيد: أبلغوا أهلي.

وبعودَتِهم، أبلغوا أباه حارثة، وأرشدوه إلى مكانه، فذهب حارثة مع أخيه كعب إلى ذات الموضع كي يدفعا الفدية ويُعيداه، وسألا عن محمد صلى الله عليه وسلم، وكان في المسجد، فذهبا إليه وقالا: (يا بن عبد المطلب يا بن سيد قومه أنتم أهل حرم الله، تفكّون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك، فامنن علينا وأحسن في فدائه فإنا سندفع لك.

قال: "وما ذاك"؟

قالوا: زيد بن حارثة،

فقال: "أو غير ذلك، ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء".

قالوا: زدتنا على النصف، فدعاه فقال: "هل تعرف هؤلاء"؟

قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي.

قال: "فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما".

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم.

فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك.

قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا)[1].

[1] الإصابة في تمييز الصحابة، ص 495، 496

وأعتقه النبي صلى الله عليه وسلم وتبنَّاه، تكريماً له، فصار يُعرَف بزيد ابن محمد. وعندما كبر وصار في سن الزواج أراد أن يخطب له زينب بنت جحش ابنة عمَّته، ولكنها رفضت أن تتزوَّج منه بحسب التقاليد التي كانت تقضي بعدم زواج ذات الحسب والنسب بعبدٍ ولو بعد أن يُعتَق.

تقول زينب رضي الله عنها: (خطبني عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسلت إليه أختي أشاوره في ذلك، قال: فأين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها، قالت: من؟

قال: زيد بن حارثة، فغضبتْ وقالت: تزوّج بنت عمك مولاك، ثم أتتني فأخبرتني بذلك، فقلت أشد من قولها، وغضبت أشد من غضبها).

وعندما رأت النبي يطلب منها ذلك، قالت: لست بناكحته،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل فانكحيه" قالت: يا رسول الله ، أؤامر في نفسي، أنا خير منه حسباً.

ومع هذا الحوار بينهما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}**[1]. وعند ذاك قالت: قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله؟

قال: "نعم".

قالت: إذاً لا أعصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أنكحته نفسي.

وبذلك تزوَّجت زينب مِن زيد، ولكن فيما بعد حصل خلاف بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى النبي قائلاً: يانبي الله إن زينب قد اشتد عليَّ لسانُها وأنا أريد أن أطلقها.

[1] سورة الأحزاب، الآية 36

في ذلك تقول زينب رضوان الله عليها: (فأخذته بلساني، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، ثم أخذته بلساني، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال أنا أطلقها، فطلقني فبت طلاقي، فلما انقضت عدتي، لم أشعر إلا والنبي صلى الله عليه وسلم وأنا مكشوفة الشعر، فقلت: هذا أمر من السماء، وقلت: يا رسول الله ، بلا خطبة ولا شهادة، قال: الله المزوج، وجبريل الشاهد)[1].

يقول أنس: (كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ)[2].

وكان ذلك وفق الآية الكريمة: **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}**[3].

تقول عائشة عن زينب رضي الله عنهما:

(مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَتْقَى لِلَّهِ وَأَصْدَقَ حَدِيثًا وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ وَأَعْظَمَ صَدَقَةً ، وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ وَتَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[4].

---

[1] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (12899) عن زينب بنت جحش، كِتاب النِّكَاحِ، جُمَّاعُ أَبْوَابِ اجْتِمَاعِ الْوُلَاةِ، وَأَوْلَاهُمْ ، وَتَفَرُّقِهِم، وَتَزْوِيجِ الْمَغْلُوبِين

[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (6984) عن أنس، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم

[3] سورة الأحزاب، الآية 37

[4] رواه البيهقي في السنن الكُبرى رقم (13818) عن عائشة، كِتَابُ الْقَسَمِ وَالنُّشُوزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : **{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}**

أم حَبيبة بنت أبي سفيان
رضي الله عنـها

قال أبي: ثم أكرَم الله عز وجل، أم حَبيبة بنت أبي سفيان بدخول بيت النبوَّة، وهي رملة بنت أبي صخر بن حرب بن أمية القرشية الأموية، وأمها صفية بنت أبي العاص عمَّة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.
وهي أخت الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والأمير يزيد بن أبي سفيان.
وكان أبوها زعيم أشراف قريش، وأحد أكابر الأثرياء فيها، وكان يعادي الإسلام، وفي معركة أحد كان قائد جيش المشركين، وكذلك في معركة الخندق قاد جيوش الأحزاب، ولم يتخلَّف عن أيَّة معركة قادتها قريش ضد المسلمين بكل إمكاناتِه المادية والمعنوية.
قلت: وأروى بنت حرب بن أمية التي ذكرتها قبل الآن يا أبي، تكون أختاً لأبي سفيان؟
قال: تماماً هي أخته، وهي زوجة أبي لهب، وحمّالة الحَطب التي ذكرها القرآن.
قلت: هي عمَّة أم حَبيبة؟
قال: نعم يا بُنَي، وكانَت أم حَبيبة متزوّجة مِن عبيد الله بن جحش بن رباب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة. وآمنَت مع زوجِها في بدايات الدعوة، وعندما اشتدَّت المُضايَقات على المسلمين، هاجرا مع مَن هاجَر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، عندما أذِنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمُستَضعَفين مِن الصحابة بالهجرة الثانية إلى الحبشة حفاظاً على دينِهم.

وكانت أم حَبيبة وهي في طريق الهجرة الشاق، حاملاً بابنتها حبيبة، وهناك أنجبَتها، وبقيت في الحبشة حتى مات زوجُها، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُكرِمها على صبرها واحتسابِها، وقد أمضت في الحبشة ثلاثة عشر عاماً مِن الغربة، فخطبها من النجاشي، وكانت أم حَبيبة إذ ذاك في السادسة والثلاثين من عمرِها.
أرسل النجاشي بجاريَةٍ له إلى أم حَبيبة لتُخبِرها ذلك، فجاءت الجارية وطرقت عليها الباب، وعندما أدخلَتها وقد عرفت بأنَّها جارية النجاشي، وأنَّها قد أتت بتكليفٍ منه، أخبرتها الجارية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبها مِن النجاشي.
فكانَت البِشارة التي أسعدتها، ولم تملك نفسها من السرور، فنزعت ما عليها مِن حلي وقدَّمتها كبشارةٍ للجارية وهي تقول لها: (بشَّركِ الله خيراً).

وحينذاك تكفَّل النجاشي بدفع صداقها أربعمائة دينار من الذهب، وأقام لها وليمةً كبيرة تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسلها من الحبشة إلى المدينة مع الصحابي شرحبيل بن حسنة.
وعندما سمع أبوها بذلك، قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقيقة التي خبرها عنه: (ذاك الفحل، لا يجدع أنفه).

وبعد زواج ابنته، وكان ذلك قبل فتح مكَّة، جاء أبو سفيان بن حرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة للتحاور حول هدنة الحديبيَّة، ولم يتَّفِقا.
وتفاجأت أم حبيبة بأبيها يدخل عليها البيت، والتقيا بعد كل ذلك الفراق الطويل منذ اليوم الذي هاجَرَت فيه إلى الحبشة، فلم ير أحدهما الآخر، وهذه هي المرة الأولى، وقد أصبحت ابنته أمّاً للمؤمنين، وهو ما يزال مُشرِكاً. فأرادَت أن يؤمِن ولا يموت على

شركه، ولذلك، مدَّت يدَها وسحبت البساط الذي أراد أبوها أن يجلس عليه في بيتِها، ثم طوته، فقال: (يا بنية أرغبت بهذا عني، أم بي عنه؟

فقالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت امرؤ مشرك).

قالَت له ذلك وكلّها أمل ورجاء بأن يترك الشرك ومحاربة المسلمين، ويتوب إلى الله ويسلم.

قال أبو سفيان لابنَته: (يا بنية لقد أصابك بعدي شرٌّ.

فقالت: بل هداني الله للإسلام، وأنت يا أبتِ سيّد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر. فقام من عندها)[1].

وقد تركَ هذا الكلام أثراً لديه، وعند فتح مكة، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن إسلامه بعد أن حارب الإسلام عشرين سنة، ولعلَّ ابنته أم حبيبة كانَت أكثر الناس فرحاً وابتهاجاً بدخوله الإسلام، وقد تحقَّقَت أمنيتها، رغم أن ذلك جاءَ مُتأخِراً جدّاً. وصار أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه من أحد دعاة الإسلام، والمُدافعين عنه.

كانَت أم حبيبة بالِغة الطِيب، وتُريد الخَير للجميع، وكانَت مُتسامِحة وكريمة.

قال عوف بن الحارث: (سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحللك من ذلك، فقالت: سررتني سرك الله، وأرسلت إلى أم سَلَمة، فقالت لها مثل ذلك).

[1] سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي (206/5).

ومن الأحاديث التي رَوَتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ".
قَالَتْ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1].

[1] رواه مسلم في صحيحه (1245) عن أم حَبيبة رضي الله عنها، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ فَضْلِ السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ قَبْلَ الْفَرَائِضِ وَبَعْدَهُنَّ، وَبَيَانِ عَدَدِهِنَّ

صفيَّة بنت حيي
رضي الله عنها

ثم قال أبي ونحن نصغي إليه ونأمل ألّا ينقطع عَن حديثه الشائق:
كانت صفيَّة بنت حيي في السابِعة عشرة مِن عمرِها، وقد آمَنَت بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تتشرَّف برؤيته الكريمة. وهي صفية بنت حيي بن أخطب بن أبي حبيب بن النضير مِن بني إسرائيل. وأمّها برَّة بنت سَمَوْءَلٍ أُخت رِفَاعَةَ بْنِ سَمَوْءلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وآثَرَت صفيَّة أن تبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تعود إلى أهلِها، ودخلت الإسلام، فعتقها النبي، وتزوّجها لتُصبح من أمهات المؤمنين.
وذات يومٍ أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنامٍ لها، وذلك عندما (وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخدها لطمة، قال: **"ما هذه"؟**
فقالت: إني رأيت كأن القمر أقبل من يثرب، فسقط في حجري، فقصصت المنام على ابن عمي ابن أبي حقيق، فلطمني وقال: تتمنين أن يتزوجك ملك يثرب، فهذه من لطمته).
وكانت لها معزَّة عند النبي صلى الله عليه وسلم. يقول الصحابي أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ صَغِيرٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ" فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَفِيَّةَ ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ

فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ)[1]. وكانت صفية رابطة المُصاهرة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود، وهي من نسل نبي الله هارون بن عمران، وعمّها كليم الله موسى بن عمران عليه السلام.

جاء عن أنس رضي الله عنه أنَّه قال: (بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ، قَالَتْ لَهَا: ابْنَةُ يَهُودِيٍّ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا وَسَلَّمَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لِنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ فَبِمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ"؟ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقِ اللَّهَ يَا حَفْصَةُ")[2].

تقول أم المؤمنين صفية رضي الله عنها وأرضاها: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ لِأَنْقَلِبَ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي- وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ- فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ" فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا")[3].

وكان جمالها يُحرّك غيرة نساء النبي صلى الله علية وسلم، ومن ذلك ما جاء عن أم المؤمنين زينب بنت جحش قولها عن صفية بنت

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (2147) عن أنس بن مالك، كتاب البيوع، باب هل يسافر بالجارية قبل أن

[2] رواه ابن حبان في صحيحه (7334) عن أنس، كِتَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ ، رِجَالِهِمْ، ذِكْرُ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفِيَّةَ وَرِعَايَتُهُ حَقَّهَا

[3] رواه مسلم في صحيحه رقم (4158) عن صفية بنت حيي، كتاب السَّلَامِ، باب بَيان أَنَّه يُسْتَحَبُّ لِمَنْ رُئِيَ خَالِيًا بِامْرَأَةٍ وَكَانَتْ زَوْجَتَهُ أَوْ مَحْرَماً لَهُ أَنْ يَقُولَ هَذِهِ فُلَانَةُ لِيَدْفَعَ ظَنَّ السُّوءِ به

حيي: (ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم).
ويُروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب فقالت: (إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أمّا السبت فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ماحملكِ على ما صنعتِ؟ قالت: الشيطان. قالت: اذهبي فأنتِ حرَّة).

ميمونة بنت الحارث
رضي الله عنها

قال أبي: وكأنَّ التاريخ يعيد نفسه، فما حصل في مكة بالنِسبة لأولى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها، هو ذاته ما حصل مع ميمونة بنت الحارث، آخر زوجاته عليه الصَّلاة والسَّلام، فكما أن السيدة خديجة هي التي سَعَت ما بجهدِها كي تتزوَّج من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكرمها الله بأن غدت الزوجة الأولى له، كذلك تكرَّرَ مع السيدة ميمونة بنت الحارث، فهي التي سَعت ما بِجهدها كي تتزوَّج من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكرَمها الله بأن غدت آخر زوجاته عليه الصلاة والسلام، وكانَت قَد بايعته عندما كان في مَكَّة.

قالَت أمّي: سبحان الله، والفارق شاسعٌ بينَ المرحلتَين المُختلِفتَين تماماً.

قال أبي: صحيح، فعندما كان في مَكَّة، كانَت ظروفه متواضِعة جدّاً وكان يعيش في بيت عمَّه، ولم يكن قد أوحي إليه، والآن قد أصبح حاكم المدينة المنوَّرة، وهو نبي الله.

قالَت أمّي: وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يعيش في المدينة، وكانَت رضي الله عنها تعيش في مَكَّة.

قال أبي: وكانت الظروف مُضطَّرِبة بين المدينة ومَكَّة، ولكن بموجب معاهدة الحديبيَّة، جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مَكَّة لعمرة القضاء.

قلت: إذن نحن الآن وصلنا إلى السنة السابعة للهجرة يا أبي؟

قال: نعم يا بُنَي.

ثم التفت إلى أمّي وقال: عندما علمت ميمونة بمجيئة صلى الله عليه وسلم، كانت فرصتها السانِحة كي تراه، وتبذل ما تستطيع في سبيل تحقيق أملها في الزواج منه، كما بذلت أم المؤمنين خديجة رضي

الله عنها. وذهبت ميمونة لتراه بين المسلمين وهم يسعون بين الصفا والمروة، ويطوفون حول الكعبة المُشرَّفة.

وعند ذاك صارحَت أختها (أم الفضل) بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب، وقالت لها: (إنني أحب محمداً، وأريد الزواج منه). ولبثت تنتظر دون أن تُخبرها أختُها بشيء، فعادَت وتحدَّثت معها عَن مشاعِرها نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابتها: (سوف يعود لك العباس بما يسرَّك)
وجاء العباس ببشرى موافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج مِنها، ومعه جعفر بن أبي طالب، فخطبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأفضت هذه المُصاهرة مع بني هلال إلى دخولِهم للإسلام، وهي أخت أم المؤمنين زينب بنت خريمة لأمّها هند بنت عوف بن زهير التي وُصِفَت بأنَّها أكرم عجوز في الأرض أصهاراً، فهي أمُّ أمَّين للمؤمنين، وكذلك هي أمُّ أسماء بنت عميس الخثعمية، التي تزوَّجت من جعفر بن أبي طالب، ثم من أبي بكر الصديق، ثم من علي بن أبي طالب.
وأم سلمى بنت عميس الخثعمية، زوجة حمزة بن عبد المطلب.
وأم أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية، زوجة العباس بن عبد المطلب.
وأم لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية، زوجة الوليد بن المغيرة وأم خالد بن الوليد.
وأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث يا بُني هي خالة عبد الله بن عباس، وخالة خالد بن الوليد. وكان عبد الله بن عباس يبيت عندها، بكونها خالته.
يقول رضي الله عنه: (بِتُّ لَيْلَةً عِنْدَ خَالَتي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، فَقُلتُ لَهَا: إذَا قَامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فأيْقِظِينِي، فَقَامَ

رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقُمْتُ إلى جَنْبِهِ الأيْسَرِ، فأخَذَ بيَدِي فَجَعَلَنِي مِن شِقِّهِ الأيْمَنِ، فَجَعَلْتُ إذَا أَغْفَيْتُ يَأْخُذُ بشَحْمَةِ أُذُنِي، قالَ: فَصَلَّى إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ احْتَبَى حتَّى إنِّي لأَسْمَعُ نَفَسَهُ رَاقِدًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ له الفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ)[1].

وإضافة إلى أنه ابن أخت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، هو أيضاً ابن عمّه، وكان عبد الله قد ولد في شعب أبي طالب أثناء الحِصار.
وبهذا القرب الشديد من بيت النبي صلى الله عليه وسلم كان يكسب العلم والأدب وأصول التربية، والأخلاق من النبي صلى الله عليه وسلم، حتى صار يُعرَف بـ (حَبر الأمة) و(ترجمان القرآن).
واستطاع عبد الله أن يروي الكثير من الأحاديث النبوية، بل أصبح من أعمدة رواة الأحاديث النبوية؛ حيث روى 1660 حديثاً . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له.
يقول: (ضَمَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ")[2].

ويقول: (كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتِ ميمونةَ فوضَعْتُ له وَضوءًا مِنَ الليلِ فقالتْ له ميمونةُ: وضَع لك هذا عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ فقال: "اللهم فقِّهْهُ في الدينِ وعلِّمْهُ التأويلَ")[3].

ويقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (6316) عن عبد الله بن عباس،
[2] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (3579) عن عبد الله بن عباس، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما
[3] أخرجه أحمد في مسنده رقم (3010) عن عبد الله بن عباس، مسند بني هاشم

هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً"[1].

قال النبي صلى الله عليه وسلم عنها وعن أخواتها: "الأخواتُ الأربعُ، ميمونةُ، و أمُّ الفضلِ، وسَلمى، وأسماءُ بنتُ عُمَيسٍ أختُهنَّ لأُمِّهنَّ مؤمناتٌ"[2].

[1] أخرجه أحمد في مسنده رقم (2731) عن عبد الله بن عباس، مسند بني هاشم

[2] أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (8387) عن عبد الله بن عباس

الفصل الخامس

النزعة الإنسانية

بدأ رمضان يدنو مِن أواخِره، فقال أبي بأنَّه قبل عودتنا إلى البَيت، سيأخذنا إلى المدينة المنوَّرة كي نزور قبر الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، ونُصلّي في مسجده، ونجوب تلك الأماكن التي كان فيها.
فقالَت أمّي: هذه أمنيّتي يا عمران.
وانطلقنا إلى المدينة، ونحن نودّع مَكَّة المُكرَّمة، نودع كل تلك الأجواء الروحانيَّة، وقَد حَمَلنا معنا شاي الحِجاز، والتمر، وماء زمزم، والمسابِح، وقبَّعات صغيرة بيضاء. وكذلك بعض الأقمشة النسائيَّة والحجابات، حتى تهديها أمّي للنساء اللواتي سوف يزرنها للتهنئة بهذه المُناسَبة، كما أن أبي سيهدي القبَّعات والمسابِح إلى أصدقائِه الذين سيقومون بزيارِته.

أمضينا ما تبقَّى مِن رمضان في رحاب المدينة المنوَّرة، وكذلك يوم العيد، وعدنا في اليوم التالي إلى البيت ونحن نودّع المدينة وأهلها.
عدنا بنفحاتٍ إيمانيَّةٍ جديدة، وكان ذلكَ يعني لي الكَثير، يَعني الثبات أكثر وأكثر في التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن رأيتُ ما رأيت بعينَي، وعشتُ ما عشت، سواء في مَكَّة، أو في المدينة.
كانَت أمّي أيضاً قد استقرَّت أكثر، وغدا وجهُها مُضيئاً أكثَر، وفي اليوم التالي مِن عودتنا بدأ الناسُ يتوافدون إلى بيتنا، الرجال إلى أبي، والنساء إلى أمّي، وكنَّ زوجات أصدقاء أبي، وكذلك النسوة اللواتي تعرَّفت أمّي إليهن في المَسجد.

وكنتُ أقدِّم الضيافة مِن ماء زمزم وشاي وتمر وقبَعات ومسابح إلى أصدقاء أبي، وكانَت خالتي ماري تُقدِّم الضيافة للنسوة في الغرفة التي كانت فيها أمّي.
وبعد أسبوعٍ مِن عودتِنا، رأيتُ أمّي ذات مساء تستأذن أبي كي تصوم يومَيِ الاثنَين والخميس مِن كل أسبوع.
وصارَ أبي يمضي يوماً عندنا، ويوماً خارج البيت، دون أن تتحدَّث أمّي بشيء.
بعدَ نحو أسبوعَين مِن عَودتنا وكنتُ بشوقٍ أن يستكمل أبي حَديثه عن السيرة النبويَّة، وذات يومٍ رأيته يجلس في رُكنِه المُعتاد، نظرتُ إليه وهو غارقٌ في الصمت، متمنيّاً أن يبدأ الحَديث.
وعندما التفَتُّ إلى أمّي، رأيتها هي الأخرى في حالة انتظار، ولم تنبس ببنت شفة، وشعرتُ من خلال نظراتها إليه كما لو أنَّها تقول له: تحدَّث يا أبامحمد، اشتقنا لحديثك.

وأثناء ذلك جاء صوتُه خافِتاً: تعلَّمتُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف يكون الإنسانُ جادّاً، كيف يبني لنفسه تاريخاً، وتكون له بصمة في الحياة، كيف يكون متواضِعاً، كيف يشتغل على نفسه ويُدرِّبها على الجدّية، والتواضع، والصبر، وتجنّب اليأس، واحترام الآخرين، والتصرّف بحكمةٍ في الشدائِد، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين الماديَّة والمعنويَّة.
تعلَّمتُ مِنه ألّا يحمل الإنسان في قلبه الغل، أو ينتظر إتاحة الفرصة كي ينتقم، بل ينتظر إتاحة الفرصة كي يُسامح.
كان عليه صلوات الله وسلامُه يقول: "لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا" وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ

الشَّرّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"[1].
يقول ابن عمر: (صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ")[2].

ما علَّمَتني إياه قراءةُ القرآن عن شخصيَّته، لم تُعلَمني إيّاه أية قراءة أُخرى، كان يتلقَّى القرآن، ويرتقي به، ويتفاعَل معه، ويعيش كل إرشادٍ مِن إرشادات القرآن.

كان القرآن يُعرّفه حتى بنفسه، ويضعه أمام مكنونات نفسه، يجعله ينفتح على الحياة، على الطبيعة، على النزعات الإنسانية، كان صريحاً ودقيقاً وجادّاً معه.
بذلك نكون مع شخصيَّةٍ بشريَّةٍ أعدَّها الله وميّزها عن سائر الشخصيات، فتطوَّرَت سنة تلو سنة لتكون خُلاصةً للإنسان النّقي الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

دوماً يا بُنَي يُذكّركَ النبي بأنَّك إنسان، ويُعلّمكَ كيفَ تُحافظ على إنسانيَّتكَ ولا تخسرها، لأنَّكَ إذا ربحتَ إنسانيَّتك، ربحتَ كل شيء، وإذا خسرتَ إنسانيَّتكَ خسرتَ كل شيء. يُعلّمك بأن البشرية هي عائلة واحدة، وأنَّكَ أحد أفراد هذه العائِلة، وجزءٌ لا يتجزّأ منها، وأنَّها جزءٌ لا يتجزَّأ منك.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (4778) عن أبي هريرة، كِتاب الْبِرّ وَالصِّلَة وَالآدَاب، بَاب تَحْرِيم ظُلْم الْمُسلِم، وخَذْلِه، واحتِقَارِه وَدَمِه، وعِرضِه
[2] رواه الترمذي في الجامع رقم (2041) عن ابن عمر، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن

استطاعَ النبي صلى الله عليه وسلم أن يُرسّخ في المُسلمين مشاعر الانتماء الإنساني إلى الأسرة البشريَّة الكبيرة، ومشاعر المسؤوليَّة تَجاهها، ودعا إلى نبذ الخِلافات بين الناس:
{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[1].
ولَن يكون لهم ذلك قبل أن يتصالحوا، ويصفحوا عن بعضهم صفحاً جميلاً.

وحثَّ النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى التعاون مع بعضهم البعض، فقال: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، ويُعِينُ الرَّجُلَ علَى دابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عليها، أوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، ويُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ"[2].
ولا يكفي أن يتعامل الإنسان مع الإنسان فقط بإنسانيَّة، بل أن يتعامل مع الحيوان أيضاً بإنسانيَّة، ويُحسن إليه.
فكان يُحذّر بشدَّة مِن الاعتداء على الحيوان. وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: " عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ"[3]. فالإنسان يلقى العِقاب إذا تجاوز على الحيوان. فأصبح المسلمون يحترمون حقوق الحيوان.

---

[1] سورة فصلت، الآية 34
[2] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (2763) عن أبي هريرة، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر
[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (3323) عن عبد الله بن عمر، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار

قالت كبشة بنت كعب بن مالك: (أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ. قالت كبشة: فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي فَقُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إِنَّهَا مِنْ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ"[1].

وحثُّ صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى سائِر أنواع الحيوانات، فقال: "بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلاَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ".
قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: "فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"[2].
وقال صلى الله عليه وسلم: "ما مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كانَ له به صَدَقَةٌ"[3].
يقول عبد الله بن مسعود: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا")[4].
ويقول ابن عباس: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ التَّحْرِيشِ بَيْنَ الْبَهَائِمِ)[5].

---

[1] رواه أبو داود في صحيحه رقم (71) عن كبشة بنت كعب بن مالك كِتاب الطَهارة، باب سُؤْر الْهِرَّة
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (5686) عن أبي هريرة، كِتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم
[3] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (2223) عن أنس بن مالك، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه
[4] رواه أبو داود في سننه رقم (4650) عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، كِتاب الأدب
[5] رواه أبو داود في سننه رقم (2242) عن ابن عباس، كِتاب الجِهاد، باب في التحريش بين البهائم

وهذه النزعة الإنسانيَّة تحوَّلَت عبر السنوات والقرون إلى أساسٍ يعتمد عليه العالَم في التَّعايش بين الناس في مختلف مشاربِهم ومآربِهم، وكذلك إعطاء الحيوان حقوقه الكاملة والنّهي عَن التجاوز عليه.

العودة إلى مَكَّة المُكرَّمة

جلس أبي في موضِعه، وجلسنا حوله ننتظر بشوقٍ أن يستكمل لنا حديثه عَن السيرة التي أجدها تُهذِب لي حياتي، ولذلك أتوق إليها ولا أرتوي مِنها، لأنَّها دوماً تحمل في طيَّاتِها الجَديد الذي أراني بأمس الحاجة إليه.
بعد قليلٍ مِن الصمت، قال: لا شيء يبقى على حالِه، والحياة مبنيَّة على التحوّلات.
ثماني سنوات مِن الابتعاد القسري عَن موطنه ومسقط رأسه وبيته وذكرياتِه في مَكَّة، ثماني سنواتٍ مِن قطع صلة الرحم بينه وبين أقربائه وذويه، مِن حرمانه من العَودة الطبيعيَّة، من اضطِّهاد المسلمين المتواجدين في مَكَّة وتعذيبهم وإلحاق الأذى بهم، ولم يقتصر الأمر عليه فحسب، بل على كل المسلمين الذين هاجَروا إلى المدينة، فقُطِعَت الصِلة تماماً بينهم وبين آبائهم وأقربائِهم، وكذلك الأمر بالنِسبة لِمَن بقي في مكَّة، فَحُرِموا مِن أبنائِهم ومن أحفادِهم في المدينة، ولا أحد مِن الطَرَفَين يعلم ما يحصل مع أهلِه.

وماذا بعد، وإلى متى هذا الجَبَروت، وقَد أصبح الآن قويَّاً وقادِراً على إنقاذ المسلمين من كل ذاك الظلم الذي يلحق بهم، وأن يُفرح قلوب آلاف العائِلات بالتلاقي مع بعضهم البعض بعد كل سنوات الفراق، أن يصلوا أرحامهم، أن يتزاوجوا فيما بينهم، أن تُصبح بينهم علاقات عمل وتجارة ومصالح متبادَلة.

كل هذا الغَليان، والجميع في الطَرَفَين ينتظر أن يُقرّر الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ما يَرى بشأن وضع حلٍّ لهذا الشَتات، لأنّ الأمر لم يَعد يُحتمَل، ولا يمكن أن يبقى هكذا إلى الأبَد، وإذا كانوا يَحتملون

في الماضي بسبب ضعفِهم وقوَّة مشركي قُرَيش، الآن أصبحوا أقوياء، وقوَّتهم تفوق قوَّة مُشركي قريش. ورغم ذلك كانَت مُحاولات المسلمين جارية لعودة العلاقات الطبيعيَّة بين مَكَّة والمدينة بشكلٍ سلمي.

في تلك اللحظات، تذكَّرتُ ما يقوله زميلي هنري في الجامِعة عَن الإسلام، وقلت: يا أبي أما كانوا يفرضون الإسلام عليهم؟
قال أبي: كانت المُحاولات السلميَّة مبنيَّة على أساس أن تبقى حرّيَّة المُعتقَد مكفولة بموجب الأمر الإلهي: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**[1].
قالَت أمّي موَّجِهةً كلامها لي: وكان يُعمَل بِحرّيَّة المُعتَقَد هذه في المدينة، والنبي صلى الله عليه وسلم كان حاكمها القوي، وكان يستطيع أن يفرض الإسلام على جميع المكوّنات يا بُنَي، ولكنَّه لم يفعل، وكان التعايش السلمي قائِماً بين جميع المكوّنات على أساس ميثاق المدينة الذي وضعه النبي عليه الصَّلاة والسَّلام.
قلت: ولكن لماذا يتحدَّث بعض زملائي في الجامِعة بشكل سلبي عَن الإسلام، وكانوا أيضاً يتحدَّثون بذلك في المدرسة؟
قالَت: يا بُنَي نحن الآن في بِلادِنا وفي قوَّتِنا، وعندما أذهب إلى المسجد، أرى عشرات النساء مِن مُختلف العقائِد وقد اعتنقن الإسلام، هل فرض أحدٌ عليهن ذلك؟
قلت: لا.
قالَت: والناس في مَكَّة ما كان أحُد يفرض عليهم الإيمان بالقوَّة، بل كانوا يُعرِّضون أنفسهم لأقسى أشكال الأذى والاضطِهاد والتهجير نتيجة إسلامهم.

[1] سورة الكافرون

قال أبي: أصبح بإمكان النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل مَكَّة لأن موازين القوَّى اختلفت، فجيش النبي أصبح أقوى بكثير من جيش قريش،
وانضمَّت قبائل شمال المدينة إلى الإسلام، وصار المسلمون يُشكِّلون قوَّةً عظيمةً في الجزيرة العربيَّة،
ورغم ذلك، لم يدخل مَكَّة ولم يضمَّها إلى قوَّته لأنَّ بينه وبين قريش معاهدة صلح الحديبيَّة التي تقضي بعدم نشوب حرب بينهما لمدَّة عشر سنوات، لكن الذي حَصَل أنَّهم خَرَقُوا المُعاهدة مع النبي صلى الله عليه وسلم.
قلت: كيف يا أبي؟
قال: كانت هناك عداوات بين قبيلتَي خزاعة و بني بكر، وهما من أكبر قبيلَتَين عدداً وعدَّةً في الجزيرة العربيَّة، ونشبت بينهما حروب منذ القِدَم، ولبثت مستمرَّة بين حينٍ وآخر. وعندما جرى صلح الحديبيَّة، انضمَّت قبيلة خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وانضمَّت قبيلة بني بكر إلى قريش، وبذلك سَرَت بنود معاهَدة الصلح عليهما أيضاً، وهذه مِن النتائِج الإيجابيَّة في صلح الحديبيَّة من خلال وقف القِتال بين هاتين القبيلتَين الكبيرتَين.
ولكن وقع الغدر مِن بني بكر عندما أغارت مجموعة منهم بقيادة نوفل بن معاوية على قبيلة خزاعة في الليل، وكانوا على ماء الوتير، وقدَّمَت قريش لهم السلاح وبعض الرجال مستغلّين ظلمة الليل كي لا يُعرَفوا، لأنَّ هذا العمل خرقٌ للمُعاهَدة، ووقع قتالٌ بينهم، وألحقوا الأذى بخزاعة التي كانَت آمِنة.
عندها سارعَ عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي يستغيثه ويستنجده، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "نصرت يا عمرو بن سالم".
لأن خزاعة صارت محسوبة على النبي صلى الله عليه وسلم عندما انضمَّت إليه عند معاهدة الصلح، كما صارَت قبيلة بني بكر جزءاً

من قريش، والاعتداء على الحليف، يُعدَّ اعتداءً على الفريق الذي ينتمي إليه.
ثم جاء بعض رجال خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم بديل بن ورقاء، وتحدَّثوا عَن تفاصيل عمليَّة الغدر التي تعرَّضوا لها من بني بكر بمؤازَرة قريش لهم بالرجال والسلاح.

وأدركَت قريش بأن النبي صلى الله عليه وسلم لن يسكت على خرقها للمعاهدة، ولكنَّها لم تعرف ما الذي سيفعله ومتى، فأرسلت قائدها أبا سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أجل تجديد الصلح، ولكنَّه لم يلق القبول، فعاد إلى مَكَّة.

فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بإعداد خطَّةٍ مُحكمةٍ لِدخول مَكَّة، ودعا الجيش من الأماكن الموالية له دون أن يُخبر أحداً بِما ينوي الإقدام عليه حتى لا يتسرَّب الأمر إلى قريش.
وعندما انتهى مِن تجهيز هذا الجيش الضخم الذي تألَّف مِن عشرة آلاف مقاتل بكامل السلاح والعتاد بِما لم تشهده الجزيرة العربية مِن قبل، فجعل النبي أمر المدينة بيد أبي رهم الغفاري وانطلق بِهم دون أن يعلم أحدٌ إلى أين.
وكان النبي في مقدِّمة الفرقة الأولى من الجيش، وكانوا في نحو أواسط شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، أي بعد نحو شهرٍ من الإعداد والتجهيز، لأنَّ الاعتداء على خزاعة كان في شهر شعبان. وكان النبي صائِماً، ومعه صحبه الكِرام، وفي الطريق عندما حان وقتُ الإفطار وقف النبي بالجيش، وأفطروا، ثم استأنَفوا التقدّم إلى مَكَّة.
قلت: ألم يحصل صِدام بينهما يا أبي؟
قال: كان جيش قريش ضعيفاً جدّاً بالمقارَنة مع جيش النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان احتمال المُقاومة والنزاع المُسلَّح بين

الجيشَين ضعيفاً، ولكن رغم ذلك بقي هذا الاحتمال الضعيف قائِماً، فوضع النبي خطَّة عسكريَّة دقيقة للدخول الآمِن والسيطرة على مَكَّة دون خسائِر، أو بأقل الخسائِر الممكنة في حال حصول أيّ طارئ. فقام بتطويق مَكَّة، وبدأ الدخول إليها من كل الجِهات المُطوَّقة، وهُنا تفاجأت قُريش بهذا العدد الهائل من الجيش، وحاول عدد قليلٌ من الرجال التصدّي من جهة خالد بن الوليد، ولكنَّه استطاع أن يفرّقهم، وتمكَّنَ الجيش من السيطرة على مَكَّة.

قالت أمّي: يقول لويس توماس[1]: (لا توجد أسرةٌ في الجزيرة العربية لا تسمِّي أحد أبنائها محمدًا باسم محمد النبي، وفي العالَم ينتشر اسمُ محمَّد. لقد كان محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، أوَّل مَن وحَّد بين قبائلِ الجزيرة وشعوبِها، وجَمَع كلمتَها تحت رايةٍ واحدة، وقد كان ظهورُه حين الحاجة إليه، ولقد جمع كلمةَ العرب لا بالقوة والشدة بل بكلام جذاب، وتبعوه وصدَّقوه، وكان يجمع بين القلوب المُتفرِّقة، فتشعر كلها بشعور قلب واحد).

قال أبي: هذه هي ثمار الصَبر، ثمار الحِكمة في التعامل مع المُستجدّات، فأحياناً بعض الأمور لا تحتاج شيئاً سوى عامل الزَمَن، فها هم قد عادوا، الذين تحمَّلوا الأذى والحِصار والتنكيل، وأخيراً خَرَجوا مِن ديارهم وأموالِهم ومصالِحهم وأهاليهم دونَ أن يصطَدِموا مع المُشركين، ولكنَّه لم يكن خُروجاً من أجل الخروج، بل كان خروجاً على أمل العودة السلميَّة وهم أقوياء ويحملون شِعار التعايش السلمي: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}**[2]. ولم تغب مَكَّة عَن بالِهم لحظةً واحِدةً، مَكَّة التي تركوا فيها أهاليهم وذويهم، فكان العمل الدؤوب والإعداد السَّليم من أجل هذه العودة الكريمة.

---

[1] مستشرق إنجليزي

[2] سورة البقرة، الآية 256

فكما أنَّ لكم في مَكَّة، فلنا فيها، وكما أنَّكم ولدتم فيها، فنحن كذلك ولدنا فيها، ونحن عُدنا إلى بيوتِنا وإلى موطِننا ولسنا غُرباء، ولكن الآن، تغيَّرت الظروف، ورغم ذلك، فلن نعتدي عليكم كما كنتم تعتدون علينا، ولكن إذا حاولتم الاعتداء علينا، فلن نقف مكتوفي الأيادي، وسنُدافِع عَن أنفسنا ونصدَّكم.

هكذا أصبحت مَكَّة تحت إمرَته وفي ذات اليوم الأوَّل وعندما حان وقت صلاة الظهر، طلب النبي صلى الله عليه وسلم مِن بلال أن يؤذّن، فصعد بِلال بثقةٍ إلى الكعبة، وهو الذي كان يقول بخفوتٍ من شدَّة التعذيب: أحد.. أحد.. الآن يرفع صوته من سطح الكعبة الشريفة بالأذان. وانتشر صوته في أجواء مَكَّة، صوتُ الأذان والناس يبتهجون بفتح مَكَّة على المدينة، وتطبيع العلاقات بينهما بعد كل تلك السنوات مِن القطيعة.

مرَّة أُخرى قَفَز إلى مُخيّلَتي ما يقوله بعض الزملاء في الجامِعة، فقلتُ:

يا أبي، بعض زملائي في الجامِعة يتحدَّثون بشكل سلبي عَن زواج رسولنا الكريم.

قال: لم يكن زواجه عليه الصَّلاة والسَّلام للزواج فقط يا بُنَي، بل كان جزءاً أساسيَّاً مِن العمل في نشر الدَّعوة. ولذلك اقتصَرَ الزواج على السنوات السبع الأولى مِن هجرتِه إلى المدينة حتى استطاع أن ينشر الدعوة بشكلها الواسع، وتوقَّف عَن الزواج في السنة السابِعة للهجرة مع ميمونة بنت الحارث التي كانَت الزوجة الأخيرة له عليه الصَّلاة والسَّلام.

قالَت أمّي: تقول آني بيزينت[1]: (من المستحيل على أيّ شخصٍ درسَ حياة وشخصيّة نبيّ العرب العظيم وعرف كيف عاش هذا النّبي وكيف علَّم النّاس ألّا يشعرَ بتبجيلِ هذا النبي الجليل.

[1] كاتبة إنجليزيَّة

فلو نظرت إلى النساء اللاتي تزوجهن لوجدت أن كل زيجة من هذه الزيجات كانت سبباً إما في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه أو الحصول على شيء يعود بالنفع على أصحابه، أو كانت المرأة التي تزوجها في حاجة ماسة للحماية).

فالآن صارت مَكَّة والمَدينة تحتَ إمرَته، وأصبحَ قوَّة إقليميَّة كُبرى لا يُستهان بِها، ولم يتزوَّج لأنَّ روابِط المُصاهَرة لم تعد تخدم الدعوة كما كانَت تَخدمها في بدايات هجرته إلى المَدينة.
ولو أراد، لتزوَّج عشرات الفتيات اللواتي كُنَّ يحلمن بالزواج منه بعد فتح مَكَّة، وكل الظروف باتَت مُتاحة له بشكل أكبر، وكان التشريع الإلهي يتيح له ذلك.

إعادة الاعتبار للمرأة

استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يُحدِثَ انقلاباً على العادات والتقاليد التي كانت جائِرة بحق المرأة في الجاهليَّة، ووصلت في بعض المراحل المُتقدِّمة مِن الجور إلى النظر للمرأة بتشاؤم، ووأد البنات.

ولم يكن بوسع أحدٍ أن يوقِف هذا النزيف الداخلي في قلب المُجتمع من خِلال وأد البنات سوى الإسلام، فجاء الوعيد الشديد في القرآن الذي قرأه النبي صلى الله عليه وسلم: **{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}**[1].

فكان أسوةً حسنةً في حب بناتِه وتكريمهن. وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّ المرأة هي شريكة الرجل في حياته وفي استقراره ونجاحه، ولكن عليه أن يُكرِمها ويفسح لها المَجال حتى تستطيع أن تقف بجانِبه.

وكان عليه الصَلاة والسَلام يقول: "اتَّقُوا اللَّهَ في النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ"[2].

ومِن هَديه عليه الصلاة والسلام: " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِكُمْ "[3].

وهذا تطبيقٌ لأمر الله: **{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}**[4].

وأرشد إلى أهمية الثقة بين الزوج والزوجة بعيداً عَن الشكوك. قال جابِر: (نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ)[5].

---

[1] سورة التكرير، الآيتان 8،9

[2] رواه مسلم في صحيحه رقم (2224) عن جابر بن عبد الله، كِتاب الحج، باب حجَّة النبي صلى الله عليه وسلم

[3] رواه أحمد في مسنده رقم (9943) عن أبي هريرة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه

[4] سورة النساء، الآية19

وكان عليه الصلاة والسلام يرشد صحابته الكرام بعدم إهمال الزوجات، تقول عائشة رضي الله عنها: (دَخَلَتْ عَلَيَّ خُوَيْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةُ وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: فَرَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ بَذَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فَقَالَ لِي: "يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَذَّ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ"؟.

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، امْرَأَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا، يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا وَأَضَاعَتْهَا.

قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: "يَا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي"؟.

قَالَ: فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ.

قَالَ: "فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ")[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام: "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2].

وكان عليه الصلاة والسلام يُعلِّم النساء كما يُعلِّم الرجال. يقول أبو سعيد: (جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ: "اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا" فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ)[3].

---

[5] رواه مسلم في صحيحه رقم (3671) عن جابر، كِتَابُ الْإِمَارَة، بَابُ كَرَاهَةِ الطُّرُوقِ، وَهُوَ الدُّخُولُ لَيْلًا، لِمَنْ وَرَدَ مِن سَفَرٍ

[1] رواه أحمد في مسنده رقم (25746) عن عائِشة، حديث السيدة عائِشة رضي الله عنها

[2] رواه ابن ماجه في سننه رقم (3692) عن عقبة بن عامر، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَاب بِرّ الْوَالِدِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْبَنَات

[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (6919)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الرجال والنساء مما علمه الله، ليس برأي ولا تمثيل

قالت أمّي: قرأتُ كلاماً لـ وول ديورانت[1]، قال فيه: (رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب وقضى على عادة وأد البنات وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، ومنع زواجهن بغير إرادتهن.

كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوروبية من ناحية هامة، لأنها كانت حرة التصرف فيما تملك، لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها).

قال أبي: كان الواقع قاسياً، وكان مُترسِّخاً في المُجتمَع، وكان التغيير شبيهاً بالمستَحيل، ولذلك كان ردّ الفعل عنيفاً جدّاً سواء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو على الذين آمَنوا بِه، ولكن مع الصبر والحكمة والتحمّل وإيجاد المخارِج المؤقَّتة، وقبل كل ذلك، بالعِناية الإلهيَّة، فقد تكلَّل التغيير بالنَّجاح بعد نحو ثلاث وعشرين سنة من العمل اليومي المتواصل ليلاً ونهاراً، وكل هذا ولم يُعمِّر النبي صلى الله عليه وسلم طويلاً، فقد عاش نحو ثلاث وستين سنة، وأنزِلَ عليه الوحيُ في الأربعين مِن عمره الكريم. فكان عليه الصلاة والسلام يُرسِّخ المفاهيم الجديدة في ذاك الواقع، قال: "مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ"[2].

---

[1] كاتب أمريكي موسوعي، مؤلف (قصة الحضارة)

[2] أخرجه أبو داود في سننه رقم (4545) عن ابن عباس، كتاب الأدب، أبواب النوم

ويرفع من شأن المرأة الأم، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: "أُمُّكَ". قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ". قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ". قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَبُوكَ")[1].

تقول أم سَلَمة رضي الله عنها: (سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ أَنْفَقَ عَلَى ابْنَتَيْنِ، أَوْ أُخْتَيْنِ، أَوْ ذَوَاتَيْ قَرَابَةٍ، يَحْتَسِبُ النَّفَقَةَ عَلَيْهِمَا، حَتَّى يُغْنِيَهُمَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ يَكْفِيَهُمَا، كَانَتَا لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ")[2].

[1] رواه البخاري في صحيحه (5650) عن أبي هريرة، كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة
[2] رواه أحمد في مسنده (25951) عن أم سَلَمة، مُسْنَدُ النِّسَاءِ، مُسْنَدُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه

العناية النبوية بتماسك العائلة

دخَل أبي البيتَ وهو مُنفعلٌ، استغربتُ للأمر، واستغربَت أمّي أيضاً، فهو معروفٌ بضبط النَفس والهدوء.
نَظَرَ إلي وقال: كيفك يا محمد؟
قلت: بخير يا أبي
أطال النَظَر إليّ كما لو أنَّه أراد أن يستكشِف شيئاً مِن خِلال نظراتِه، دون أن يتكلَّم، ثم ما لبثَ أن اتَّجه إلى غرفته.
ورأيتُ أمّي تلحقه على الفَور، أمضت نحو ربع ساعةٍ معه، ثم خرجت إلى المَطبَخ، وعادَت حاملةً إليه كأساً مِن عصير البرتقال.
تسرَّبَ قلق إليَّ، وشردتُ بِما قَد حصل مع أبي، ولم أعد قادِراً على الجلوس، وصرتُ أجوب أركان البَيت جيئةً وذهاباً، وذهني شاردٌ بتلكَ النظرات التي صوَّبها إليَّ دون أن ينبس ببنت شفة، وفي غمرة تلك اللحظات، تناهَت إلى سمعي نبرات صوته: حزينٌ يا سارة على ما حصل لصديقي صفوان، تعرفين كم أنَّه مُرهَف وحسَّاس.
تناهى صوتُ أمّي: صفوان رجل طيّب، وزوجته إيناس أيضاً طَيّبة، وبين فترة وأُخرى تُحادثني بالهاتف ويطول بنا الكلام.
قال: جاءني اليوم كئيباً، وقد سقط نصف وزنه عنه، وضاقت عليه الأرض بِما رحبت، فأخذته إلى غرفتي الخاصَّة في المَكتبة وقلت: ما بكَ يا رجل، لقد أقلقتَني؟!
قال: حصلت معي مُشكِلة خاصَّة لا أستطيع أن أقولها لأحدٍ غيركَ يا عمران لأنَّك أقرب إليَّ مِن أخ.
ثم ضربَ كفّاً بِكَف وهو يقول: لأوَّل مرة في حياتي لا أعرف ماذا أفعل، احتَرت يا عمران، أكاد أفقد عقلي.

وصار يبكي بحُرقةٍ كما لو أنَّه طفلٌ صَغير، ولم أتمالك نفسي يا أم محمد، وصارَت الدموع تنهمر مِن عينَي وقلت: خيراً إن شاء الله يا صفوان، أنتَ تعرف ماذا تعني لي، أنتَ في هذه الغُربة الأخ، والصَديق، والأنيس، وكاتم السر؟
مسح دموعه وقال: منذ مُدَّة لاحظتُ أن ابنَتي (لوتس) تتأخَّر في العَودة مِن المدرسة وهي في الصّف العاشِر. وأحياناً أعود ولا أراها في البيت، وعندما أسأل أمّها، تقول بأنَّها ذهبت إلى صديقةٍ لها.
بعد ذلك رأيتُ بأن صديقتها تأتي إليها في البيت وتبقى عندها حتى وقتٍ متأخّرٍ مِن الليل، وأحياناً تبيت عندنا.
وذاتَ يومٍ تأخَّرَت ابنتي في العَودة إلى البيت حتى صارت الساعة الحادية عشرة ليلاً.
عندها طلبتُ من أمِّها أن تتَّصل بِها كي تعود. فقالَت وهي مُرتَبِكة: لم أعد قادِرة أن أخفي عنك ما يحصل يا صفوان، ابنتنا خَرَجت عَن سيطرتي، وتمرَّدَت عليَّ، حتى أنّضها تَرَكَت الصَلاة، وخَلَعَت الحِجاب.
تقول بأنَّنا نقمعها عن التصرّف بحياتِها الشخصيَّة، وإذا ضغطنا عليها و لم نمنحها حريَّتها، سوف تشتكي علينا، وتَخرج مِن البَيت.
قلت: كيف نسمح لها أن تُدمّر نفسها يا إيناس، ونحن نتفرَّج عليها، وهي لا أحدَ لها غيرنا، ونحن لا أحد لنا غيرها؟!
قالَت: صدِيقتها هي التي تُحرّضها، لا أعرف كيف تعرَّفَتْ عَليها، وهي أخت زميلة لها في المدرسة، متزوّجة مرَّتَين ومُطلَّقة.
وباتت ابنتي خارج البيت لأوَّل مرَّة، وعندما عادَت في صباح اليوم التالي، لم أدعها تخرج مِن البيت بمفردِها، وصرتُ آخذها إلى المدرسة وأعيدها، وذاتَ يومٍ وأنا واقِفٌ بسيارتي أمام حاجزٍ أمني؛ رفعت ابنتي صوتها وقالت لرجل الأمن: أنقذني أرجوك، أبي يُهدّدني بالقتل.

تفاجأتُ بِما بَدَرَ مِنها وصرتُ أنظر إليها باستغراب دون أن أعرف ما أقول،
وبعدَ لحظاتٍ تجمَّع بعض رِجال الأمن حول السيّارة وهم يُشهِرون المُسدّسات، ويطلبون مني أن أنزل وأرفع يدَي إلى الأعلى. وبعد لحظاتٍ أخرى سمعتُ أصوات سيّارات نجدة تتقدّم إلينا وينزل منها رجالٌ وبأيديهم أسلِحة.
ولا أعرف كيف انقضّوا علي وألقوا بي على الأرض، وقيَّدوا يدَي وقَدَمَي بأقصى سرعة، لأرى نفسي في اليوم التالي محكوماً بالسجن لمدَّة شهرَين، وأمّا ابنَتي فأخذوها دون أن نعرف شيئاً عَنها.
قلت له: لذلك غبتَ عَن المكتبة وكان هاتفكَ مغلقاً.
قال: كان الأمرُ مُحرِجاً بالنسبة لي يا عمران، خاصّةً وأنا في عملي التربوي، وحتى الجامِعة وجَّهَت لي إنذاراً يحذّرُني من تكرار ذلك تحتَ طائلة فصلي مِنها.

لكن الآن حصل ما هو أسوأ يا صديقي، تقول زوجتي بأنَّها تلقَّت مِنها محادثة فيديو عبر الواتس وكانَت مُنهارة، وقد شحب وجهُها، وقالَت بأنَّهم أعطوها مَسكناً خاصّاً بِها في تجمّع سَكَنيٍّ مُشترَكٍ وأنَّها ندمت على التفريط في حياتها، وتُريد أن تتوب وتَطلب أن أسامحها على ما فَعَلته بي، وأوافق على عودتِها إلى البيت.

قالَت أمّي: بكل أسف هذا ما يحصل هُنا يا عمران، تتمرَّد الزوجة، أو يتمرَّد الأبناء، أو ينحرفون، فلا يستطيع الأب أن يفعل شيئاً سوى أن يتفرَّج عليهم وهم ينهارون أمام عينَيه، وإن تدخَّل، جاءت الشرطة، وأخذتهم مِنه بالقوّة وتركته وحيداً.
لذلكَ يا عمران أعجبني كثيراً إرشاد الإسلام لأهميّة قَوامة الرَّجل على المرأة، وضرورة وحكمة أن يكون سيّداً في بيته وعائِلته،

وكذلك أحترمُ أمرَ الإسلام للأبناء ببرّ الوالدَين، وإلّا سيكون عِقاب الله لهم شديداً.

توجَد هُنا أصوات كثيرة تُطالِب بتهذيب هذه القوانين التي تُجيز لنفسِها اقتحام البيوت وسحب الرجال من بيوتهم على مرأى من الأبناء، لِمجرَّد أن تُجري الزّوجة اتِّصالاً بسيطاً بِهم وهي مُنفَعِلة وتدَّعي بأنَّ زوجها يُسبّب لها إزعاجاً.
قال أبي: القانون الوضعي هُنا تحوَّلَ إلى عَقبة أمام حُسن تربية الآباء لأبنائهم، وأمام ممارسة الرجل القوامة على المرأة، وكذلك السلطة على أبنائِه لأنَّه جعل الزوجة والأبناء يَستَغنون عَن إنفاق ربِّ العائِلة عليهم، فكل شخصٍ ينفق على نفسه، وله راتبه الخاص بِه مهما كان كبيراً أو صغيراً.
قالَت أمّي: هذا إلى جانب مؤازرة القانون له إذا أراد الخروج مِن العائِلة، ولا أحد يستطيع أن يمنعه مهما فعل.
والشيء بالشيء يُذكَر يا عمران، تذكَّرتُ رجلاً مِن معارف أبي وكانت ابنته المُراهِقة خرجت مِن البيت رغماً عنه، وذاتَ يوم انتشرت صورٌ مُخلَّة لها، وعندها قال لأبي: صدّقني لا أستطيع أن أفعل شيئاً؛ فإمّا أن أذهب وأمنعها بالقوّة، وأدخل السجن، وتعود إلى ما كانَت عَليه، أو أسكت، والحل الثالث هو أكثر سوءاً لأنَّني سأتحوَّل إلى مجرم وأمضي كل حياتي في السجن، وتتشرَّد عائلَتي.

نعم يا عمران، ما أزال أتذكَّر قول ذاك الرجل لأبي: لا تلمني يا صديقي، ليست المُشكلة منّي أو من سوء تربيتي، بل مِن هذا القانون الوضعي الذي أجاز لنفسه التدخّل بين الزوج وزوجته، وبين الآباء وأبنائِهم.

بعد أن تزوَّجنا وشرحتَ لي عن الإسلام، أدركتُ أن ربّ الناس هو أعلم بوضع التشريعات التي تضبط الناس وتَجعلهم سُعداء، وتَجعل العائِلات مُتماسِكة مع بعضِها البعض. وكما عرفتُ منكَ وقرأتُ حتى لبعض كبار ونوابغ مُفكّرينا بأنَّ هذه التشريعات تتَّسم بعالميَّتها وانفتاحها على مشارب الناس ومآربهم وهي صالِحة لأبناء كل زمانٍ ومكان.

قال أبي: أحياناً يُصبِح القانون عبئاً على الناس، عندما يُقحم نفسه في تفاصيل حياتهم الشخصية وعلاقاتهم الإنسانيَّة. ولذلك عندما يحصل خلاف بين الزوجَين في الإسلام، يوصي القرآن بأن يتدخّل شخصٌ حكيم من أهل الزوجة وشخصٌ حكيمٌ من أهل الزوج ويكون الاتِّفاق بحكمة: **{فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}**[1]. وينتهي كل شيء بسلام في الحالتَين دون أن يُسمَح لأي شخصٍ آخر بالتدخّل كائِناً مَن كان. القرآن الذي حمله الرسول عليه الصلاة والسلام، هو كِتاب تنظيم وتحسين للحياة يا سارة، والرسول أوَّل مَن انتظمَت حياتُه وتَحسَّنَت بالقرآن.
قالَت أمّي: يَظهر بأنَّهم يريدون أن يُخَفِّفوا كثيراً من استخدام هذه القوانين بعد أن تفشَّت حالات الطَلاق، وتشريد الأطفال وانحرافهم بشكلٍ مُريع. وهناك دعوات لعدمِ اقتحام البيوت العائليَّة إلّا في حالات طارِئة جدّاً مثل القتل، أو الطعن بأداة حادَّة، أو الكسر، وما دونَ ذلك مِن خلافات زوجية سوف تُحل من تلقاء نفسها بعيداً عَن التأجيج والتدخّلات التي أحياناً تكون تعسفيَّة، وتنهار بسببها عائِلات بأكمَلِها.
قال أبي: على كل حال قلت له: اصبر يا صفوان على هذا الابتلاء، وخذ الأمر بشيءٍ مِن المرونة. قال النبي عليه الصلاة والسلام: "مَا

[1] سورة البقرة، الآية 229

يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً"[1].

وإذا كان الله قد هداها كي تستغفر وتتوب، فلماذا تقف عقبةً أمام هِدايتها؟
قال: هذا هو رأيك؟
قلت: امنحها فرصة كي تبدأ صفحة جديدة مِن حياتِها، هذا هو روح الإسلام يا صفوان. ألم يُخبِرنا الرسول الكريم عَن الله في الحديث القدسي: "قالَ اللَّهُ تبارَكَ وتعالى يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً"[2].
اهتم بابنتك ولو لم يكن فيها الخَير لاستمرَّت في درب الخطيئة وما استطاع أحد أن يمنعها، وكان يمكن لها أن تجلب لك الكوارث، ولكن الله أكرمك بحفظ ماء وجهك، فاشكر الله على فضله، واستر ما رأيت، وتفرَّغ لها بعض الوقت، وعظها.
قال: أعترف يا عمران بأنَّني قصَّرتُ مِن هذه الناحية، فلم أكن أجلس معها إلّا قليلاً، أو عندما نتناول الطعام.
قلت له: دع أهلك يعتادون عليك، دعهم يفتقدونك إذا غبتَ عنهم، ينتظرونك إذا تأخَّرتَ عَنهم، قدّم لهم الهدايا، وأدخل البهجة إلى قلوبِهم.
ابنتك هذه هي مشروع عمرك، غداً تتزوَّج وتفتح بيتاً وتكوّن عائلة وتنجب لك أحفاداً، ولا أحد يستطيع أن يُقدّم لك كل هذا غيرها. خذ

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (4793) عن عائشة، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حُزْنٍ
[2] أخرجه الترمذي في الجامع رقم (3617) عن أنس بن مالك، أبواب الدعوات

الأمر بحكمةٍ يا صديقي واشكر الله على فضل هدايتها وعودتها إليك، وقد أخَذَت درساً لن تنساه.

عند ذاك تراجعتُ إلى الوراء، وعدتُ أجلس في مكاني وأنا أرجو ألّا يحول ذلك بيني وبين مجيء أبي الليلة إلى الغرفة لِتَكمِلة حديثه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.
مضت ساعةً على جلوسي حتى خرج أبي وكان يبدو أفضل مِمَّا كانَ عليه عندما دخل البيت.
جلس في موضعه، ودخلَت أمي المطبخَ وأحضرَت إبريقاً من الشاي، فمددتُ يدي وصرتُ أسكب الشاي الساخن في الكاسات.
قال أبي وهو يرتشف رشفةً مِن الشاي: الليلةَ يا بُنَي سنكمِل حديثَنا عن سيرة نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم.
قلت: وأنا مُنتظِرٌ يا أبي ومتشوّقٌ لمعرفةِ المزيد.
قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى تماسك العائلة، وبيَّن مسؤولية الرّجل في الحفاظ على عائلته، وأن يكون الحفاظ على تماسك العائلة، وحُسن تربية الأولاد، وحُسن التعامل مع الزوجة، مِن أساسيّات شخصيَّة الإنسان المُسلم.
وتماسك العائِلة في حقيقته هو تماسك للمجتمع يا بُنَي لأن المجتمع مُكوَّنٌ من مجموعة عائِلات.
قلتُ: نعم يا أبي.
قال: كان النبي عليه الصلاة والسلام يؤسِّس لمُجتَمع خالٍ من العنوسة، ومن الأرامِل، وكان يُبادِر بالزواج كي يقتدي به الناس.
وما كانوا يتركون المرأة مهمَّشة تعيش حياة العزلة لو ترمَّلَت حتى لو كانت في الستِّين مِن عمرِها.
ونَظير ذلك يا بُنَي لم تكن تجد حالات العزوبيَّة المُستَفحِلة في المُجتَمَع بين الرجال، ولم تكن تجد الكثيرَ من الرجال الأرامل. فكان

عليه الصلاة السلام يدعو إلى تيسير الزواج ويقول: "الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المرأة الصَّالِحَةُ"[1].
الأمر الآخر يا بُني لم تكن تجد حالات الطلاق إلّا نادِراً، أو نادِراً جِدّاً في تلك الحِقبة المُبكِّرة مِن الإسلام. وكانَت لتلكَ النّدرة أسبابها القويَّة جِدّاً.
قال: "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"[2].
يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ منكُم الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ").
كان النبي عليه الصلاة والسلام يؤسِّس لمُجتَمَعٍ سَعيدٍ ومُتماسك، يشعر فيه الرّجل بمسؤوليَّةٍ تجاه العائِلة التي يُعيلها.
وكان عليه صلوات الله وسلامه يزوّج بناته عندما يبلغن سن الزواج، وكان يُسهم في ذلك ولا يترك الفتاة في شأنِها حتى تعنس، ولذلك نادِراً ما نجد عانِسات في عهد النبي، وكذلك في المراحل الأولى التي تلته.
وقد زوَّجَ ابنته الكُبرى زينب لأبي العاص بن الربيع القرشي، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد.
وحصل ذلك عندما طلبت منه خديجة أن يُزوّجها لابن أختها هالة، فوافق النبي على ذلك لأنَّه كان يثق بحسن اختيار خديجة.
وكان أبو العاص يعمل في التجارة ويُعرَف في مكة بالاستقامة والصدق. وكان كثير الزيارات لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبَح النبي صلى الله عليه وسلم جَدّاً لأوّل مرّة، فكان يحمل ابنتها (أمامة) وهو يُصلّي.

---

[1] رواه الطبراني في المُعجَم الكبير (13533) عن عبد الله بن عمرو، مَنِ اسْمُهُ عبدُ اللَّه، وَمِمَّا أَسْنَدَ عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما
[2] رواه ابن ماجه في سننه رقم (1972) عن أبي هريرة، كِتاب النكاح، باب الأكفاء

يقول أبو قتادة الحارث بن ربعي: (خَرَجَ عَلَيْنَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأُمَامَةُ بنْتُ أبِي العَاصِ علَى عَاتِقِهِ، فَصَلَّى، فَإذَا رَكَعَ وضَعَ، وإذَا رَفَعَ رَفَعَهَا)[1].

وكذلك أنجبت له حفيده علي بن أبي العاص، فكانَت أوَّل عائلة تفرَّعَت عَن بيت النبوَّة، وكان عليه الصلاة والسلام يولي هذه العائلة عنايتَه، وكان راضياً عن أبي العاص، وقد وصفه بعد البعثة أمام صحابته الكِرام بقوله: "حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَأَوْفَى لِي".
لقد كان رجلاً صادِقاً ووفيّاً، واستحقَّ بجدارة أن يكون صهراً لرسول الله، وأن يكون أباً لأوَّل حَفيدَين له.
وزوَّج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته رقيَّة مِن عثمان بن عفّان، ولكنَّها توفيت، وعند ذاك زوَّجه أختها أم كلثوم. ولذلك سمّي بذي النورَين، لكونه تزوَّج ابنتَين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأمّا ابنته الصغرى فاطمة، فقد زوَّجها لابن عمّه علي بن أبي طالب،
وأنجبت له حفيدَين هما الحسن والحسين وكان يأخذهما معه إلى المسجد.
جاء عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْدَى صَلاتَيْ الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلاةِ، فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا، قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (5673) عن أبي قتادة، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته

أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ. وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ")[1].

وجاءَ عن يَعْلَى بن مُرَّة: (أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى طَعَامٍ دُعُوا لَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ يَلْعَبُ فِي السِّكَّةِ قَالَ: فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفِرُّ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَيُضَاحِكُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَخَذَهُ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ وَالْأُخْرَى فِي فَأْسِ رَأْسِهِ فَقَبَّلَهُ)[2].
وكان في حال وجود خلافٍ بين إحدى بناتِه وزوجها، يتدخَّل ليُصلح.
يقول سهل بن سعد: (جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: "أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ"؟
قَالَتْ: كَانَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لإِنْسَانٍ: "انْظُرْ أَيْنَ هُوَ"، فَجَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهْوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: "قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ")[3].
وكان النبي صلى الله عليه وسلم، يُغيّر المجتمع بهذه الأعمال الجديدة التي يقوم بها، ولذلك كان الناس يستغربون في البداية وهم يرون ذلك. تقول عائِشة: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ")[4].

---

[1] رواه النسائي في صحيحه رقم (1135) عن عبد الله بن شداد عن أبيه، كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة.
[2] رواه ابن ماجه في سننه رقم (144) عن يعلى بن مرة، المقدِّمة، باب من فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
[3] رواه البخاري في صحيحه رقم (5949) عن سهل بن سعد كتاب الاستئذان، باب القائلة في المسجد
[4] رواه البخاري في صحيحه رقم (5675) عن عائِشة، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته

وكان عليه الصَلاة والسَلام يُعزّز العلاقات بين الأهل والأقرباء، بما يجعل المُجتمَع مُتماسِكاً مع بعضه البعض، ويقول: "إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ"[1].

ولم يجعل النّبي صلى الله عليه وسلم الدِين حائِلاً بين المسلم وصلة رحمه مِمَّن لم يسلموا. تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: (قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: "نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ")[2]. وأسماء هي أخت أم المؤمنين عائشة لأبيها، وهي من السابقين الأولين في الإسلام، وقد لقَّبها النبي صلى الله عليه وسلم بذات النطاقَين عندما كان يتجهَّز مع أبيها للهجرة، وهي زوجة الزبير بن العوام، وأم عبد الله بن الزبير من صغار الصحابة، وكان أول مولود للمهاجرين في المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.
وجاءت إليها أمَّها قتيلة بنت عبد العزى العامرية مِن مكَّة إلى المدينة، في السنة السادسة للهجرة، خلال الهدنة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في صلح الحديبيَّة. ورغم ما كانَت عليه مِن الشرك، إلّا أنَّه صلى الله عليه وسلم لم يحرمها مِن صِلة رحمها بابنتِها، ولم يحرم الابنة مِن صلة رحمها بأمِّها.
وعندما كان عبد الرحمن بن أبي بكر يصرّ على عدم دخول الاسلام، بل ويُقاتل المسلمين، نهى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر عن الصِّدام مع ابنه. وكان ذلك في معركة أحد عندما تقدَّم عبد الرحمن بن أبي بكر وطلب مِن جيش المسلمين أن يخرج أحد ليُبارِزه، وأراد أبو بكر أن يخرج، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته أمسك به ومنعه مِن مبارزة ابنه، وما ذلك إلّا لأن الأملَ

[1] رواه البخاري في صحيحه (5665) عن أبي هريرة، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله
[2] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (2620) عن أسماء بنت أبي بكر، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين

بصلاحِ الإنسان لا بدَّ أن يبقى قائِماً، وألّا تتفتَّت الأسرة، أو تنقطع صلة الرحم مهما كانَت الأسباب. وحصل أن توقَّف عبد الرحمن بن أبي بكر عن معاداة المُسلمين، بل ودخل الإسلام، وصار مُدافِعاً عنه، وكان اسمه عبد الكعبة، فغيَّر النبي صلى الله عليه وسلم اسمه إلى عبد الرحمن.
وبالتدرّج أنهى نظام الرِّق والعبوديَّة، وكان ذلك بمنزلة انقلابٍ في المُجتَمَع.
قالَت أمّي: قبل أيَّامٍ كنتُ أقرأ كِتاباً لمراد هوفمان يقول فيه: (منذ القرن السابع الميلادي تحرر المؤمن المسلم من ممارسة طقوس القربان وأصبح على علاقة وجود دائم ومباشر مع الله، وهي علاقة أكثر ملائمة للرجل المعاصر والرجل الراشد)[1].

رسول الرحمة

جاءت خالتي ماري لزيارتنا، وعندما عرفتُ بأنَّها ستبيت الليلةَ عندنا، انتشى قلبي، لأنَّها ستكون ليلةً ذهبيَّة، وسوف يتحدَّث فيها أبي لنا عن الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وكعادته سوف يُدهِشنا بِما لم نكن نعرف.
أشعر بحاجتي الشّديدة لأحاديثه التي تُحصّنني كثيراً، ضدّ بعض الحوارات التي يتداولها بعض زملاء الجامِعة الذين لديهم مفاهيم خاطِئة عن الإسلام، وعن شخصيَّة الرسول صلى الله عليه وسلم.
وبعد أن توطَّدَت العلاقة بيني وبين مارك، صرتُ أتحدَّث له عَن النبي صلى الله عليه وسلم، ورأيته يتأثَّر بِما أقول. وذاتَ مرَّة عندما كنتُ مع مارك في قاعة الاستراحة في الجامعة، جاءَ هنري وجلس معنا، فقال له مارك: أنصحكَ يا هنري أن تأخذ ما يقول محمد بجدِّيَّة، صدِّقني ستكتشف أشياء تنفعك كثيراً في حياتك.
قال باستهتار: لا أعتقد ذلك.

[1] مراد هوفمان، يوميات ألماني مسلم

قلت: ما تزال في بداية حياتك يا هنري وتقول بأنَّك تتناول الكحول كل يوم، حتى في الصباح.
قال: ولكنَّني أستمتع بِه
قلت: هذا يبدو لك، ولكن الحقيقة أنَّكَ تقضي على صحَّتك ببطء.
قال: تقول هذا لأنَّكَ لا تشرب.
قال مارك: أنا كنتُ أشرب، ولكن بعد تعرّفي بمحمد، تركتُ الشرب.
قال: كيف؟
قال: دعوته في يوم الغداء في بيتِنا، ورأيته يكتفي بشرب العصير، وكان يستمتع ويتلذَّذ بالشرب، بينما كنتُ أجرع الخمر على مضض. حينها قال لي كلاماً لا يمكن لي نسيانه، قال: إذا كان الخمرُ جيداً، لاستمتعتَ وتلذَّذتَ بِه وأنت تشربه، ولَبَدا ذلكَ على وجهك، ولكن الحقيقة يا مارك، وجهك يحتقن مع كل رشفة ترشفها، وعيناك تزدادان احمراراً وكلامُكَ يُصبح ثقيلاً على لسانك، حتى إنَّني من شدَّة حبّي لك، صرتُ أشفق بك.
وكانَت هناك مرآة في الغرفة، فأخذني إليها وقال: أنظر إلى وجهك، وانظر إلى وجهي. ثم عدنا إلى المائِدة، أزاح الكأس عنّي وقال: بحق صداقتنا دعكَ مِن هذا. وناوَلَني كأساً مِن العَصير.
صرتُ أرتشف بلذَةٍ دون امتعاض، ويومها أدركتُ بأنَّني لا أستمتع ولا أتلذَّذ بشرب الخَمر، بل أُرغم نَفسي عليه، وأنا لا أشربه شرباً طبيعيَّاً وأتمتَّع بطعمه، بل أجرعه على الفَور تخلّصاً مِن طعمه.
عندها لم يُعلِّق هنري بشيءٍ ونهضَ مُنصَرِفاً عَنّا.

في المساء أحضَرَتْ خالتي إبريقاً مِن الشاي الحجازي الأحمر، وراحت تصبّ الكاسات، وتُقدّم لكل واحدٍ منّا كأساً.

بعد قليلٍ من الصمت ونحن ننتظر أن يتحدَّث أبي، قال: لا يستطيع الإنسان أن يكون إنساناً ويُمارس إنسانيَّته، إلّا إذا كان رحيماً، والرحمة هي أساس المشاعِر الإنسانيَّة.
يقول الله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}**[1].
تتَّسع الرحمةُ لكل ما هو نافع، وتصرف كل ما هو أذى، ويعني ذلك أنَّه صلى الله عليه وسلم رأفة، ومحبَّة، وحرص، وشفاعة، وعِلم، ومعرفة، وأنَّه مفعم بالمشاعر الإنسانيَّة.
فكلّه رحمة في رحمة بكل ما يُمثّله من قيمٍ قرآنية، ليُحسّن للبشريَّة مسار حياتها مِن خِلال تعزيز وتأصيل مشاعر الرحمة لديها.
فرسول الله عليه صلوات الله وسلامه، هو رحمة الله الباقية على الأرض، وهذا هو أساسُ التَكاتف الإنساني بين الإنسان وأخيه الإنسان.
قلتُ وأنا أنظر إليه: كيف أفهم التقوى يا أبي؟
قال: هي تنميَةُ المشاعِر الإنسانيَّة، والمحبة، والعطاء، والعدل، ونبذ الظلم، والاعتداء، فكان رسول تعزيز الكَلمة الطيّبة، والقِيَم الإنسانيَّة النبيلة في الناس.

وبذلك لا يوجد إنسانٌ واحدٌ قط خُلِقَ أو يُخلَق بعد محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، إلّا وكان له نصيبه الذي وصله تماماً والذي سيصله دون نقصانٍ من هذه الرحمة التي جَعَلهاً الله حقّاً للعالمين من أبناء كل زمانٍ ومكان.
ولولا هذه الرحمةً، لما رأينا كل هذا الرخاء الذي ينعم به الإنسان، كما لم ينعم به أحدٌ قط مِن قبل، وهذا يشمل أبناء الأرض قاطِبةً كما نرى في وقتنا الحالي، فالعالَم كلّه يتمتَّع بكل هذا النَعيم، باستثناء أجزاء صغيرة جداً سواء في شرق الكرة الأرضية، أو في غربها، يتسبَّب فيها الناس بإلحاق الأضرار ببعضهم بعضاً، والخير موجودٌ

[1] سورة الأنبياء، الآية107

بينهم، ولكنَّهم يسيئون استخدامه، والله بهذه الرحمة لا يقطع الكهرباء عن أناس ويتيحها لأناس، ولكن هم الذين يقطعونها، وهم الذين يمنعون المياه و يمنعون الأدوية والطعام عن بعضهم بعضاً.
نظرتُ إليه بدهشةٍ، وقلت: كيف يا أبي؟
قال: لأضرب لك مثلاً يا محمد
قلت: نعم يا أبي
قال: لو رزقك الله بأسنانٍ، ولم تُحافِظ عليها حتى خسرتها، تكون هذه نتيجة خطيئتك.
قلت: ولو حافظتُ عليها؟
قال: لن تخسرها
قلت: وهؤلاء الذين يُراجِعون أطبّاء الأسنان بسبب أعمارهم المتقدّمة؟
قال: لا يا بُني، حتى لو تجاوز الإنسان مئة سنة، ستبقى أسنانُه سليمة إذا حافظ عليها.
قلت: كيف يا أبي؟
قال: لأن الله الرحمن الرحيم بالإنسان، لا يمكن أن يكتب له مئة سنة مِن العُمر، ويعطيه أسناناً لا تصلح إلّا لخمسين سنة، أو عينَين لا تصلحان إلّا لأربعين سنة، أو قلباً لا يحتمل أن يعمل بشكل جيد أكثر من ستين سنة، أو معدةً لا تصلح أن تهضم الطعام بشكل جيد أكثر من ثمانين سنة. فما دام قد أعطاه عمراً، فكل ما بجسده مِن أعضاء تصلح تماماً لهذا العمر بدون أي عطب.
قالت خالتي ماري وهي تنظر: والأمراض التي تُصيب الإنسان؟
قال وقد ارتشف رشفةً من الشاي: الإنسان لا يمرض يا خالة محمد، ولا يمكن له أن يمرض إلّا في حالةٍ واحدةٍ.
قالَت: ما هي يا أبا محمد؟
قال: أن يُمرِضَ نفسه بنفسه، فإذا ترك الإنسان بقايا الطعام بين أسنانه، سوف يحصل التسوّس، وإذا تناول طعاماً متَّسِخاً، سيحصل

اضطراب في معدته، وإذا أفرَط في تناول الشحوم والدهون، سترتفع نسبة الشحوم الثلاثية في دمه، وإذا أفرَط في تناول الحلوى، سترتفع نسبة السكر في دمه.
وإذا رزقه الله بسيارة، وقادها دون ضابط، قد يقع له حادث، ويُصاب ببعض العاهات.
قالَت: ولكن السيارة الأخرى كان يقودها السائق بانضباط وهدوء، ورغم ذلك جاء هذا المتهوّر وصدمه وألحق به وبسيارته ما ألحق من أضرار.
قال: صحيح، فإذن الإنسان هو الذي جلب لنفسه ولغيره هذا الضرر.
ولا بدّ من الحذر الشديد، لأن المخاطر تحيط بنا سواء مِن أنفسنا، أو مِن الآخرين.

ثم نظر إليَّ وقال: عليكَ يا ولدي أن تتحصَّن بالعِلم والمعرفة كي تُميّز بين الصادق والمُنافق، فقد يودي بك المُنافق فجأة ويلحِق بك الدمار، وكان خلال سنواتٍ يتظاهَر بصداقتك. وهذا لا يكون بالنسبة للغُرباء فقط يا بُني، بل حتى للمُقرَّبين، فهناكَ شخصٌ تضع فيه كل ثقتك، وهو لا يمت لك بصلة قرابة، ويكون وفياً للثقة حتى في أحلك الظروف، ويبقى يُسانِدك بكل إمكاناته دون أن يتخلّى عنك.
وهُناك شخصٌ مُقرَّبٌ منك، وما إن يراك في موقف ضعف، حتى يُكشِّر عن أنيابه، ويُظهِر كل غلّه وحقده، كي يوقعكَ أكثر مما أنت واقع، ويؤازر خصومك عليك.
ولذلك يا بُني فإن من منافع الشدائِد أنَّها تكشف حقائق مَن هم حولك ومعادنهم، فشخصٌ كنتَ تتجنَّبه ولا تثق به، قد يصدر منه موقف مساندة يُبهرك، ويُنقذكَ مِن مأزقٍ مروِّع. وشخصٌ كنتَ تتوقَّع بأنَّه سيكون أوَّل مَن يُساندك إذا ألمَّت بك ضائِقة، تتفاجأ بِمدى غلّه لك.

دع الشدائد تأتي يا بُني لا تستَأ منها، فإنَّها الوحيدة التي تفصح لك عمَّا تكون في غفلةٍ عَنه، فإذا أحبَّكَ الله، ما تركَكَ في غَفلتِك، بل ساق لك أسباباً حتى تتعرَّف مِن خلالِها على معادن الناس الحقيقية وتكون على بيّنَةٍ مِن أمرك، فلعلَّ أذيَّة كبيرة كانَت تُرتَّب وكانَت على وشك أن تفتك بك فتكاً، أو لعلَّ هُناك مَن أوليته ثقتك، وكان في الواقع يحمل الغلّ نحوك.
دع الناس يفصِحون عَن معادِنهم الحقيقيَّة يا بُنَي، فهم يُخرِجونكَ مِن غَفلَتِك.

بعد لحظات صمتٍ قال وقد وضع باطن كفَّه على صفحة خدّه وهو ينظر إلى خالَتي: حتى الكهرباء عندما لا يكون الإنسان حذراً منها، يمكن أن تصعقه، أو الذي يقذف نفسه في نهر دون أن يعرف عُمقَه وهو لا يجيد السباحة، قد يغرق.
فإذن أسنَانه هي التي عاقَبَته لأنَّه أهمَلها حَتَّى تسَوَّسَتْ، كمَا أن مَعِدَته هي التي عاقَبَته لأنَّه أدْخَل إليها طَعامَاً متّسِخَاً، وأعصَابُه عاقَبته لأنّه أقحمْ عليها المُخَدّرَات، وتنفُّسُه عاقبَه لأنَّه عرَّض جسَدَه للبردِ القَارِس، ودمُه عاقبَه لأنَّه أقحَمَ عليه دهوناً زائدة دون أن يُمارِسَ الرِّيَاضَة. ولذلك فإن الإنسان الذي يُقحم هذه الأوبئة على جسده السليم، لا يمكن له أن ينجو منها مهما استخدم من أدوية وعلاجات، إلّا إذا شفاه الله برحمته، وإن لم يشفه برحمته، لن تجدي معه كل أدوية العالَم حتى لو كان أكثر الناس نفوذاً وسلطةً ومقدرةً على وجه الأرض. لذلك: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}**[1]. فإذا كان: وإذا أمرضني فهو يشفين، فلا فضل، أمّا الفضل، فيكون عندما يودي الإنسان بنفسه إلى التهلكة، فينجيه الله.
قالَت خالَتي: إذن، لا يوجد إنسانٌ قط لم ينجه الله مِن تهلكة.

[1] سورة الشعراء، الآية 80

قال: نعم، ولكن إذا استمرَّ الإنسانُ في ارتكاب المعاصي، وسبَّبَ الأمراض لنفسه، وأصرَّ على ذلك، وتمادى دون أن يتراجَع ويتوب، فإن العِقاب يقع عليه.

ورحمة الله غالِبة على عِقابِه، لكن ليس بشكل مفتوح، فيمْكِنُ أنْ ينجُوَ الإنسانُ بأُعْجُوبَةٍ من حَادثِ سَيرٍ مُرَوِّعٍ، أو من تفْجِيرٍ، أو حَرِيقٍ، أو مرض، وما إلى ذلك من أشْكالِ المَخَاطِرِ، فيُنَجِّي اللهُ عَزَّ وجلَّ هذا الشَّخصَ، أو ذاكَ في اللحظاتِ الأخيرَةِ بأعجوبةٍ ينذهل لها النَّاسُ.

وهذا لا يكون دائِماً، وإلّا لتَحوَّلَت الحَياةُ إلى شِبهِ فوضَى، فالمُعتَدِلُ في الإنْفاقِ يكونُ كالمُبَذّر، وسَارِقُ أمْوالِ النَّاسِ يكون كالأمِيْنِ، والمُحَافِظُ على صِحَّته يكونُ كالمفَرِّطِ فيها، والعامل المُنتج، يكون كالخامل المُستهلك، والمطيع، كالعاصي.

ما قبل الرسول وما بعده

نظر إبي إليَّ وقال: استطاعَت شخصيَّة محمد عليه الصَّلاة والسَّلام أن تجعل البشريَّة في مَرحلتَين، مَرحلة ما قبل محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ومَرحلة ما بعده.
الحياة قبل القرآن ليست كالحياة بعده، والبشريَّة قبل محمد ليست كالبشريَّة بعده، ازدهَرتْ الحياةُ، وازدهَرَ الإنسانُ أكثر بعد القرآن، وتفتَّحَت أمامه آفاق لم تكن مُتفتِّحةً مِن قَبل.
ولذلك يا بُني، البشريَّة جَمعاء في كل زمانٍ ومكان تنتفع من القرآن، وإذا نظرتَ إلى بعض القوانين التي نعيشها في هذه البِلاد سترى بأنَّها مأخوذة عَن القرآن الذي هو كِتاب الله الأخير للإنسانيَّة جَمعاء.

نحن الآن ننعم بالحياة ونعيش في أمانٍ ورفاه بسبب وجود القانون، وتطبيقه على الجميع في كل المستويات، وهكذا نستطيع أن نعيش مشاعرنا الحقيقية بالطمأنينة والأمان، فلا يُسمَح لأحدٍ في هذه البلاد أن يعتدي على أحد مهما كان حجم هذا الاعتداء لأن القانون يعاقبه إن تطاول.

القضاء هُنا يا بُنَي لا يمكن الاحتيال عليه، ولا يصدر القاضي أي حكمٍ دون أن يتحقَّق منه من مختلف المصادر والشواهد، لأنَّه لا يسمح بكل إمكاناته وصلاحياته أن يُحتال عليه. وهذا ما تجده في إتاحة فُرَص العَمَل، والتِّجارة، والابتكار، والإنتاج، للجميع دون تمييز. لقد أخذوا بجوهَر القرآن وتقدَّموا به رغم أنَّهم ليسوا مِن ملَّة القرآن.

وبدأ العالَم يكتشف المُنجزات التحوّليَّة الكُبرى مُسترشِداً بعلوم القرآن التي أسَّسَت لثورة المُنجزات الهائِلة التي حقَّقها الإنسان بتدرّج، والتي سوف يُحقّقها بتدرّج، لأنَّ كل جيلٍ من كل زمانٍ ومكان، يجد حصَّته فيها مِن المُنجزات.

يقول أدوارد مونتيه[1]:
(إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التّاريخ وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً. إن الطبيعةَ الدّينية لمحمّد عليه الصلاة والسلام تدهش كل باحث مُدقِّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدَّة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يقم بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدّين إلا بعدَ أن تأمّلَ كثيراً وبلغَ سنّ الكمال).

جاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم حامِلاً القرآن ليُحسِّن للبشريَّة حياتها، ويُتيح لها الدخول إلى حقبة المُنجزات التحوليّة الكُبرى في التّاريخ البشري. فقد أتاحت هذه العلوم القرآنيّة للإنسان أن يدخل حقبة المُنجزات بِما لم يدخل مِن قبل، بل بِما لم يكن يخطر على باله مِن قبل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ

[1] مستشرق فرنسي

اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: "نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ"[1].

الكلام عن الرَّسول يا بُنَي، هو كلامٌ عن القرآن، لأنَّه حامل رسالة القرآن، وكما أنَّه لا ينفصل عن القرآن، فإن القرآن لا ينفصل عنه.
كان عفيفاً ونقياً وصادقاً وطيباً، مرَّ بتجارب حياتيَّة متقلِّبة، وقد هيَّأه الله لهذه الرسالة العالميَّة والإنسانيَّة العظيمة: **{اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}**[2].

سَكينة العِبادة

خالتي ماري تصغر أمّي بخمس سنوات، وهي متأثّرة بشخصيَّة أبي، وسمعتها أكثر من مرة تقول بأنَّها تحسد أمّي على حياتِها مع هكذا شخص نقي ومهذَّب وأليف، وأنَّها عندما تنظر إليه تشعر بطمأنينة، وراحة نفس، تشعر بعمق الحياة، وكذلك ببساطتها.
تشعر بجمالِها وعذوبتها، وبأهمّية التوازن والانضباط في حياة الإنسان، وأن الحرّية لا تكون في الانفلات واتِّباع الأهواء، بل بضبطها، وتوظيفها توظيفاً إيجابياً.

خِلال السنوات الماضية، استطاعَت خالَتي بجهودِها ومساعدتنا واستخدام بعض البرامج، أن تتعلَّم اللغة العربية، وعندما تَزورنا، تتحدَّث معنا باللغة العربية، وتقول بأنَّها تفعل ذلك حتى تروّض لسانها على هذه اللغة.
وأراها في بيتِنا تتوضّأ مع أمّي وتقرأ معها القرآن، وعندما ترانا في البيت نصلّي الجماعة، تبقى واقفة وهي تنظر إلينا دون أن تجلس

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (1813) عن أبي هريرة، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين
[2] سورة الأنعام، الآية 124

حتي نفرغ من الصلاة، وأحياناً تُصلّي مَعَنا وتقول بأنَّها عندما تُصلّي، تشعر براحَة وسَكينة نفس، وأنّها في بعض الأوقات عندما تكون مكتئبة في البيت، تتوضّأ وتُغلق باب الغرفة على نفسها وتمضي ساعتَين وهي تُصلّي، فتشعر بأنَّ نفسيّتها تغيَّرت تماماً وانقلبت من حالٍ إلى حال.

وسمعتها تقول لأمّي بأنَّها تحدَّثت بذلك لصديقةٍ مقرَّبةٍ مِنها اسمها (آريا)، وتأثَّرَتْ صديقتها، وطَلَبتْ مِنها أن تُعلّمها الوضوء والصَّلاة، وهي بين فترةٍ وأخرى تُعلّمها الصَّلاة مع بعض ألفاظ اللغة العربية.

وأذكر أنَّها ذات يومٍ بعد أن فَرغَتْ معنا من صلاة الجماعة، قالت لأبي: عندما أصلّي أشعر بأن كل حركة من حركات الصَّلاة تُنقّي روحي مِن الشوائب التي كانَت عالِقة بِها.

ثم بكت لبعض الوقت وأردفت تقول: في الشهر الماضي مُصادَفَةً مررتُ بجانب مسجدٍ وكان وقت الصَّلاة، وسمعتُ الأذان، ووقفتُ أنظر إلى الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً يأتون من الطرقات ويدخلون المسجد.

كم تمنيتُ أن أكون أحدهم، كم حسدتهم على هذه الطقوس، وهذا الجَمع، وهذه الألفة.

ولم أتمالك نفسي، فدخلتُ المسجد، توضأت، ورحتُ أصلّي مع النساء، كانت أجمل الأوقات التي عشتها في حياتي.

بعدها جلستُ في المسجد أقرأ القرآن بحسب إلمامي البسيط بالعربيَّة، والدموع تنهمر من عينَي ومع كل دمعةٍ من تلك الدموع كنتُ أشعر براحةٍ.

قال أبي: القرآن هو كتاب طمأنينة النَفس، كان المستشرق آرثر آربري يقول:

(عندما أستمع إلى القرآن يُتلى بالعربية، فكأنما أستمع إلى نبضات قلبي).

قالَت: عندما خرجت مِن المَسجِد، شعرتُ بحالةِ نقاءٍ لم يسبق لي أن شعرتُ بِها مِن قبل. ولكن واقعنا كثرت فيه الذنوب.
قال أبي: إذا لم يُذنب الإنسان، لا يتوب. ولذلك بيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"[1].

فيمكن أن يُستدرَج الإنسانُ في وضعٍ ما، أو في نقطة ضعفٍ ما، أو في زلَّةٍ ما.
وهُنا يبقى الإنسانُ رهن حجم إيمانِه، فإن كان إيمانُه قويّاً، يستنكر الذنب الذي وقع فيه، ولا ينقطع عَن صَلاته ولو في فريضةٍ واحدةٍ.
قالَت: هل هناك مثال يا أبا محمد جرى على أرض الواقع؟
قال: حصل شيءٌ من هذا مع الصحابي ماعز، وهو ماعز بن مالك الأسلمي رضي الله عنه.
يقول سليمان بن بُريدة عن أبيه أنّه قال: (جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي.
فَقَالَ: "وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ".
قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي.
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ".
قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي.
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: "فِيمَ أُطَهِّرُكَ"؟
فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى.
فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَبِهِ جُنُونٌ"؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: "أَشَرِبَ خَمْراً"؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَزَنَيْتَ"؟

[1] رواه ابن ماجه في سننه رقم (4285) كتاب الزهد، باب ذكر التوبة

فَقَالَ: نَعَمْ). وأمر بالعقاب، وبعد ذلك قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ"[1].
وليسَ مطلوباً من المذنب أن يُخبر بذنبه الذي ستره الله فيه، بل أن يستر نفسه، وحتى لو سُئل ينكر، ويستغفر الله ويتوب إليه.
يقول أبو هريرة: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ: أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ يَا فُلَانُ: عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ")[2].

فدوماً يمكن للإنسان أن يعود إلى ربّه ويستغفره ويتوب إليه.
جاء عَن عبد الله بن مسعود: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ"[3].

عندما تذكرين الله، فإن الله يذكركِ أكثر، حتى يُحبكِ وهذه درجة رفيعة من درجات القرب من الله، وعندها تكونين مع مَن قال فيهم الله في الحديث القدسي: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ". هكذا تكونين في عناية الله، ويكون الله مدافعاً عنكِ. ثم: "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ

[1] رواه مسلم في صحيحه رقم (3309) كِتَابُ الْحُدُودِ، باب مَن اعترف على نفسه بالزنى
[2] رواه البخاري في صحيحه رقم (5744) كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه
[3] رواه مسلم في صحيحه رقم (5058) كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ"[1].

هذه مِن القِيَم التي تربينا عليها مِن خِلال سيرة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وقد علَّمنا النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أهميَّة الدُّعاء عند الصَّلاة، بقوله: "أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ".

وأراها كيف تنظر إلى أبي بوقار، تنظر إلى وجهه الدائري الممتلئ والذي يشع منه نور، إلى لحيته الخفيفة التي يكسوها البياض، وتسأله عن أشياءَ كثيرة، وتستمع إليه وهو يتحدَّث. ثم تقول بأن ذلك أفضل ما سمعته على الإطلاق.

بعد صمتٍ لم يطل به ونحن ننتظر ما سيقول، جاء صوتُه الهادئ:

يدعوكِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإحسان بحُسن نيَّة وبخامَةِ الإيْمانِ في قلْبِكِ، أنْ تشْعُري بمَسْؤوليّةٍ تجَاه مُسَاعدَة النَّاس وفْقَ الإمْكَاناتِ التي يتِيْحُها اللهُ لكِ. فيعْطِيكِ اللهُ من راحَةِ النَّفْسِ، من العَافيَةِ، من السُّمْعَةِ الطَّيّبَة، من الحِمَايةِ من الأذَى الذي يُحِيقُ بكِ، من النَّجاْةِ من الكَوَارِثِ، من خَصّكِ ببعضِ الكَرَامَاتِ.

أحيانَاً تنظرين إلى شخْصٍ، فترين الذلَّ في قسَمَاتِ وجهه، ويكونُ وجهه مُحْتَقِناً وقد اسْتَولَتْ غمامةٌ داكِنَةٌ على قسَمَاتِ وجهِه، وأطْفَأَتْ فيه نورَ الإنسانِ الطَّيّبِ، فيُصبحُ وجْهُه قاتِمَاً، لأنّه قد أرْهَقَ نفسَه بالمَعاصِي والتَّجَاوُزَاتِ على حُدُودِ الله، فيظهْرُ أثرُ ذلك على وجهِه.

ولذلكَ نرى الفَاجِرَ مُرهَقاً بالذلِّ نتيجةَ الانْحِطَاطِ الذي يُمارِسُه، فهو مُرْهَقٌ ومُنْهَكٌ نفسِيَّاً وبدنيَّاً، ومشوَّشُ الذِّهْنِ.

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم (6164) عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب التواضع

كما أن المُحْسِنَ مُستَقرٌّ نفسِيَّاً وبدنِيَّاً، ويتمتَّعُ بصَفَاءِ الذِّهْنِ، نتيجَةَ أعمالِ الإحْسَانِ التي يُقدِّمُها بصدْقٍ لوجهِ الله تَعَالَى.
فهو يشعُرُ مع كلِّ عملِ خيرٍ براحةٍ نفسيَّةٍ، وبدرجةِ قربٍ جديدةٍ إلى اللهِ، فيكونُ كل عملِ خيْرٍ بالنِّسْبَة إليه صلاةً.
في حينِ أنَّ الفاجِرَ يشعُرُ مع كلِّ عملٍ فاجِرٍ بإرهاقٍ نفسِيٍّ وبدنَيٍّ أكثر، وببعدٍ عن اللهِ أكثر. وهكذا تتعلَّمين مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنَّ تعَب العِبادةِ إشْراقٌ، وتعَب الفُجُوْرِ احْتقَانٌ، تعَب العِبادةِ راحةُ نفسٍ، وتعَب الفجُورِ اضْطِرَاب نفسٍ. والخَسَارَةُ في العبادَةِ، مهما كانَتْ كبيرةً، فهيَ ربحٌ كبير، والرِّبْحُ في المَعْصيةِ، مهما كانَ كبيرَاً، فهوَ خسَارَةٌ كبيرَةٌ.

التأسيس لعالميَّة الإنسان

في الثانية عشرة ليلاً، نهضتُ مِن النّوم وأنا أشعر بعَطَش، ورأيتُ إبريق الماء فارِغاً، فحملته ورحتُ إلى المطبخ كي أملأه، وهناك رأيتُ خالَتي تعدّ صحناً من شرائح البرتقال والكيوي.
وما إن رأتني حتى قبَّلَتني وقالت: خذ الإبريق يا محمد وتعال لتأكل معنا قبل أن تنام. فهززتُ رأسي وقلت: حاضر يا خالَتي.
أخذتُ الإبريق، ووضعته على المائدة بجانب سريري، وعدتُ إلى غرفة أمّي ورأيتُ خالتي جالسة على إسفنجة على الأرض مع أمّي وبجانبهما صحن الفاكِهة وفيه ثلاث شوكات.
عندما رأتني أمّي قالت: ألم تنم حتى الآن يا محمد؟
قلت: نمت، واستفقت.
أجلسَتني خالتي بجانِبها، وصرنا نتناول الفاكِهة، فقالت أمّي متّجهةً بحديثِها لخالَتي: هكذا يا أختي، لقد أخذتُ وقتي الكافي حتى اقتنعتُ بالإسلام، ورأيتُ أنَّه بالفعل سيغيّر لي حياتي نحو الأفضل، وسيجعلني إنسانة جديدة، تعيش حياةً جديدة، وعندها كان قراري الحاسم.
ثم صمتت، وبعد قليل أردفت تقول: محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، غيَّر لي حياتي، تعلَّمتُ منه ما لا يمكن لي أن أتعلَّمه مِن غَيره. والفضل في هذا أولاً لله، ثم لزوجي الذي عرَّفني على شخصيَّة محمد عليه الصَّلاة والسَّلام الذي حمل القرآن، وعانى أشدّ المُعاناة حتى نجحَ في إيصاله إلى مشارق الأرض ومغارِبها لتُطبع منه ملايين النُّسَخ، ويُصبح من أكثر الكُتب قراءةً، وأكثرها تأثيراً في الناس، وتغييراً لمسار حياتهم نحو الأفضل والأجمل.
ولا أخفيكِ يا أختي مشاعري بأن المُستقبل في بلادنا، وفي بِلاد العالَم لن يكون سوى للإسلام، وسوف يملأ اسم محمد كل بيوت

الناس، لأنَّه سوف ينقذهم مِن أمراض العصر الروحية التي تتفشّى فيهم.
صحيحٌ نحنُ الآن ننعم بالرفاهية، ولكنّنا أفرطنا في إعطاء الحرّية المُطلَقة للإنسان حتى وصلنا في جوانب منها إلى مراحل قميئة تبعث الاشمئزاز في النفس. وأيَّةُ حُرّيَّة عندما نُتيح للإنسان أن يُصبح عبداً لأهوائه حتى تلك القميئة مِنها، أن تتمرَّد الزوجةُ على زوجِها، ويتمرَّد الأبناء على أبوَيهم؟.

لقد استَهلَكَتنا المادّية المُفرطة يا ماري، الأهواء دون ضابط، وفقدنا جمالية العلاقات الاجتماعية، وأُنس العائلة، وطاعة الأبوَين.
لقد حوَّلنا القانون إلى دِين، ففي كل صغيرةٍ وكبيرة نلجأ إلى القانون ونُقحِمه في تفاصيل حياتِنا، وصار يتدخَّل حتى في تربيتنا لأبنائنا، وفي العلاقة بين الزوجَين.
وكما ترين يا أختي، تحوَّلنا إلى ضحايا للحريّة المفتوحة، لقد تقدَّمنا على كافة الصعد، ولكن تراجعنا روحياً إلى الحَضيض، تراجَعنا في حميميَّة علاقاتنا العائلية والاجتماعية.
لقد أفرطنا تحت شعارات الحرية الشخصيَّة، في استباحة طاعةِ الأهواء والغرائز دون ضوابط.
ولكن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم علَّمَتني بأنَّ الإنسان يشقى عندما يكون تابِعاً لأهوائه وغرائزه، أكثر مِمّا يسعد، ويسعد عندما يكون ضابِطاً لأهوائه وغرائِزه أكثر مِمّا يشقى.
لقد أسلمنا أنفسنا للتكهّنات بأنّنا سنكون سُعداء عندما نستبيح حتى المُحرَّمات والنواميس، ونُفكّك العَلاقات العائلية.
الإنسان عندنا يبدو سعيداً في الظاهِر، ولكنَّه في الحقيقة مهزوزٌ مِن الداخِل، ويعيش حالة صراعٍ حادَّة بين الظاهِر والداخِل.

أجل يا أختي، رغم كل مظاهر البذخ والرفاهية والأمن والاقتصاد، فإنّنا تُعساء في الداخل، لأن نفوسنا مكتئبة، ونعيش مرارة الهزيمة في دواخِلنا، هزيمة اتّباع الأهواء، والخنوع لها.
لقد انجررنا خلف القوانين الوضعيَّة التي هي في أفضل مستوياتها عبارة عن مجموعة تكهّنات بشريَّة، وإن كانَت تصلح لبعض مستجدّات الحياة مثل قوانين السَير، ومخالفات التموين، ولكنها لا تصلح لكثيرٍ من العلاقات الإنسانية والعائليَّة، والحريَّة الشخصيَّة.
في حين أن القرآن أعطى للإنسان حقَّه ونظَّم له حياته؛ بحيث يكون سعيداً في حياته ومستمتِعاً بِها، لأنَّه تشريعٌ من الله العالِم بكل نزعات الإنسان ومكنوناته، ولذلك لم يصب الأنبياء، وصحابتهم باليأس، بل كانوا في ذروة معنوياتهم العالية حتى وهم في غمرة المعاناة والشدائِد، وبقي هذا للمؤمنين عبر الأجيال، ولكن حتى بعض الذين سنَّوا لنا هذه القوانين الوضعيَّة، أو حتى بعض النوابغ مِن مختلف المجالات في بلادِنا، انتهوا إلى الاكتئاب، والإدمان، والانتحار. وهذه حقائِق ملموسة علينا أن ننتبه إليها جَيّداً.

نحن نحتاج إلى هؤلاء الناس الأفاضل كي نتعلَّم منهم، نحتاج أن نقرأ آدابهم، ونستمع لموسيقاهم، ونشاهد فنونهم، نحتاج أن نتلاقح بهم، وأن نتصاهر معهم، أجل يا أختي أصارحكِ القول بأنّنا نحتاج إليهم أكثر مِمّا هم يحتاجون إلينا.
الإنسان السعيد، لا يُدمن الكحول، أو المُخدِّرات، أو يُجيز لنفسه الانحراف، لأنَّ هذه السلوكيّات في حقيقتها هي مُحاولاتٌ للهروب من واقع تعيس. ولذلك فإنَّ زوجي لا يفعل هذه السلوكيّات، لأنَّه سعيدٌ في حياتِه، وأنا سعيدة معه، وابننا سعيدٌ معنا.

محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، هو معلّم كبيرٌ للبشريَّة، وتعاليمه مُتجدِّدة تصلح لأجيال كل زمانٍ ومكان، واستطاعَ أن يؤسِّسَ

لعالميَّة الإنسان، وخروجه مِن نطاق محلّيته الضيّقة إلى رحابة العالَم.
لذلك فإن رسالته هي لنا أبناء الغرب تماماً كما هي لأبناء الشرق، والقرآن هو خِطاب عالمي، يرى كل جيل جديد على مدار الزمن، حصَّته ومكتشفاته فيه، هو رسول الله لكل إنسان بشكل مفتوح ودون أي استثناء.

يُحافِظ الإسلام على نقاء الإنسان، وعلى عرضه، وعلى سويّة العلاقات الاجتماعية، وعلى ضبط الأهواء وتوظيفها توظيفاً إيجابياً، وطاعة الأبوَين، والمُداوَمة في العِبادة، وعلى حشمة المرأة التي تمثّل رمز الشرف لعائلتِها.

يقول تولستوي: (أنا من المبهورين والمعظمين بمحمد، فهو الذي اختاره الله لتكون آخر الرسالات على يديه، ويكون هو كذلك آخر الأنبياء، فيكفيه فخراً وشرفاً أنه خلص أمة ذليلة همجية دموية من مخالب شيطان العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم. محمد -عليه الصَّلاة والسَّلام- هو مؤسس دين، ونبي الإسلام، قام بعمل عظيم بهدايته وثنيين قضوا حياتهم في الحروب وسفك الدماء، فأنار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله)[1].

وتقول الكاتبة زغريد هونكة: (إنّ محمّداً والإسلام شمس الله على الغرب، كان رسول الإسلام يعرف أن المرأة ستجد طريقها بجوار الرجل ذات يوم، لذا آثر أن تكون المرأة متدينة، لها لباس معيَّن، حتى تقي نفسها شر النظرات وشر كشف العورات.

[1] حِكَم النبي محمد – ليو تولستوي

ورجل بهذه العبقرية لا أستطيع أن أقول إلا أنه قدَّم للمجتمع أسمى آيات المثالية وأرفعها، وكان جديراً أن تظل الإنسانية مَدينة لهذا الرجل الذي غيَّر مجرى التاريخ برسالته العظيمة)[1].

عند العصر وكانَت خالتي قد عادت إلى بيتِها، جاء رنين هاتف أمّي مِن المطبخ القريب من الغرفة التي كنا نجلس فيها معاً، واتَّجهت إلى المطبخ وفتحَت الخط.
كان ذات الصوت الذي أخبرها بزواج أبي، وقد حفظت ذاكرتي تلك النبرات.
قالت: أنصحكِ بتقديم شكوى إلى البوليس حتى يسجنوا زوجكِ ويُرغِموه على طلاق تلك المرأة التي خَطَفَته منكِ.
قالَت أمّي: وهل تعتقدين بأنَّني سأقدر أن أنام لحظةً واحدةً وهو في السجن، وكيفَ تتخيَّلين بأنّني سأستطيع أن أحتمل مشاعر الألم وأنا أسجنه، وأيَّة امرأة أنا حتى أُدخِل البوليس إلى عشّي الزوجي، وأطلِعه على أسرار حياتنا الزوجية.
ولن أسامِح نفسي على ذاك التمادي على مَن عشتُ معه أكثر لحظات حياتي جماليةً، وحناناً، وحباً، وإنسانيةً، ورهافةَ مشاعِر، وأفضيتُ له بِما في قلبي، وأفضى لي بِما في قلبه، وبيننا كائنٌ جميلٌ نصفه منه، ونصفه منّي.
قالت: لكنَّه تزوَّجَ عليكِ وخدعكِ.
قالَت أمّي: اسحبي كلمتكِ الأخيرة وإلّا أقفلتُ الخط بوجهكِ حالاً حتى لو تزوَّجَ عليَّ ألفَ امرأة.
فقالَت المرأة: أعتذر، ولكن تزوَّج من امرأةٍ أُخرى والقانون يُعاقِبه على ذلك.

[1] شمس العرب تسطع على الغرب – زغريد هونكه

قالَت أمّي: بالنسبة لبيتي الزوجي، أنا القانون، ولن أسمح لأي قانونٍ أن ينتهك حياتَنا الزوجيَّة، ولن تستطيع قوَّةٌ في العالَم أن تمسَّ شعرةً مِنه مادام الأمر يخصُّني.
ثم قالَت: لم يرتكب زوجي جرماً، ولم ينحرف بعلاقاتٍ غير شرعية، وعلاقته بتلك المرأة، علاقة منضبطة وفق شريعة الدين الذي اقتنعتُ به واعتنقته بمحض إرادتي.
ولو خُيّرتُ بين أن يتزوّج، أو يدخل في علاقة غير شرعية، لاخترتُ له الزواج على أن يأتي إلى بيتي مُدنَّساً بعلاقة غير شرعيَّة.
زوجي فيه شيء من أبي، ومن أخي، ومن ابني، ولولا ذلك لَما كانَ زوجي، ولَما كنتُ زوجته.
زوجي هو المثل الأعلى الذي لن أسمح لأحدٍ أن يُزحزحه من مكانته.

وعلى الفور أقفلتْ الخط وجاءت إلى ذات الغرفة، ورأتني ما أزال جالِساً، وعندها أدركَتْ بأنّني سمعتُ الحديث الذي دار بينها وبين تلك المرأة المجهولة، تقدَّمَت إلي وقبَّلتني، ثم شبكت كفّها بكفّي وقالت: الحياة محطّات يا محمَّد، ولن ندع أحداً يشمت بِنا، هُناكَ أناس ما إن يروا في بيتٍ شرارة نارٍ صغيرة، حتى يأتوا لينفخوا فيها كي تلهب البيتَ كلّه.
علينا أن نُحافِظ على قوّتنا، ولا ندعَ أزمةً من أزمات الحياة تُضعِفنا، وتجعلنا نخرج عن أطوارِنا، علينا بالمزيد مِن ضبط النَّفس، بالمزيد، المزيد ما أمكننا ذلك.
نجد الإرشاد الديني السليم في ديننا يا بُني وعلينا ألّا نتشتَّت، فيمكن لخطيئة واحدةٍ نتيجة ردَّ فعلٍ، أن تُدمِّر كل ما بنيناه خلال سنواتٍ مِن أعمارِنا بالجهد والكدّ.

علينا قبل كل شيء أن نلجأ إلى إرشاد الدِين لأنَّه الإرشاد الأسلم والأكثر حكمة كخطوةٍ أولى وأساسيَّة.
وعلى هذا الأساس المضمون النتائج، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ"[1].

أحياناً تكون عواقب سوء إدارة الأزمة أفدح من عواقب الأزمة ذاتها فيما لو تركتها على حالِها يا وَلَدي.
كثيرٌ من الخسارات الفادحة لا تكون بسبب أصل الأزمة التي تواجِهكَ، بل بسبب اندفاعك وعدم حكمتك في علاجِها.
وصيَّتي لك يا محمد كن على حذر ما أمكنك، كُن ناجِحاً ومتفوّقاً حتى نرفع أنا وأبوك رأسَينا بك أمام الله، ثم أمام الناس.
لا تخذلنا يا بُنَي لا تنجرَّ خلف ردود الأفعال إن واجَهتكَ عَقبة في الحياة، والعَقبات كثيرةٌ، كثيرة وما أكثرها، كُن نقيَاً كماءٍ عذب، وقوي الشخصيَّة مثل أبيك. وعندما ينتابكَ ضعفٌ ما، الجأ إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيكون كل شيءٍ على ما يُرام.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه رقم (5785) عن أبي هريرة، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب

حكمة أمّي

ذهبتُ إلى المكتبة، ورأيتُ أبي يجلس حول مائدَةٍ مع بعض أصدقائِه ويتحاورون عَن المُستجدّات في بِلادِنا، وفي العالَم، وعن كتبٍ جديدة، عَن بعض الأحداث التي وقعَت مؤخّراً.
وبين حينٍ وآخر يأتي صديقٌ ليُشارِكهم الجلوس، ويأتي العامِل الفنلندي الذي يعمل في المكتبة، ويُقدّم لهم الشاي والقهوة والماء والتمر. جلستُ على كرسيٍّ أستمع لأحاديثهم، كان أبي يبدو لي بحراً مِن المَعرِفة لكثرة قراءاتِه في مختلف أجناس وألوان المعرفة والثقافة، وكان هُناك أشخاص أيضاً على قدر كبير مِن المعرفة، يتحدَّثون بأشياءٍ لم أكن قد سمعتها، ويستشهِدون بآياتٍ قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة في أحاديثِهم.
وعندما حان موعد صلاة الظهر، نَهَضوا واتَّجَهوا إلى الغرفة التي خصَّصَها أبي للصَّلاة، واتَّجَهتُ معهم لصلاة الجماعة، وتقدَّم أبي يؤمّنا. وبعد أن فرغنا، انصرف البعض، وعاد البعض يجلس في ذات المكان، ولبثنا نحو ساعة حتى فرغَ المكتب، وطَهَت العامِلة طعام الغداء ونادتنا لتناول الغداء في الطابِق العلوي، فاجتمَع عُمَّال وعامِلات المكتبة وجلسنا جَميعاً برفقة أبي نتغدَّى.
ثم ذهب أبي إلى مكتبه الخاص الذي اعتادَ أن يرتاحَ فيه بعض الأوقات، ولبثتُ أتحدَّث نحو نصف ساعة مع العاملين والعامِلات في المكتبة، ثم اتَّجَهتُ إلى أبي، وكان مُمَدَّداً على الأريكة.

عند ذاك وأنا أنظر إلى عينَيه المُغمَضَتَين، تسرَّب إليَّ شعورٌ بأنَّني حَرَمته مِن الذَهاب إلى زوجَته. ولا أدري لماذا بدأتُ أنظر إليه

نظرات شفقة حتى رأيته يفتح عينَيه ويقول: أمازلتَ هُنا يا محمد، لم تذهب إلى البيت؟
قلت: نعم يا أبي.
وضع كفَّه على جَبهتِه وبعد قليلٍ صار يُفرّك عينَيه ويقول: أريدُ أن أزوّجكِ يا محمد حتى أرى أحفادي، وأيضاً ترى أمُّك أحفادها.
تفاجأتُ بقوله الذي أحرَجَني، وصرتُ أتنحنح خَجَلاً. فكرَّرَ عليَّ ما قال بلهجةٍ أكثر جدِّيَّة وهو ما يزال مُمدّداً على ظهره على الأريكة ويُفرّك أطراف عينَيه برؤوس أنامِله.
قلت: القَول في كل ما يخصَّني هو ما تقوله يا أبي، والرأي ما تراه، ولن تجدني إلّا مُطيعاً لك.
قال: ألا توجد فتاة مُعيَّنة يا بُني خطر لك أن تتزوَّجها؟
قلت: لا يا أبي.
قال: لِتعلَم يا بُنَي أنَّ أصعب اختيارٍ في حياة الرجل هو اختيار الزوجة لأنَّ حياته كلّها ستكون على أساس هذا الاختيار. ولذلك لا بدَّ مِن السؤال عَن كل ما يخصّ هذه المرأة قبل التقدّم لها، لا بد من اختبار جوانِبَ عديدة وعدم الاستِهانة بشيء، حتى المِهنة مهما تمرَّستَ فيها وأمضيتَ سنواتٍ فيها، فيمكن لك أن تتركها وتستبدلها بمِهنةٍ أخرى إذا واجَهَتك بعض الصعوبات، أو إذا وجَدتها تُلحق بِكَ الضَرّر سواء مادّياً أو معنويّاً في مرحلةٍ ما وينتهي كل شيء.
ولكن الزوجة إذا كان اختيارك متسرّعاً أو خاطِئاً لها وخاصّةً إذا أنجَبَت لك الأولاد، فلا يمكن لك أن تنتهي مِنها بسهولةٍ حتى لو طلَّقتها وسيبقى أذاها يُلاحِقكَ مدى العُمر.
المرأةُ السلبيَّةُ يا بُنَي إذا انطَوَت على شَرّ قَد تُلحق بِكَ وبأولادِكما الدَمار مهما كُنتَ قوياً ومُتمَكِّناً، والمرأةُ الإيجابيَّة مهما حَصَل بَينكما مِن خلافٍ وحتى لو بَلَغَ مرحلة الانفصال، تَبقى تُحافِظ على العِشرة التي كانَت بينكما وتُحافِظ على سلامة أولادكما وتَعمَل بأصلِها وتربيتها وأخلاقِها في مُختلَف الظروف.

إيّاكَ يا بُنَي والمرأة التي لا أصل لها، ولا أخلاق، ولا ثقافة، ولا تربية، ولا قِيَمَ لها.
يولد الرجل لأوّل مرَّةٍ مِن أمّه التي تُنجبه وعندما يتزوَّج ويفتح بَيتاً ويؤسّس لعائِلة، يكون ذلك بمنزلة الولادة الثانية له.
ثم صمتَ أبي وغَرِقَ المكتب في صمتٍ مهيبٍ، وصرتُ أشرد بِما قالَه لي وبين لحظةٍ وأخرى أختلسُ إليه نظرة سَريعة فأراه يُحدّق في السَّقف وهو ما يزال مُسترخياً ومُمَدّداً على ظهره مِن آثار الجهد الذي بَذَلَه.
تناهى صوتُه بهدوءٍ وهو ما يزال يُحدِّق في السَّقف: عندما لا تشعر بارتياحٍ وأنتَ تنظر إلى المرأة التي تُريد أن تتزوَّجها، ابتعد عنها لأنَّ نظرة الارتياح إلى الزّوجة هي أساس الاستقرار العاطفي.
عندما رأيتُ أمَّكَ يا وَلَدي تولَّدَ لدي شعورٌ بأنَّها جزءٌ منّي وأنَّني جزءٌ مِنها. تلكَ النظرة ما تزال كما هي لم تتغيَّر.
ورأيتُ الدموع تنهمر مِن عينَيه وهو يردف بغصَّةٍ: أجل يا بُنَي أحببتُ أمَّك حباً كبيراً وما أزال على لهفة تلك النظرة المُرتاحةِ الأولى التي نظرتها إليها في ذاك المَتجَر، وما أزال أحافِظ على عهد حبّي لها وكيف يمكن لي أن أنساها وهي التي أحبَّتني كل ذاك الحُب وأخلصت لي كل ذاك الإخلاص وبَذَلَت كل ما بوسعها لراحتي ونجاحي.
ثم نظر إليَّ وقال: لكن يا بُنَي بذات الوقت كنتُ أحترق وأنا أراك وحيداً لا أخ لك ولا أخت.
وبعد صمتٍ استغرقَ زهاء ربع ساعةٍ، رأيته يتمطّى ويُصدِر شيئاً مِن التأوّه، كما لو أنَّه يطرد الإرهاقَ مِن بَدَنِه، وتَحرَّكَ واستوى جالِساً على الأريكة.
وبدا لي أنَّه غير مستقر، فتكهَّنتُ بأنَّه يُريد أن يذهب إلى زوجَته، ولا أدري لماذا في تلكَ اللحظات راودتني رغبة جامِحة كي أراها، فَمَن هذه المرأة التي أخذَت أبي مِن بيته ومِن عشِّه الزَوجي الآمِن

طوال سنتَين، وإن كانَت حياته الشخصيَّة، أليس مِن حقّي أن أعرف تلك المرأة وأراها وأتحدَّث معها، لأنّها تخصُّ أهم وأقرب شخص إليّ في الحياة، وصاحِب فضلٍ على كل يومٍ مِن أيام حياتي، وكل لقمة تناولتها في حياتي؟ إنَّه أبي، ومؤسّسي، ونور عينَي.
وفجأةً رأيته ينظر في عينَي ويُطيل النَّظَر، ثم قال: يا بُنَي، لم تَعد صغيراً، أنتَ الآن شاب، وأريدُ أن أُخبِركَ بسرٍّ.
وقبل أن أقول شيئاً، قال: لقد تزوَّجتُ يا بُنَي امرأة ثانية منذ سَنَتَين.
رفعتُ عينَي أنظر إليه، فأردَف يقول: وأنت الآن يا محمد لك أخ ولك أخت توأم، وعمرهما خمسة أشهر.
نهضتُ مِن مقعدي، وجلستُ مُلاصِقاً له على الأريكة وقلت: صحيح يا أبي لي أخ وأخت، ولِمَ لم تُخبرني بهذا الخَبر المُفرح؟
قال: أخفيتُ ذلك حِرصاً على مشاعِر أمَّك يا بُني، ولم أخبر أحداً.
قلت: يا أبي أرجو أن تأذن لي برؤيتهما.
ضحكَ وقال وهو ينهض: لك ما تُريد يا محمَّد. ثم خرجنا إلى حيثُ السيَّارة، ومضى أبي في الطُرقات الفرعيَّة والرئيسيَّة حتى توقَّفَ أمام بِناءٍ، ونزلنا إلى شقَّةٍ، فتحها أبي بالمُفتاح الموجود لديه، وفور دخوله قال: أماندا.. أماندا.. معي مفاجأة عزيزة.
بعد لحظاتٍ خَرَجَتْ مِن إحدى الغُرَف امرأة شقراء ذات وجهٍ سَموحٍ، وفي نحو الثلاثين مِن عمرِها، وما إن رأتني حتى هرعت إلي وصارت تُقبّلني بحرارة، وهي تقول بلهجتها الإنجليزية: أهلاً بك يا محمد، لا تستغرب، عرفتكَ من كثرة صوركَ في موبايل والدكَ، ما هذه المفاجأة الحلوة يا عِمران؟
ثم أمسَكَتْ بيدي وقادتني إلى غرفةٍ صغيرةٍ وأشارَت إلى طِفلَين نائِمَين على سريرَين صغيرَين، وقالَت: أتعرفهما يا محمد؟
قلت: أخي أمين، وأختي رُقيَّة، للتو أخبرني أبي بِهما.

ولم أملك نفسي، فتقدَّمتُ وصرتُ أطبع قبلاتي على وجهَيهما، كما لو أنَّي لا أُصدّق بأنَّني لم أعد وحيداً في هذا العالَم، بل لي أخ، ولي أخت، وهذا يعني أيضاً بأنَّي سأكون عمّاً، وأكون خالاً
واحتفَت بي زوجة أبي بشكلٍ لافت، ولم تدعني أخرج حتى أعدَّتْ مائدةً من أصناف الطعام والفاكِهة، ثم قدَّمَت الحلوى، ثم بعض العصائِر والمُكسِّرات، حتى قلتُ بأنَّني لم أعد قادِراً على تناول لقمة طعامٍ واحدة، ولا شربة عصيرٍ واحدة.
وفي المَساء، عدنا إلى البيت، وكانَت أمّي جالِسة تتناوَل كأساً مِن الحَليب.
ونهضَت بدخولِنا، فأشار أبي لها بالجلوس، عند جلوسِنا، صارَت تنظر إلى أبي تارَّةً، ثم إلي تارَّةً أخرى.
كانَت ملامحها مُستقرَّة، وكانَت تبدو غارِقةً في الهدوء، وطال بِنا الصَّمتُ نحو نصف ساعة دون أن يصدر أي صوتٍ مِن أحدٍ مِنّا.
وبعد ذلك جاء صوتُها الهادئ: يا عمران، علينا أن نكون واقعيين، فنظرنا إليها معاً.
أردفَت تقول بذات النبرة الهادِئة: لأنَّنا مهما تهرَّبنا مِن الواقع، وَجَدناه أمامنا. وأعترفُ بأنّني على مدار عشرينَ سنة مِن عمر زواجنا، تعلَّمتُ مِنكَ ما لم أتعلَّمه مِن أبي ومِن كل علاقاتي الاجتماعيّة ومعارفي طوال عمري الذي يشارف الآن على الأربعين.
ودوماً أردّد لنفسي بأنّني لو لم أكن محظوظة بحب الله لي، لَما جعلني مِن نصيبك، ولما جعلك مِن نصيبي، ولَما أكرمني بهذا الولد الذي هو أغلى مخلوق عندي على وجه الأرض، وهو رائِحة منك، ورائحة مني، واجتمع دمُكَ ودمي فيه، ونبضُك ونبضي فيه.
ثم ركنَت إلى صمتٍ استغرق عدَّة دقائِق ونحن ما نزال ننظر إليها، فقالَت وقد صوَّبَت نظراتها إلى أبي: علمتُ بأنَّك تزوَّجت يا

عمران، جَحَظَت عينا أبي، وهو يحيد بنظراتِه عَنها، ولا أدري لماذا أخذ قلبي يخفق بسرعة.
أردَفَت أمّي تقول بذات الهدوء: وعلمتُ بأنَّكَ أنجبتَ توأماً مِن ولدٍ وبنت.
مَطَّ أبي حاجِبَيه وهو ينظر أمامَه، وقَد تسمَّرَت نظراتُها بِه.
فاستأنَفَت: معك حقٌّ يا عمران، كلَ الحَق، وأشكركَ على صبركَ الطَّويل عليَّ، وحرصكَ على مشاعري.
وأنا أستمع وما يزال قلبي يهبط، وألقي بنظراتي تارةً إليها، وأخرى إليه.
قالَتْ: ولكنَّها الحقيقة التي علينا أن نواجِهها بشجاعة.
ألقى أبي نظرةً إليها، وما لبث أن عاد ينظر أمامه.
قَالَتْ: فكما أنَّكَ تُحافِظ على بيتي، أطلب منكَ أن تُحافِظ على بيتِها، وهي مثلي ابنة عائلة، ولها أهل وأقرباء، ومشاعر وأحاسيس.
قالَت ذلك، وما لبثت أن نهضَت مُتَّجهةً إلى غرفتهما، وما لبث أن نهض أبي ولحقَ بِها.

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم
2- صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه)- محمد بن إسماعيل البخاري
3- صحيح مسلم، (المسند الصحيح المختصر من السنن، بنقل العدل، عن العدل، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسن
4- تاريخ الطبري، (تاريخ الرسل والملوك)- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
5- البداية والنهاية- ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، منشورات مكتبة المعارف، بيروت1410 هـ 1990م
6- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1 منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ ١٩٩٠م
7- السيرة النبوية - عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت 1410 هـ 1990م
8- كتاب السير والمغازي - محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، تحقيق سهيل زكار، الطبعة الأولى، منشورات دار الفكر بيروت 1398هـ ١٩٧٨م
9- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين - محمد الخضري، ط2 منشورات دار الفيحاء، دمشق ١٤٢٥هـ 2004 م

10- الشمائل المحمدية- أبو عيسى محمد بن سَورة التِرمذي، ط3 منشورات دار الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1408 1988م
11- زاد المعاد في هدي خير العباد - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٥هـ ١٩٩٤م
12- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، ط1منشورات دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ 1988م
13- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد - محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط1 منشورات دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م
14- جوامع السيرة النبوية - علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي أبو محمد، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، منشورات دار الكتب العلمية بيروت
1424هـ 2003م

15- عبقريَّة محمد صلى الله عليه وسلم- عباس محمود العقاد، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2013
16- نساء النبي عليه الصَّلاة والسَّلام- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت 1399هـ 1979م
17- الدرر في اختصار المغازي والسير- يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق شوقي ضيف، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر 1386هـ 1966م
18- سير أعلام النبلاء- شمس الدين الذهبي، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت 1402 هـ 1982م
19- الإصابة في تمييز الصحابة- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض - منشورات دار الكتب العلمية بيروت 1415 هـ 1995م
20- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط15منشورات دار العلم للملايين بيروت 1422هـ 2002م
21- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق علي محمد معوض- عادل أحمد عبد الموجود، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٤م

22- الغرر والدرر في سيرة خير البشر صلى الله عليه وسلم، عز الدين محمد بن جماعة، تحقيق عدنان أبو زيد، ط1 منشورات دار النوادر، دمشق ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧ م
23- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق محمد علي البجاوي، منشورات دار الجيل، بيروت 1412هـ 1992م
24- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق اليعقوبي، ط6 منشورات دار صادر، بيروت 1415هـ 1995م
25- الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط1منشورات دار الراية، الرياض ١٤١١هـ ١٩٩١م
26- السيرة الحلبيَّة - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، ط2 منشورات دار الكتب العلمية، بيروت١٤٢٧هـ 2006 م
27- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير- أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري، تعليق إبراهيم محمد رمضان، ط1منشورات دار القلم، بيروت١٤١٤هـ ١٩٩٣م
28- أخبار مكَّة وما جاء فيها من الآثار- أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي صالح مَلْحَس، منشورات دار الأندلس، بيروت 1389هـ 1969م
29- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق

عمر عبد السلام السلامي، ط1 منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

30- الشفا بتعريف حقوق المصطفى- للقاضي عِياض، أبي الفضل عِياض بن موسى اليحصبيّ، تقديم وتحقيق عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة 1425 هـ 2004م

31- ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٦هـ1937م

32- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1منشورات دار الكتب العلمية، بيروت 1419هـ 1998م

33- تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ط1 منشورات دار الرشيد، دمشق ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

34- وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم- يوسف بن إسماعيل النبهاني، ط2 منشورات دار المنهاج بيروت 1425هـ 2004م

35- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار- تقي الدين أبي العباس أحمد بن على المقريزي، ط1 منشورات دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ 1998م

36- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، ط1منشورات دار الكتب العلمية، بيروت١٤٢٠هـ ١٩٩٩م
37- الرياض النضرة في مناقب العشرة، أحمد بن عبد الله بن محمد أبو العباس محب الدين الطبري، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت 1405هـ 1984م
38- الخصائص الكُبرى- (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت 1335هـ 2017م
39- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، منشورات دار الفكر للنشر والتوزيع بيروت، مكتبة الخانجي القاهرة 1416 هـ 1996م
40- المصنف في الأحاديث والآثار- عبد الله بن محمد بن إبراهيم أبي شيبة العبسي أبو بكر، تحقيق أسامة بن إبراهيم بن محمد أبو محمد، منشورات دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة 1428 هـ 2008 م
41- غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم- عمر بن علي بن أحمد الأنصاري ابن الملقن، تحقيق عبد الله بحر الدين عبد الله، منشورات دار البشائر الإسلامية، بيروت 1414 هـ1993م

42- الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، ياسين بن خير الله الخطيب العُمَري، حقَّقه وعلَّق عليه حسام رياض عبد الحكيم، ط1منشورات مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1420 هـ2000م
43- أخلاق النبي وآدابه - عبد الله بن محمد بن جعفر الأصبهاني، تحقيق السيد الجميلي، ط2منشورات دار الكتاب العربي، بيروت 1406هـ 1986م
44- تراث الإسلام- جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1405 هـ 1985م
45- يوميات ألماني مسلم- مراد هوفمان، ترجمة عباس رشدي العماري، ط1منشورات مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 1414هـ 1993 م
46- أتح لنفسك فرصة- جوردون بايرون، ترجمة عبد المنعم محمد الزبادي، ط4 منشورات مطبعة الخانجي، القاهرة 1420هـ2000م

47- البحث عن الله- إيڤلين كوبلد، ترجمة محمد أحمد خالد، ط1 منشورات الدار العربية للموسوعات، بيروت 1430 هـ 2009م
48- شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربة)- زغريد هونكه، نقله عن الألمانية فاروق

بيضون، كمال دسوقي، ط8 منشورات دار الجليل، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1413 هـ 1993 م

49- حِكَم النبي محمد - ليو تولستوي، ترجمة سليم قبعين، منشورات دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة 1433هـ 2012م